عارف حجّاوي

أخيَار وأشرَار

وظُرَفاء وثُقَلاء



بُورتريهات

مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

أخيار وأشرار
وظرفاء وثُقلاء

عارف حجَّاوي

عن الكتاب..

أدعوك إلى قراءة هذا الكتاب الذي يتحدث عن 250 شخصية.

ليس كتابًا تسجيليًّا. بل هو نظر في أعماق الشخصية وأقوالها. وفي كل صفحة، أو لنقُل في كل صفحتين أو ثلاث، تجدني أكتب بفرح وانبهار. عندما أُعجب بشخصية فأنا أتحدث عنها كتلميذ في السادس الابتدائي.

لستُ وقورًا حين تبهرني عظمة الإنجاز.

أفرح فرحًا طفوليًّا بالإنسان المخلص.

فماذا أقول في شخص مدحه كثيرون وذمَّه كثيرون؟ ههنا تراني أتذكر ما تعلَّمته عن التوازن في مهنة الصحافة التي قضيت فيها عمري.

فماذا عن الثقلاء والظالمين؟ إذا كانوا قد تركوا في الدنيا أثرًا، فلهُم في هذا الكتاب أثر. أروي قصة الحجَّاج كما كانت، فإن رأى له بعضهم فضيلة فأنا أذكرها. لا شيطنة عندي، ولا عندي تمجيد. فمن مجَّدته فِعاله ذكرناها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عارف حجَّاوي

- ولد في نابلس بفلسطين، ١٩٥٦، وفيها نشأ.
- متزوج وله ابنتان، وحفيدان. ويقيم في مدينة رام الله.
- عمل في التدريس المدرسي والجامعي، ثم عمل في الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون.
- صدر له عن مدارات للأبحاث والنشر: هكذا أكتب، هكذا أفكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة

مقدمة كل كتاب هي دعوة لقراءته.

أدعوك إلى قراءة هذا الكتاب الذي يتحدث عن ٢٥٠ شخصية.

فهو إذن كتاب يعالج الشخصيات على طريقة «شمَّ ولا تذُق»، أو بالفصحى على طريقة «حَسو الطائر». ليس كذلك. وكتابي ليس مقمشًا تقميشًا من البريتانيكا والويكيبيديا. إنه يقوم على أكوام من الكتب قرأتها، وعلى ستٍّ وستين سنة عايشت فيها ما عايشت. غير أنني حرثت الموسوعات كما ينبغي.

ليس كتابًا تسجيليًّا. بل هو نظر في أعماق الشخصية وأقوالها. وفي كل صفحة، أو لنقُل في كل صفحتين أو ثلاث، تجدني أكتب بفرح وانبهار. عندما أُعجب بشخصية فأنا أتحدث عنها كتلميذ في السادس الابتدائي.

لستُ وقورًا حين تبهرني عظمة الإنجاز.

أفرح فرحًا طفوليًّا بالإنسان المخلص.

فماذا أقول في شخص مدحه كثيرون وذمَّه كثيرون؟ ههنا تراني أتذكر ما تعلَّمته عن التوازن في مهنة الصحافة التي قضيت فيها عمري.

فماذا عن الثقلاء والظالمين؟ إذا كانوا قد تركوا في الدنيا أثرًا، فلهُم في هذا الكتاب أثر. أروي قصة الحجَّاج كما كانت، فإن رأى له بعضهم فضيلة فأنا أذكرها. لا شيطنة عندي، ولا عندي تمجيد. فمن مجَّدته فعاله ذكرناها.

هل اكتفى القارئ الكريم من دعايتي لكتابي؟ أنا لم أكتفِ.

هذا كتاب «مواقف»: أقصُّ قصة أكاديمي ثار ثورة عارمة على من سرق اكتشافًا علميًّا، وأقسَمَ أن يُنصف المظلوم ويكشف وجه الحق، وفعل.

وهو كتاب «طرائف»: عندما أقع على طُرفة لا أستطيع أن أمسك نفسي. وجدت مطعمًا في قرية مصرية اسمه «جريمة أكل»، فاحتلت حيلة حتى أدخلت المطعم ضمن حديثي عن لغويِّين.

في هذا الكتاب علماء وأدباء، وطغاة ومستعمِرون، وساسة ولغويون، ومثقفون. كثيرون منهم قالوا أقوالًا سردتها سردًا. ثم إنني وجدت في حوزتي بضع مئات من الأقوال المأثورة الأخرى التي لم تلتصق بشخصية من شخصياتي الـ ٢٥٠، فوضعتها في آخر الكتاب.

ثم صنعت فهرسًا بأسماء كل شخصيات الكتاب، وذكرت فيه تاريخ ولادة كلّ شخصية وتاريخ وفاتها.

قراءةً ممتعة!

عارف حجاوي

إستانبول

٢٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٢

٢ ربيع الأول ١٤٤٤

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علماء

سطو علمي قبيح

يشكو كثير من الطلبة من أن الأستاذ يطلب منهم إجراء أبحاث ثم ينشر ملخص تلك الأبحاث ويضع اسمَه عليها. كثير من هذه الأقوال دعاوى فارغة. ولكن، قد يحدث أن يستوليَ الأستاذ على جهد تلاميذه. نقصُّ قصة:

شاتز وواكسمان

في عام ثمانية وعشرين وتسعمائة وألف اكتشف البريطاني ألكسندر فلمِنغ البنسلين بالصدفة. فكان المضادَّ الحيوي الذي سينقذ حياة الملايين. البنسلين أبو المضادات الحيوية، لكنه لم يكن فعالًا في علاج السِّل. وفي عام ثلاثة وأربعين استخلص ألبرت شاتز في أميركا مادة من التربة سمَّاها «ستربتومايسين»، فكانت أنجع مضاد حيوي في علاج السِّل. كان شاتز طالبًا وكان أستاذه البروفسور سلمان واكسمان مشرفًا على القسم. لقد حلَّل الطالب شاتز مئات العينات، ووصل إلى الستربتومايسين، وهو من أطلق عليه هذا الاسم العلمي. الأستاذ واكسمان أدرك بسرعة أهمية الاكتشاف، فسارع إلى إجراء التجارب بمعزل عن تلميذه. وسارع أيضًا إلى استخراج براءة اختراع. وكسب الملايين، وكسب أيضًا جائزة نوبل. فرفع تلميذه دعوى قضائية، وأُعطي نسبة ثلاثة بالمئة من العوائد. وأخذت الدوائر الأكاديمية تحارب التلميذ شاتز بضراوة. فكيف يرفع تلميذٌ دعوى قضائيةً على أستاذِه! ورفضت المجلات العلمية المتخصصة نشر أبحاث شاتز اللاحقة. وبعد موت البروفسور السارق بعشرين سنة أرادت الجمعية الأميركية للأحياء الدقيقة أن تردَّ بعض الاعتبار لشاتز وهو الآن شيخ كبير، فمنحته جائزة. ولكن ما اسم الجائزة؟ اسمها جائزة واكسمان، باسم البروفسور السارق الراحل.

لقد كانت لواكسمان أبحاثٌ طبية مهمة. ولكنه أيضًا سرق صيتًا وسرق مالًا.

رجل عاش بعد موته

غريغور مندل ابن فلَّاح في الدولة النمساوية. ذهب إلى الدِّير، وصار خوريًّا (قسًّا). أراد أن يعلِّم التلامذة، فقالوا له في الدِّير: «عليك اجتيازُ امتحان». ذهب إلى ڤيينا فأدى الامتحان التحريري فسقط، ثم الشفوي فسقط. فأرسلوه ليأخذ دروسًا مدة سنتين في الجامعة.

وانتظر بعدها قليلًا وهو مُكِبٌّ على الكتب العلمية يقرأُها بشغف. وتوجه إلى الامتحان. وكان الامتحان يجري في ثلاث جلسات على ثلاثة أيام. ومن اليوم

الأول سقط. ورجع إلى الدِّير خائبًا.

في حديقة الدِّير أخذ مندل يزاوج نَبَتات البازلاء، فيقطع المآبِر التي تحمل حبوب الطلع من نبتة، ويلقِّح بها نبتة أخرى.

زاوَجَ بين ثمانية وعشرينَ ألفَ نبتة على مدى سبع سنين. وميَّز الصفاتِ السائدةَ عن الصفات المتنحِّية، وبيَّن كيف تنتقل الصفات من جيل إلى جيل.

مثال هذا في الإنسان: يكون الأب أسودَ العينين والأمُّ سوداءَ العينين، ويأتي الطفل أزرقَ العينين لأحد أجداده أو جدَّاته. فهم مندل كيف تختفي صفةٌ من الصفات في جيل لتظهر في جيل لاحق، وكتب بحثًا من أربع وأربعين صفحة، ونشره.

ونبذ الأكاديميون بحثه نبذًا. من هو ابن الفلَّاح هذا الذي يريد أن يعلِّمنا؟

وأصرَّ مندل، وأرسل عشرات النسخ من بحثه إلى المحافل العلمية. ثم كتب سلسلة من الرسائل لعالم أحياءٍ إيطالي، فكان الرد نصيحةً مهذَّبة مُفادها أنَّ اشتغالَك بشؤون الدِّير أجدى عليك من كل هذا التعب. وأخيرًا ترك مندل الأبحاث وصار راعيًا للدير الصغير في البلدة الصغيرة.

مات غريغور مندل عام ١٨٨٤، وعمره اثنتان وستون سنة. ومات ذكره بموته. نشرت الصحيفة المحلية سطرًا واحدًا يقول إنه كان راعيًا للدير يتَّسم بدماثة الخُلق. رحمه الله.

وظلَّت المحافل العلمية تتداول نظرياتٍ فاسدةً أو ناقصةً عن انتقال الصفات.

مضت ستَّ عشرة سنة على وفاة مندل، كان فيها علماءُ هولندا وبريطانيا وإيطاليا يبحثون جاهدين عن قانون يحكم انتقالَ الصفات الموروثة عبر الأجيال. ووصلوا إلى أنصاف وأرباع النتائج.

نحن الآن في عام ١٩٠٠. في هذا العام وصل بحث مندل، الصفحاتُ الأربعُ والأربعون، إلى الهولندي هيغو ديفريس فكاد دماغه ينفجر.

أدرك أن الخوري الراحل كان قد وصل إلى الحقيقة وجلَّاها بالجداول والأرقام. وحاول ديفريس أن يسرق الفكرة.

لكن العالم الإنجليزي وليم باتيسون التقط بحث مندل. كان راكبًا في القطار، متجهًا إلى كامبريدج، ويقلِّب مجلة علمية قديمة، وسقط على بحث مندل. اقشعرَّ بدنه (هذه عبارة من عندي. هل يقشعرُّ بدن الإنجليزي أصلًا؟) أقسم باتيسون على نفسه ألا يصنع شيئًا في حياته قبل أن يُنصف مندل. جعل

باتيسون يحاضر في أوروبا وأميركا شارحًا قوانينَ الوراثة ومنوِّهًا بالخوري المغمور. وكتب كتابًا سمَّاه: دفاعًا عن قوانين مندل في الوراثة.

وتسامع العالم بمندل.

وقف العالَم وقفة خجل. فهذا الرجل الساقط في امتحاناته، تمكن بالمثابرة وبالرؤية العميقة، وبالعلم الحقيقي، لا ذلك العلم المعلب في شهادات، من أن يكتشف قوانين الوراثة.

لم يعرف مندل أن هناك شيئًا اسمُه الجينات. وها نحن اليوم نقرأ وصف مندل المختصر: «مؤسس علم الجينات».

الروسي والأميركي

حديثي عن رجل روسي قلب دنيا الكيمياء رأسًا على عقب ولم ينل جائزة نوبل. وعن كيميائي أميركي نال جائزة نوبل وأجرى تجربة طريفة.

ديمتري مندلييف

هو أصغر أبناء أمه السبعة عشر. مات أبوه وهو صغير، واشتغلت أمه في مصنع زجاج، واحترق المصنع وتقلَّبت بالعائلة الأحوال. وأصيب الفتى ديمتري بالسِّل، وعوفي. ثم إنه رتَّب لنا العناصر في جدول.

الذهب والنحاس

نبدأ بعنصر يستهوينا بريقُه. الذهب الخالص عنصر، مادة غير مركبة. هو ذهب فقط. والنحاس عنصر خالص. ويخلط الصاغة الذهب بالنحاس ليصبح الذهب قاسيًا ويصنعوا منه الحُلي. الذهب أغلى من النحاس بسبعة آلاف مرة. فلماذا لا نحوِّل النحاس إلى ذهب في المختبر؟ هذا شيء سعى إليه القدماء آلاف السنين. ثم اكتشفنا أن الفارق بين المعدنين عميق جدًّا. الفارق كامن في مستوى الذرَّة. ذرَّة النحاس فيها سبعة وعشرون بروتونًا، وذرَّة الذهب فيها تسعة وسبعون. فإن أردنا تكسير الذرَّات فهذا انشطار نووي.

غلين سيبورغ

ومع ذلك نسأل: هل صنع أحد ذهبًا في المختبر؟ نعم. في جامعة أميركية صنعوا ذرَّات قليلة من الذهب. مجرد ذرَّات لا تُرى بالعين، ولا بأي مجهر. فقط استدلُّوا عليها بالإشعاع. قاد التجربة غلين سيبورغ وهو من أصحاب جائزة نوبل في الكيمياء. لقد كلَّفتهم تلك الذرَّات القليلةُ التي لا تُرى مئةً وعشرين ألفَ دولار. سألته الأسوشيتدبرس: «ماذا لو صنعتم أونصة من الذهب، أي

بحجم سِوار؟» قال: «التكلفة ستزيد عن كوادريليون دولار». وبالعربي الفصيح: ستكلف بقدر ميزانية الولايات المتحدة الحالية لمئتي عام.

العناصر في الطبيعة ليست كثيرة، قل مئة عنصر، وأضف إليها ثمانية عشر عنصرًا ينقصها الثبات، أو أنها شديدة الندور. ولكن التنوع الذي نراه في شتى الموادِّ إنما هو بسبب المركَّبات التي تتكون من عناصر متحدة بنسب دقيقة.

رَجع إلى مندلييف

ابتعدنا عن الرجل الروسي. رأى ديمتري مندلييف كل عنصر مميزًا عن غيره بعدد البروتونات في ذرَّته. الفضة عنصر وفي ذرتها سبعة وأربعون بروتونًا، والنحاس عنصر وفي ذرَّته سبعة وعشرون بروتونًا. والأكسجين -الذي نتنفسه ولا نراه- في ذرَّته ثمانية بروتونات. والهيدروجين لديه بروتون واحد. حسنًا، فليرتِّب مندلييف العناصر في جدول. في زمنه كان عدد العناصر المعروفة ستة وخمسين، هذا قبل مئة وستين سنة. رتَّب مندلييف العناصر المعروفة. وبالطبع وجد فراغات. وهبَّ العلم يبحث عن العناصر غير المكتشفة. الراديوم مثلًا اكتشفته ماري وبيير كوري في حياة مندلييف، والبلوتونيوم اكتشفه مختبر أميركي في أوائل الأربعينات، وأبقاه سرًّا سبع سنين لعلاقته بالقنبلة الذرية. وآخِر عنصر اكتُشف كان الأوغانيسون (Oganesson) قبل خمسة أعوام.

فإن كنت طالبًا في مدرسة. فاذهب إلى لوحة الجدول الدوري التي يعلِّقها أستاذ الكيمياء في غرفة الدرس، وابحث فيها عن العنصر الأخير ورمزه (Og)، وعدده الذرِّي مئةٌ وثمانيةَ عشر. وفي الغالب لن تجده لأن لوحة أستاذك قديمة. مناسبةٌ لتُلقي على الأستاذ محاضرة صغيرة.

علماء وخرافات

كل عالِـم له وجهان: وجه فيه علم، ووجه فيه نادرة، أو حتى خرافة.

تايكو براهه

نبيل دنماركي. فإن لم تحفظوا اسمه فتذكَّروا أبرهة الأشرم.. تايكو براهه. وللمصادفة المحضة فالسيد براهه كان أشرمَ، مقطوع أرنبة الأنف، مثلَ أبرهة. لقد تجادل على سُكْر مع رفيق له في أيِّهما أبرعُ من صاحبه في الرياضيات، وانتهى الجدال بدعوة للمبارزة، وفقد براهه نصف أنفه، فركَّب أنفًا من الذهب. وقبل سنين نبشوا قبره كي يعرفوا حقيقة الأنف، فوجدوه. وجدوا أنفًا من النحاس الأصفر لا من الذهب. هذا الرجل امتلك قبل نحو خمسمئة سنة أدقَّ الحسابات الفلكية المتوفرة في أوروبا. وفي آخر سنة من حياته التحق به تلميذ.

كِبلر

هذا التلميذ هو يوهانس كِبلر. أخذ كِبلر حساباتِ براهه، وبها صنع العجائب. علَّمنا كِبلر أن كوكبنا الأرضي لا يدور حول الشمس في دائرة، بل في إهليلج، في مدار بيضوي. وعلَّمنا أن سنَة كلِّ كوكب تمكِّننا من معرفة بُعده عن الشمس. فمثلًا نحن ندور حول الشمس في ثلاثمئة وخمسة وستين يومًا، هذه سنتنا. المِريخ سنته ضعفُ سنتنا تقريبًا. أما أورانوس فيستغرق أربعًا وثمانين سنةً -من سنواتنا- كي يدور حول الشمس. هو بعيد جدًّا عنها.

باسكال

ننزل إلى الأرض، وإلى فرنسا لنلتقيَ بليز باسكال واضع نظرية الاحتمالات. وضعها كي يحل مشكلة تتعلق بالمقامرة. ولاعبو الورق البارعون يطبقون نظرية الاحتمالات غريزيًّا. باسكال قنَّنها وفتح فتحًا في عالم الرياضيات، وبناء على نتائجه اخترع لايبنيتز ونيوتن -كلًّا على حده- علم التفاضل والتكامل. ولأن باسكال كان رجلًا تقيًّا، على المذهب الكاثوليكي، فقد ابتدع ما صار يُعرف بـ «رهان باسكال». فما هو رهان باسكال؟ قال باسكال للناس: «آمنوا أيها القوم، فإن كان يوجد جنة ونار فُزتم، فإن لم يوجد جنةٌ ولا نار لم تخسروا شيئًا».

نيوتن

وإلى أحد أعظم العقول الرياضية في التاريخ. هذا إسحق نيوتن صاحب الجاذبية. لم يكن نيوتن طالبًا مميزًا في كامبريدج. وما جعله مميزًا إنما كان الطاعون: الموت الأسود الذي حلَّ بأوروبا. تعطلت الدراسة، فذهب نيوتن إلى بيت أهلِه في ولسْثروب في الريف. هنا، وبعيدًا عن الجهل الجامعي، درس نيوتن الضوء واخترع التفاضل والتكامل، ودرس الجاذبية. هنا صنع نيوتن نفسه. كان نيوتن رجلًا بغيضًا، شامسَ العداوة لا يغفر زلَّة. عاش صَارورةً لم يتزوج ومات عن خمس وثمانين سنة. هذا العقل الجبار الذي كانت الرياضيات والفيزياء محورَ حياته العلمية كان يقضي الساعات الطوال وهو يدرس الخيمياء، ذلك الفرعَ من المعارف الذي يسعى إلى تحويل المعادة الرخيصة إلى ذهب. وللغرابة فإنه أفاد من معرفته بهذا العلم الخرافي في بعض أبحاثه. وقد سبح نيوتن فعلًا في بحرٍ من الذهب. ليس بسبب الخيمياء، بل لأنه عمل ثلاثين سنة مديرًا لدار سكِّ العملة في بريطانيا. وبعد موته اكتشفوا من الكتابات التي خلَّفها أنه كان حُجَّة في الأناجيل. وأنه كان يخفي إيمانًا بالداريوسية التي ترى في السيد المسيح طبيعة واحدة، ولا تثلِّث. وهذا أخيرًا شيء من عبقرية نيوتن: فتح في أسفل باب المطبخ فُتحة بالمنشار لكي

تخرج قطته وتدخل كما يحلو لها. ثم وضعت القطة ثلاثةَ جراء، فتحيَّر العالم العظيم، ففتح ثلاثَ فُتحات جديدة في أسفل الباب.

الإدريسي وصقلّية

جزيرة صقلِّية مثلث من الأرض يسكنه خمسة ملايين، وهي جزء من إيطاليا. هي بلد المافيا. وكلمة مافيا من أصل عربي، هي من المعْفِيّ، وقيل غير ذلك، ولكنَّ ثمة اتفاقًا على أنها من العربية. أهل صقلِّية يتكلمون الإيطالية. ولأن العرب حكموا صقلِّية أكثر من قرنين ونصف بقيت في كلام أهل صقلِّية نحوُ ثلاثِمئة كلمة عربية، منها رييسي بمعنى رئيس، وسايا بمعنى ساقية أو قناة، وزغارا أي زهرة، وسوكو أي ساق الشجرة.

في صقلِّية يتصرفون مثلنا في أسواقهم: ينادون على السلع، ويفاصلون. تشعر كأنك في القاهرة. ولا عجب فالذي بنى القاهرة قبل ألف سنة هو جوهرُ الصقلِّي.

بعد العرب احتل النورمان صقلِّية، وبقيت فيها من الحضارة العربية بقية.

محمد الإدريسي هو صاحب الكتاب الكبير الذي يتجاوز الألفَ صفحة: نزهةُ المشتاق في اختراق الآفاق، وهو من كتب الجغرافيا الرائدة في العالم، نزل بالملك روغر الثاني النورماندي في صقلِّية فأكرم وفادته. ولروغر الثاني رسمَ الإدريسيُّ الخرائط. وخريطته المشهورة للعالم معكوسةٌ عن مألوفنا فالشمال فيها تحت.

كان المسلمون، تحت حكم روغر الثاني، الأكثرية. بنوا له «كنيسة بالاتينا» فكأنها مسجد. فيها أعمدة وأقواس كتلك التي في مسجد قرطبة الكبير. وفيها الزخارف الإسلامية والمقرنَصاتُ التي لم تعرفها أوروبا إلا من العرب المسلمين.

يقول مؤرخ الفن الإنجليزي أندرو غراهام ديكسون: «لقد احتل النورمان إنجلترا في الوقت نفسه الذي احتلوا فيه صقلِّية. ولكننا لا نجد لهم في إنجلترا ما وجدنا من عمارة وثقافة في صقلِّية، ذلك أن إنجلترا لم يكن فيها عرب».

ثم بعد سنين رحل كثيرون من العرب من صقلِّية إلى مالطا، وبقي منهم من بقي فاندمج.

هنري بيسيمر

لي قصة مع حديد السكاكين. عندما يكبر المرء تصبح له قصة مع كل شيء. عندما أريد شراء سكين من محل الأدوات المنزلية لا أستطيع التفريق بين

سكين وسكين. هذا سعره عشَرة دنانير وهذه سعرها مئة دينار. والسكين يُذكَّر.. وتُؤنث. وكي أسهِّل على نفسي شراء سكين أتذكر ما قاله لنا الأستاذ في درس الجغرافيا: «مدينة شيفيلد في إنجلترا هي أم السكاكين». فأنا أشتري سكينًا عليه اسم شيفيلد ويطمئن قلبي.

في شيفيلد مَعلَم سياحي غريب. إنه فرن بيسيمر الأصلي لصهر الحديد. في شيفيلد بدأ الحديد يصهر بكميات تجارية وبكلفة قليلة. لقد صُهر الحديد منذ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة على يد الحيثيين، ولكنه كان غير نقي. كان مشوبًا بالخَبَث. وظل البشر يجتهدون في إزالة خبث الحديد عبر العصور. كانوا قبل بيسيمر يحتاجون إلى ثلاثة أطنان من الفحم الحجري لصهر طن من الحديد. ويخرج غير نقي.

وجاء هنري بيسيمر إلى شيفيلد، وأجرى تجاربه. جعل الأكسجين يختلط بالحديد المصهور، وكانت النتيجة باهرة، وانخفض سعر الحديد النقي بستة أضعاف، ونال بيسيمر براءة اختراع. هذا الرجل له أكثر من ١٠٠ براءة اختراع في مجالي التعدين والزجاج. ومن النتائج الفرعية لاختراعه الشهير أنه جعل مدينة شيفيلد مركزًا من مراكز الثورة الصناعية في إنجلترا. وارتفعت المداخن في شيفيلد. ليس من قبيل التجنِّي أن قال جورج أورويل: «بوسع شيفيلد أن تفتخر بأنها أقبح مدينة في العالم القديم».

وقف بيسيمر أمام جمعية علمية يعرض عليهم تفاصيل اختراعه لصهر الحديد نقيًّا. كان يحضر الجلسة جيمس نيسميث، وهو صاحب أبحاث في المجال نفسه، وكان نيسميث قد توصل إلى نتائج طيبة، لكنه تلكأ في الحصول على براءة اختراع. عندما سمع نيسميث محاضرة بيسيمر، توقف عن تجاربه. ولكن بيسيمر عرض عليه ثلث عوائد براءة الاختراع التي نالها. رفض نيسميث العرض شاكرًا، وقال: «آن لي أن أتقاعد». في الواقع لقد تقاعد نيسميث قبل أن يبلغ الخمسين، وكان تقاعدًا وثيرًا.. فقد كان صاحب شركات ومخترعات. عاش بعدها أربعًا وثلاثين سنة يمارس التصوير ويعبث بعلم الفلك.

غاليليو غاليلي

نتحدث عن عالم منسوب إلى «الجليل» بفلسطين، المنطقة التي كان السيد المسيح يعظ تلاميذه فيها. ولا علاقة لصاحبنا بالجليل. اسمه الجليلي واسم عائلته الجليليُّ أيضًا. لكنهم في اللاتينية قالوا غاليليو غاليلي. هذا الرجل عاش قبل نحوٍ من أربعمئة عام. قرأ قول كوبرنيكوس بأن الشمس هي المركز والأرضُ تدور حولها، وصدَّقه.

وسمع قول أرسطو بأنك إذا ألقيت حجرًا وريشة من علٍ فإن الحجر يصل أولًا لأنه ثقيل. هذا ما يؤكده الحسُّ السليم. ولكن للعلم طريقةً أخرى هي التجربة.

صعِد غاليليو إلى أعلى برج مدينته، برج بيزا المائل، وألقى حجرين في آن معًا: حجرًا كبيرًا وحجرًا صغيرًا، فسقطا معًا إلى الأرض. وقال غاليليو: «لو انعدم الهواء فالريشة لا تختلف». وخالف أرسطو مرة أخرى فقال: «الجسم الساقط يتسارع، ولا يحافظ على سرعة ثابتة».

كان غاليليو عوَّادًا وابنَ عواد، وله ابن كان موسيقيًّا محترفًا. ولم يتخصص غاليليو في شيء. كان أستاذ الرياضيات في جامعة بيزا، وطور ميزان الحرارة. وسمع أنهم ركَّبوا العدسات في هولندا في أنبوب فقرَّبوا البعيد. وبدون أن يرى منظار الهولنديين صنع، على الوصف، منظارًا قويًّا، وعرف قيمته المباشرة. باعه لتجار البندقية. فالتاجر يهمه أن يراقب حركةَ السفن المقبلة كي يعرف كيف يوظف أمواله.

ولكن غاليليو لم يكتفِ بهذا. بل صوَّب منظاره إلى السماء، ووصف القمر وجبالَه وفوهاتِه. وصوب منظاره إلى المشتري ورأى حوله أقمارًا أربعة. راقبها على مدى أيام. راقب اختفاءَ بعضِها ثم ظهورَه، فأدحض نظرية أخرى لأرسطو عن ثبات الكون. وسمَّى أقمار المشتري «الكواكب المديتشية» نسبة لعائلة مديتشي الفلورنسية. وسماها الناس من بعد الأقمار الغاليلية نسبة إليه.

كان لغاليليو إصبع في كل علم. كان طُلَعة. بينا هو جالس في كنيسة مدينته بيزا رأى الثريا، أو النجفة، المعلقةَ بالسقف تهتز بفعل ريح تسللت من النافذة. فأمسك بمعصمه وبواسطة النبض بدأ يقيس زمن تذبذبها. وأجرى تجارب كانت نتيجتُها اختراعَ الساعة ذاتِ الرقاص. هذه الساعة ظلت مستعملة حتى زمننا.

ما أسهم في شهرة غاليليو أنه عاش في مَفصِل زماني. الكنيسة الكاثوليكية تحشر نفسها في العلم، وتقول إن السماء ثابتة والأرض مركز الكون. وكوبرنيكوس قال لها بل الشمس هي المركز. ومات كوبرنيكوس قبل أن يصنعوا به شيئًا. وجاء غاليليو وأيده.

قدَّموا غاليليو لمحاكمة كنسية في روما، وأنَّبوه. ثم مات بابا وجاء بابا. وطلب إليه البابا الجديد، وكان متعاطفًا، أن يشرح نظريته للكون في كتاب. وطبع غاليليو الكتاب، وفيه حوار بين مؤيد ومعارض. الشخصية التي تقول بثبات الكون سمَّاها غاليليو سيمبليسيوس، باسم فيلسوف قديم مؤيد لأرسطو. ولكن الكلمة ببعض التحوير تعني بالإيطالية الشخصَ الساذَج.

هذا أحفظ البابا، فعاد وقدَّمه للمحاكمة. وحاول صاحبنا في المحاكمة التنصل من بعض أفكاره، واتخذ طريقة اللف والدوران. لكن هذا لم ينفعه. مُنع كتابه، ووضع تحت الإقامة الجبرية. وبقي حبيس بيته ثماني سنوات حتى مات.

كلمنس مسرشميت

كلمنس مسرشميت ألماني. كتب كتيبًا ذا اسم غريب آخر شَفَّة، والمعنى «آخرُ جرعة ماء». كان يعمل في رام الله بفلسطين مع مؤسسة ألمانية تقدم المساعدات، وكان يتنقَّل على دراجة، وعرفه الناس. كان يشرب من الحنفية ولا يشتري المياة المعدنية. التقيت به، وحذرني من منتج شركة مياه معدنية بعينها: قال لي إنهم يعبأون لكم القناني من الحنفية، فعليك بالحنفية. كتب كلمنس كتابه هذا بالعربية، النصُّ له والعنوان له. وقد أجريت معه لقاء إذاعيًّا في «محطة أجيال» بالعربية طبعًا.

الكتاب الصغير مليء بالصور الكبيرة. ولكن، إذا كتب لك جيولوجي ألماني متخصص في المياه فقراتٍ قليلةً عن المياه فاعلم أنه سيأتيك بالزبدة.

بعد ستِّ سنوات من هذا الكتيب صدر تقرير لمنظمة العفو الدولية عنوانه: «احتلال المياه». إسرائيل دولة محتلة، واحتلالها قاسٍ بطريقتين: أولًا هي تعتقل الناس وتتحكم في حركتهم، وتقتلهم اصطيادًا في الشوارع أو اغتيالًا، وتسرق ماءهم. ثانيًا: هي تقضم أرضهم قطعة قطعة، وتبني المستوطنات على هذه الأرض، وتزرع فيها سكانها هي ليجعلوا حياة الناس جحيمًا.

كلمنس مسرشميت لا يكره اليهود ولا يتكلم في السياسة، لكنه رجل حر ويقول الحقيقة. أما آن للذين وقَّعوا على اتفاقية أوسلو، التي لم توقف استيطانًا ولا أوقفت سرقة المياه، أن يعتذروا!

أزيموف ولاڤوازيه

نبدأ بأُحجية قد يكون لها علاقة بما سيأتي: شيء لا تراه، لكنك تموت عطشًا خلال ثلاثة أيام لو فقدته، وإن غاب عنك دقيقتين فهو الموت أيضًا، وبدونه ستأكل اللحم نيئًا.

إسحق أزيموڤ من عجائب الدنيا السبع، أو هكذا يجب أن يكون. كتب خمسمئة كتاب. وكان يراسل الناس كثيرًا أيضًا، قدَّروا أنه كتب في حياته تسعين ألف رسالة وبطاقة. مات إسحق أزيموڤ عام اثنين وتسعين. ومعظم كتبه روايات الخيال العلمي. لكنه كتب عن تاريخ العلم.

حدَّثنا أزيموڤ عن أنطوان لاڤوازيه أبي الكيمياء الحديثة: هو من النبلاء، وجاءت الثورة الفرنسية فساعدها في شيء ساعد به العالم كله. ساعدها في

تثبيت النظام العشري. فجاءنا الكيلوغرام ليطيح بالأوزان القديمة غير الثابتة من رطل وأوقية وقنطار. وجاءنا المتر، فأراحنا من الإنش والقَدَم، إلى آخره. هذا إنجازه الصغير. فأما إنجازه الكبير فكان قبل الثورة.

قبل لاڤوازيه لم نكن نعرف الأكسجين. هو من استخلصه من الهواء، وهو من سمَّاه. سمَّاه «صانع الحَمض» متوهمًا أن كل حمض يحتوي عليه، وهذا غير صحيح فحمض الكلوردريك ليس فيه أكسجين. غير أن لاڤوازيه أفهمنا أن خُمس الهواء أكسجين. وأنه ضروري للاشتعال. النار تتغذى على الحطب أو النفط، فإذا عدمت الأكسجين خمدت. بدون أكسجين سنأكل كل شيء نيئًا.

والماء مكوَّن من أكسجين وهيدروجين، وبدون ماء سنموت عطشًا بعد ثلاثة أيام. وبدون الأكسجين الذي في الهواء سنموت اختناقًا بعد ثلاث دقائق.

أما لاڤوازيه نفسه فقد مات على المقصلة. اتهموه بالفساد المالي. أهاب القوم بالقاضي أن يُبقي عليه حتى يستمر في أبحاثه الكيميائية العظيمة. قال القاضي جان بابتيست كوفينال: «الجمهورية لا تحتاج إلى دارسين ولا كيميائيين، فلتأخذ العدالة مجراها بغير إعاقة».

هذه تكملة سريعة للقصة: زار القاضي كوفينال المقصلة بعد ثلاثة أشهر، وعاد منها بلا رأس. أُعدم لاڤوازيه في مايو/ أيار، وأُعدم القاضي في أغسطس/ آب عام ١٧٩٤.

غوتنبرغ

موضوع هذا المقال: الطباعة. وأبدأ كالعادة من مكان بعيد.

عزيزي القارئ! هل أنت مهم؟ أنت مهم عند أهلك، وربما مهم في الحي الذي تسكن فيه. ولكن دعنا من الكلام العام: هل أنت شخصية تاريخية مهمة؟

هذا السؤال واجهته عائلتان أميركيتان: زوج وزوجته، وزوج وزوجته. التقى الأربعة في جو عائلي حميم مع نهاية القرن الماضي، وقالوا نريد أن نؤلف كتابًا عن ألف شخصية مهمة في الألف سنة الماضية. جمعوا أسماء كثيرة، هذا سهل. الصعب حقًّا ترتيبُ الأشخاص بحسب الأهمية. وها هي المعايير التي وضعوها:

١- دوام التأثير (١٠٠٠٠ نقطة)

٢- الأثر على مخزون العالم من الحكمة والجمال (٥٠٠٠ نقطة)

٣- أثر الشخص على عصره (٤٠٠٠ نقطة)

٤- التفرِد في الإنجاز، العبقرية الفردية (٣٠٠٠ نقطة)

٥- الشّهرة (٢٠٠٠ نقطة)

كانوا يدرسون كل شخصية، ويناقشونها ويضعون نقاطًا، ويجمعون ويقسمون. الشخص الثاني كان كولومبوس، كيف لا وهو قد استكشف لهؤلاء المؤلفين الأميركيين قارتهم! ليس عبقريًّا، بل جريء مقدام. الشخص الثالث الراهب مارتن لوثر، مصلح جريء مقدام، وليس عبقريًّا، وأثره الدائم أنه شَطَرَ المسيحية شطرين. وتريد معرفة أهم شخصية في الألف سنة المنصرمة! بما أننا افتتحنا الكلام بذكر الطباعة فقد عرفته.

أهم شخص في الألف عام المنصرمة هو يوهانس غوتنبرغ أبو الطباعة. كان صاحب فكرة. وللأسف فهي فكرة قديمة. وللأسف لم يكن عبقريًّا. كل الدنيا كانت قبل غوتنبرغ تنقش على خشبة ملساء رسمًا أو أحرفًا بالمعكوس وتطليها بالحبر وتطبعها. يقولون: «هو الذي ابتدع الطباعة بالأحرف المفردة». ليس صحيحًا. الصينيون فعلوها قبله بمئات السنين، وعرف العالَم أنهم يصنعون ذلك. مشكلة اللغة الصينية أن كلماتها صور، وهي بالآلاف، فكان صعبًا عليهم طباعة كتاب من هذه الكلمات. كان على الطابع الصيني أن يبحث وسط عشرين ألف قطعة عن الكلمة التي يريدها. لذلك اكتفوا بطبع الحكم الصغيرة من قطع منفصلة.

غوتنبرغ أتيحت له خمسة أشياء. أولًا: الكتابة الصوتية، وفيها كل حرف يعبر عن صوت. وهذا اختراع فينيقي، أخذته كل لغات أوروبا والشرق الأوسط. كل هذه اللغات أحرفها بين العشرين والثلاثين. ثانيًا: الحبر السَّلس المتوسط الميوعة. وقد علَّمنا الصينيون كيف نصنعه من جلد السمك. ثالثًا: الورق، وقد وصل إلى أوروبا من الصين فسمرقند فبغداد. رابعًا: الحروف المفردة وهذه بدعة كورية استعملها الصينيون بصعوبة. خامسًا: الـمِكبس القلاووظي، وهذا أخذته أوروبا من الشرق الأوسط حيث كان الناس يعصرون الزيتون بمعاصر كهذه. غوتنبرغ كان مثابرًا، وجمع أفكار غيره فجعل الكتاب متاحًا في كل بيت.

وظلت الأحرف المفردة موجودة في المطابع حتى عهد قريب. وفي أول جريدة اشتغلتُ بها كان عمال المطبعة يصُفُّون العناوين في الصفحات الداخلية حرفًا حرفًا من صندوق الحروف. رأيت هذا بعيني بأمارة أن أحرف العين والحاء والخاء في آخر الكلمة كانت مقصوصة الذيل حتى لا ترتطم بالسطر الأسفل. كانوا، في جريدتي تلك، يصُفُّون العناوين ثم يطبعونها على ورقة، وتذهب الورقة إلى «أبو عرابي» مصحِّح المطبعة. فيشير إلى الأغلاط بقلمه، فتعود الورقة إلى الصِفّيف. فينتزع الأحرف الخطأ بملقاط، وبعد التصحيح يطبع على ورقة أخرى تذهب مجددًا إلى أبو عرابي. فإن كانت خالية من الأخطاء قلبها أبو عرابي على قفاها النظيف. ووضع فوقها مثلث جبن

طري، وأخذ يمسح بخبزته على هذا المثلث لقمة بعد لقمة. فعلت هذا بضع مرات عندما كنت وحدي. هي أفضل طريقة لتناول مثلثات الجبن.

روبرت بويل

روبرت بويل، رجل متقوقع كأشدِّ ما يكون التقوقع. ما لفت نظري في شخصيته أنه كان زاهدًا في الشهرة بقدر ما كان لديه من فضول علمي. وضع قائمةَ أحلام بأربعة وعشرين بندًا: من بينها إطالةُ عمر الإنسان، وتنشيطُ الذاكرة، وصناعةُ سفن لا تغرق، والطيرانُ في الجو. وبعضها تحقق بعد موته.

تربَّى روبرت بويل في حِجر حاضنة، يسمونها في الإنجليزية: «وت نيرس»، أي حاضنةَ البلل. ويعللون التسمية بأنها ترضعه من حليبها. فهذا المقصود بالبلل. من يدري؟

المهم أن روبرت بويل ورث ثروة لا تأكلها النيران، وعاش مع أخته التي تشاركه اهتماماته العلمية عشرين سنة، ومات بعدها بأسبوع. سأعود إلى روبرت بويل.

كنا في الصف الأخير في المدرسة. وكان أحد المعلمين يمشي في غرفة الدرس جيئة وذهابًا كأنه يرقص أو يطير، يرفع كلتا يديه ويخطو خطوة، ثم يرفع كلتا يديه ويخطو خطوة. قال لنا في شطحة من شَطَحاته إن كلَّ شيء مكونٌ من مادة أو من فراغ. فمثلًا هذه المنضدة مادة، وأما الهواء ففراغ، الهواء لاشيء. وتصدى له طالب، ثم آخر. ولم يقتنع، وأصر على أن الهواء لاشيء. ففكرنا في إحضار بالون في الحصة المقبلة، لننفخه ثم نثقبه برأس دبوس، فإن سألنا الأستاذ عن الأمر قلنا له: «هذا لاشيء». لم نفعل ذلك. للأسف هذه القصة ليست لها نهاية مفرقعة.

نعود إلى روبرت بويل. هذا العالم ضغط الهواء، وخرج بقانون بويل الذي ينص على أن حجم الغاز يتناسب عكسًا مع الضغط. استنتج بويل أن الهواء مكون من ذرَّات صغيرة. ولأنه يمكن ضغطه وتصغير حجمه فلا بد أنه يوجد بين هذه الذرَّات فراغ. في الواقع أن أستاذنا كان على حق. الهواء معظمه فراغ ويسبح فيه الأكسجين والنيتروجين وبضعةُ غازات أخرى.

في كتبه الكثيرة، وخاصة كتاب الكيميائي الشكَّاك، أطلق روبرت بويل رصاصة الرحمة على الخيمياء، وفتح الباب للكيمياء. عرف أن هناك مواد لا يمكن تفكيكها، فهذه العناصر. فمهما فككت الذهب فسيظل ذهبًا. وهناك مواد يمكن تفكيكها: إنها المركَّبات. فالملح مكون من صوديوم وكلور.

العناصر عند قدماء الإغريق كانت النارَ والترابَ والماءَ والهواء، وورث العرب هذا الفهمِ. وحتى روبرت بويل فإنه لم يجرؤ على التخلي تمامًا عنه. كان على

الكيمياء أن تنتظر مئة عام حتى يأتي لاڤوازيه ويحققَ الفتح الكبير.

وليم هارڤي وابن النفيس ومالبيجي

الدور العلمي للعرب: حقيقة أم خيال؟ سمعت قبل أيام يوتيوبيًّا عربيًّا يتحدث عن الدورة الدموية. جزاه الله خيرًا عن معلومات قيمة قدمها. لكنه ذيَّل حديثه بعبارة: «بلاش كلام فارغ عن دور العرب وعن ابن النفيس وكلِّ هذه الخرافات». وقلت في نفسي فلأبحثِ الأمر.

نعلم أن الذي اكتشف الدورة الدموية هو وليم هارڤي. هذا الإنجليزي تعلم الطب في بادوا بإيطاليا. وعاد إلى لندن طبيبًا. هذا قبل أربعة قرون. أكد لنا هارڤي أن القلب مِضخة. نعرف ذلك. وأكد أن هذه المضخة تضخ كل دقيقة كمية ضخمة من الدم، وليس معقولاً أن يُنتج الجسم دمًا بهذه الكمية، فالمنطق يقول إن الدم يدور في الجسم ويعود إلى المضخة. لكن كيف يعود؟ كيف ينتقل الدم الأحمر الممتلئ بالأكسجين من الشرايين إلى الأوردة؟

هل صحيح ما قاله جالينوس اليوناني-الروماني من أن الشرايين نظام متكامل ومستقل عن نظام الأوردة؟ رفض هارڤي ذلك. ولكنه لم يعرف كيف ينتقل الدم من الشرايين إلى الأوردة.

بعد بضع سنين من وفاة هارڤي، نظر مارتشيللو مالبيجي الإيطالي في مجهره الجديد القوي وأخبرنا أن الانتقال يتم في شعيرات دموية دقيقة جدًّا موجودة في الأنسجة، وسُمِّيت شعيرات مالبيجي.

العرب ترجموا جالينوس اليوناني وترجموا غيره، واشتغل بالطب ابن سينا والرازي وابن النفيس، وكل هذا نُقل إلى إيطاليا مترجمًا إلى اللاتينية. أطباء بادوا -التي درس فيها هارڤي- بدأوا يُشرِّحون ويدرسون الطب على هدي كتب جاءت من العرب. وأنقل ما جاء في كتاب حديث عن الدورة الدموية، يقول الكاتب: «كانت لابن النفيس نظرةٌ ثاقبة بشأن الأوعية الدموية الدقيقة وقال إنه يجب أن يكون هناك اتصال على مستوى دقيق أو منافذ (واستعمل الكتاب وهو بالإنجليزية كلمة منافذ العربية) بين الشرايين والأوردة».

وعن كتاب ابن النفيس شرح تشريح القانون، وهو تعليق على كتاب القانون لابن سينا، تقول الويكيبيديا الإنجليزية ما ترجمته: «أكثر ما يميز هذا الكتاب اللهجةُ الواثقة التي بدت عن ابن النفيس في نصه، وجرأتُه في تحدي أساطين الطب مثل جالينوس وابن سينا. ولذا فقد كان ابن النفيس أحدَ القلائل من أطباء العصور الوسطى -بل ربما الوحيد- ممن ساهموا بشكل ملموس في علم وظائف الأعضاء وحاولوا أن يدفعوا هذا العلم متخطِّين المأثور اليوناني الروماني».

لقد خصصت الويكيبيديا الإنجليزية ٥٣٠٠ كلمة لابن النفيس، والويكيبيديا العربية ١٣٠٠ كلمة. فرق شاسع.

الطب اليوم تجاوز أبا الحسن ابنَ النفيس القرشي، وتجاوز وليم هارڤي الإنجليزي. هذا تاريخ. كان لنا شأن في العلوم، واليوم لا شأن لنا.

إدموند هالي

«صحافة البيانات» تعبير جديد. وقد أشرفت يومًا على تصحيح ونشر كتاب عن صحافة البيانات حرره كثيرون وترجمته ندى رمضان. يصعب أن ألخصه لكم فأنا أقصُّ قصة.

عندما كان الإنجليزي إدموند هالي في الخامسة والعشرين تألق في الجو مذنَّب. والمذنَّب جسم فضائي يمر بقرب الشمس جارًّا غازاته وراءه. الشاب إدموند هالي، رجع إلى الكتب وجمع بيانات حول هذا المذنَّب، فوجد قدماء الفلكيين قد ذكروه ووصفوه مرارًا. كتب في دفتره تواريخ مرور هذا المذنَّب فاستخلص معلومة جديدة، من «البيانات» استخلص معلومة. ها هي التواريخ: ١٤٥٦ - ١٥٣١ - ١٦٠٧ - ١٦٨٢

تأمل هالي في هذه التواريخ فلاحظ شيئًا. لاحظ أن الفرق بين كل تاريخ والذي يليه خمسة وسبعون عامًا. فهذا الجسم الفضائي يشاهَد من الأرض مرة كل خمس وسبعين سنة. فتنبأ هالي بأن المذنَّب سيعود عام ١٧٥٨. ونشر هالي بحثه، ومات. وبعد موته بست عشرة سنة عاد المذنَّب في موعده. وظل يعود كل خمس وسبعين سنة. وصار اسمُه مذنَّب هالي. رأيناه آخر مرة عام ستة وثمانين، وصوروه من الأرض ومن مركبات الفضاء أيضًا. وللشباب أن ينتظروا حتى عام ألفين وواحد وستين ليشاهدوا مذنَّبَ هالي.

ما الذي فعله إدموند هالي؟ جمع البيانات المرصودة واستخلص منها حقيقة. ولم ير هالي المذنَّب الذي سيحمل اسمه بعينيه أبدًا.

صحافة البيانات هكذا. يجلس الصحفي إلى حاسوبه، ويستخرج المعلوماتِ والأرقامَ من المصادر الحكومية ومن الهيئات ذات المصداقية. ويقارن فيما بين المعلومات، ويرسم صورة معينة. يكتشف مثلًا ترابطًا بين البرامج الحكومية السابقة لدعم الفقراء، وبين انخفاض حالات فقر الدم. أو يجد رابطًا بين سن الزواج للشباب وبين مناطق سكناهم، وكيف تغيرت الأرقام مع النزوح إلى المدن. المتغيرات بالطبع كثيرة، ولا يكتفي الصحفي بالمقارنة بين أمرين، فهناك عوامل عديدة.

صِحافة البيانات أصبحت شيئًا مهمًا، خصوصًا في البلدان التي تتوفر فيها المعلومات.

هنري كاڤندش وجون كيندي

عرفنا حجم المكعب: طول في عرض في ارتفاع. ومنذ آلاف السنين عرفنا أيضا حجم الكرة: أربعة أثلاث النسبة التقريبية مضروبة بمكعب نصف القطر.

ويأتي هنري كاڤندش قبل مئتين وخمسين سنة ليضع الكرة الأرضية في الميزان. الأمر سهل بالطبع، محيط الكرة الأرضية معروف منذ ألفي سنة، فحجمها معروف. ونضرب الكثافة في الحجم وانتهى الأمر. ولكن، ما كثافة الأرض؟

هذا الإنجليزي كان خجولًا، منصرفًا عن الشهرة. كان يطلب وجبته من طبَّاخه بورقة يتركها له. وما كان يزور ولا يزار. بتجربة معقدة على الجاذبية كانت كثافة الكرة الأرضية خمسة ونصفًا. طبعًا هذه ليست كثافةَ الصخر وحدَه ولا التراب وحده ولا الماء وحده. بعد ذلك الأمر بسيط، وها هو وزن الأرض. تركناه بالكيلو حتى نندهش أكثر بعدد الأصفار:

٥.٩٧٤.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠

أصبح وزن الأرض وحدة قياسٍ وزنٍ فلكية. بها نقيس أوزان الكواكب، فوزن المشتري أكبر كوكب في مجموعتنا الشمسية يساوي ٣١٨ أرضًا. المشتري يعادل وزن جميع الكواكب في مجموعتنا الشمسية مضروبًا في مرتين ونصف. ووزن قمرنا هو ١.٢٪ من وزن الأرض.

قد يقول بعضهم: هذا علم غير نافع. بل نافع. إذا أردت أن تصعد إلى القمر فأنت بحاجة إلى معرفة جاذبيته، ولوزنه كبير الأثر في الأمر. في الخمسينات كان السوڤييت أول من أطلق مركبة فضائية دارت حول الأرض. واستشاطت أميركا حماسة وفتحت جيوبها، وقالت لعلماء الصواريخ الألمان الذين سرقتهم: «إخوانكم الألمان -الذين سرقهم الروس- أشطر منكم». في سبتمبر/ أيلول عام اثنين وستين وقف الرئيس الأميركي جون كيندي يخطب في طلبة جامعة رايس بتكساس وقال: «يجب أن ننجزها، وأعتقد أن علينا دفع ما يجب دفعه، لن نبذر لكننا سننجز، وسيحدث هذا في عقد الستينات، ربما يحدث وبعضكم ما زال في الجامعة. قد يحدث في الفترة الرئاسية لبعض الحاضرين هنا على المنصة. سيحدث قبل انتهاء العقد، ويسعدني أن لهذه الجامعة دورًا في الجهود لإنزال البشر على القمر، وفي المجهود القومي للولايات المتحدة الأميركية».

لكن الرئيس الأميركي جون كيندي قُتل بعد سنة من هذا الخطاب. والجالس على المنصة ليندون جونسون وهو نائبه تولى الرئاسة فورًا. لم ينتظر العودة إلى واشنطن، بل أدى اليمين الدستورية في اليوم نفسه على متن الطائرة

الرئاسية وهي جاثمة في تكساس، بحضور أرملة الرئيس القتيل. لا يريدون فراغًا دستوريًّا. وأنهى جونسون الفترة الرئاسية وترشح عن الحزب الديمقراطي وفاز، وأنهى أربع سنوات. ثم جاء الجمهوري نيكسون. وفي عهده تحققت النبوءة، وقبل انتهاء عقد الستينات.

هبط الإنسان على القمر عام تسعة وستين، وشاهدنا ذلك على شاشة التلفاز. قرأنا في الصحف قبل وبعد الهبوط على سطح القمر أن الأميركيين يتململون من التكلفة الباهظة لهذا السباق على الفضاء. ما لزومُ هذه الصواريخ البهلوانية؟ هذا تبذير. وهنا أعود إلى النقطة السابقة: هل هذا العلم نافع؟ سباق الفضاء أنتج لنا الجوال والإنترنت، ومن الأعراض الجانبية له مئاتُ القنوات التلفزية التي شقينا بها.

أحمد زكي عاكف

كلامنا عن أحمد زكي، ليس الممثل، وليس أحمد زكي أبو شادي الدينمو الذي كان وراء «حركة أبوللو» الشعرية، وليس أحمد زكي «باشا»، شيخَ العروبة الذي علَّمَنا أسس الترقيم في الطباعة العربية بل نحن نتناول أحمد زكي «باشا» الآخر.

هذا أهمُّ أحمد زكي في حياتي. هذا كيميائي مهم أنشأ في الكويت مجلة العربي، فأنارت لي شخصيًّا درب المعرفة.

جمع أحمد زكي عاكف بين العلم والأدب. أنشأ معهدَ البحوث الكيميائية بمصر، وكان رئيسَ جامعة القاهرة، وكان وزيرًا. وأهم شيء عمله في رأيي – وستعجبون من كلامي – أنه كان يحرر باب الفكاهات في مجلة العربي بقلمه. فلماذا قلت ما قلت؟ لقد أنشأ هذه المجلةَ المنارة، ولم يكن يكتب مقالته ثم يولي ظهره. أبدًا. كان يحرر بقلمه الأدبي كل المجلة، ووظف الكبار ليكتبوا لها، ولم يوظف أصحابه. هذا الشيء اسمه الإخلاص والإتقان.

أحمد زكي عاكف كان باشا لعشرين يومًا فقط. ولَقَبُ الباشا بمصر الملكية كان يُعطَى فورًا لكل من تولى منصبًا وزاريًّا. وقد عُين أحمد زكي عاكف وزيرًا للشؤون الاجتماعية قبل ثورة يوليو/ تموز ١٩٥٢ بعشرين يومًا. فنال الباشوية، وأفلتت منه الوزارة، وألغت الثورة الألقاب فأفلتت الباشوية.

كان تلميذًا نابهًا في السويس، وانتقل الأهل إلى القاهرة وهو على عتبة المدرسة. تفوق في الدراسة ودخل مدرسة المعلمين وصار مُعلِّمًا، ثم ناظرًا، ثم إلى إنجلترا حيث درس الكيمياء وحصل على الدكتوراه، وأتبعها بدكتوراه أخرى في العلوم.

وعاد إلى مصر فكان فيها أستاذًا فمديرًا لمصلحة الكيمياء. أسماء مناصبه ومراتبه موجودة على الإنترنت لمن يريد التوثيق. ولكن أبا الكيمياء في مصر كان شعلةَ نشاط: عمل رئيسًا لتحرير المصور بضع سنين، وكان يجيد العربية إجادة جعلته عضوًا في مجمع اللغة، بخلاف علمائنا اليوم الذين يفتخر بعضهم بضعف عربيته.

وقرأ أحمد زكي الأدب البريطاني، غير مكتفٍ بالعلم. أعجبته مسرحية جان دارك لبرنارد شو، فترجمها ونشرها في «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التي ساهم في تأسيسها مع قريبه الأديب المشهور أحمد أمين. وترجم لنا قصة الكيمياء في كتاب سماه بواتق وأنابيق، وقصة الميكروب في كتابٍ آخر. وحدَّثنا أحمد زكي عن السماء وعن الأرض في كتابين اختار لهما اسمين يَشِيان بنزعته الأدبية: مع الله في السماء، ومع الله في الأرض.

ثم كان أحمد زكي على موعد مع القدر. كان في الثانية والستين من عمره، وكان فيه نشاط جمٌّ. وجاءته دعوة كويتية. لم يدعُه موظف صغير يعمل في مكتب «الموارد البشرية» كما يحدث اليوم في بلداننا العربية، بل دعاه كبار القوم عارفين قدرَه، وعارفين ما يريدون أن يصنعوا بمعونته لخدمة الثقافة العربية. دعوه كي ينشئ صرحًا ثقافيًّا باذخًا شامخًا.

وقال أحمد زكي -وهو العالم الأديب وصاحب النظرة الصحفية الثاقبة- قال: «لا بد من فتاة الغلاف، ولا بد أن تكون عربية، حتى يعرف العربي أن الجمال موجود في بلده، لا عند الشقراوات؛ ولا بد من الألوان، نعم حتى في عام ثمانية وخمسين. ولا بد من باب للطرائف العربية، وباب باسم «دردشة»، وحتى.. باب للفكاهات».

وصدر العدد الأول من مجلة العربي. كان مزيجًا عجيبًا: فيه آخرُ أخبار العلم، مع ترفيه طيب بغير إسفاف، ومسابقاتٍ، ومقالات عن العقل الإلكتروني، وكان أحمد زكي ينقل إلينا أخبار تطوير الحاسوب أولًا بأول، وكان يسميه العقل الإلكتروني. ظل أحد زكي يشرف على مجلة العربي ويكتب نصف أبوابها سبعَ عشرة سنة. وعلَّم جيلًا من العرب.

توفي أحمد زكي وقد جاوز الثمانين. كان شلَّال عطاء وشعلةَ نشاط. حياة أحمد زكي تقول لنا: «العلم يمكن أن يكون باللغة العربية».

يعقوب صَرّوف

خمسون سنة: عشرٌ في لبنان وأربعونَ بمصر، ومجلةُ المقتطَف تضخُّ العلم في عروق الأمة العربية، وباللغة العربية. ووراءها رجل لا يعرف الكَلال: يعقوب صَرُّوف.

درَس العلوم باللغة العربية في الجامعة التي ستسمى فيما بعد الجامعة الأميركية في بيروت. وأتقن الإنجليزية، وعمل في تدريس الرياضيات والعلوم إحدى عشرة سنة. ثم أطلق مع زميله فارس نمر مجلة المقتطَف.

في مصر استقلَّ صَرُّوف بالمجلة، وانصرف زميلُه فارس نمر إلى السياسة حين أنشأ جريدة المقطَّم. وصار فارس نمر «باشا»، وظل يعقوب صَرُّوف خادمًا للعلم.

يصف محمد كُرد علي المقتطَف بأنها «أهمُّ مَعلَمة عربية في العلوم الطبيعية والرياضية والاقتصادية»، ويقول عن صاحبها: «عدَّهُ العرب ركنًا عظيمًا من أركان نهضتهم، ورجلًا قل في الرجال مثلُه، رفعهُ علمُه وأدبه، ورفع هو كثيرين من حملة الأقلام وأرشدهم إلى طرائق البحث العلمية الجديدة، وله فضل كبير في وضع كثير من المصطلحات العلمية التي تناقلتها الأقلام».

لا نقول اليوم سيكولوجيا بل علمَ النفس، ولا هايبنوتزم بل تنويمًا مغناطيسيًّا، وهذه بعض تعريبات يعقوب صَرُّوف الكثيرة. كان يكتب في كل عدد، وينقل علوم الغرب في الكيمياء والزراعة والأحياء إلى اللغة العربية.

لقد تشرب اللغة العربية على يدي ناصيف اليازجي، أحد كبار دهاقنة العربية وصاحب المقامات المشهورة، وقال صَرُّوف شعرًا صحيحًا وهو فتى، فصرفه اليازجي عن الشعر قائلًا إن الشعر بضاعة خاسرة. وتعلم صَرُّوف على يدي الشيخ يوسف الأسير، الفقيه البيروتي الأزهري.

عرف صَرُّوف العربية كما لم يعرفها جلُّ العلماء المحدثين، وظل في قلبه حنين إلى اللغة والشعر: فتراه يقارن أشعار أبي العلاء بأشعارِ ملتون الإنجليزي في بعض أبحاثه، وتجدُه يدرس فكر هربرت سبنسر منبِّهًا إلى أن كثيرًا مما جاء به هذا الإنجليزي إنما سبقه إليه ابن خلدون.

تتلمذ يعقوب صَرُّوف في العلم على الأميركي كورنيليوس فاندايك، أحدِ مؤسسي الجامعة الأميركية.

لقد انتقد بعضُهم يعقوب صَرُّوف على ممالأته المحتلَّ الإنجليزي في مصر. وعلى نشره مقالاتِ شبلي الشميِّل في تأييد نظرية التطور، أو النشوء والارتقاء بحسب تعبير ذلك الزمن، وكان الشميِّل عنيفًا في دفاعه عن نظرية التطور. لكن يعقوب صَرُّوف كان في الأساس راهبًا في صومعة العلم لا لاعبًا في معمعة السياسة. وقد امتدحه المحافظون، ونشر في مجلته مصطفى صادق الرافعي الذي قال: «المقتطَف شيخ مجلاتنا، كلهن أولاده وأحفاده، وهو كالجد الأكبر. زمن يجتمع، وتاريخ يتراكم، وانفراد لا يُلحق».

قد يجد المرء -مثلما وجدتُ- في مكتبة قديمة مجلداتٍ سميكةً تحمل بين دفَّاتها أعدادًا من مجلة المقتطَف، لكنه يدرك بالطبع أن كلَّ ما فيها من علم قد تجاوزه الزمن. فماذا بقي من المقتطَف؟ بقي أنها دفعت العالم العربي في اتجاه العلم، وشحنت نفوس القراء بحب العلم.

مات يعقوب صَرُّوف عن خمسة وسبعين عامًا. مات بين عددين من المقتطَف: عددٍ كتب فيه وحرَّره، وعددٍ نعاه وأبَّنه.

إيلون ماسك ونقولا تسلا

إن صبرت معي وأنا أحدثك عن السيارة الكهربائية فسوف أقص عليك قصة أو اثنتين؟

إيلون ماسك أغنى رجلٍ في العالم، وهو المدير العام لشركة تسلا للسيارات الكهربائية والبطاريات ولكل شيء كهربائي. وله في صناعة الصواريخ وإطلاقها إلى الفضاء الخارجي باع وذراع. وتسلا أغلى شركة في العالم بقيمة تريليون دولار للرأس مال السوقي (Market Capitalization). إن أردت أن تتخيل الرقم فهذا يساوي ميزانية الأردن الحالية لستٍّ وستين سنة.

ميزانية الأردن للعام ٢٠٢٢ = ١٥.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠

تسلا «رأس المال السوقي» = ١٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠

١٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ تقسيم ١٥.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ = ٦٦ ضعفًا

قد حسبتها لك، لأنني فاضي أشغال.

ولا تتحمس للسيارة الكهربائية قبل أن تعرف بعض الأمور.

لو أردت أن تشحنها من بيتك فهذا سيستغرق عشرين ساعة. ومن المحطة الخاصة فهو يستغرق نصف ساعة حدًّا أدنى، وغالبًا أطولَ من ذلك. هذه هي المشكلة الكبيرة للسيارة الكهربائية. وثمة مشكلة أخرى وهي أنها تسير على الشحن الكامل من مئتين إلى ثلاثمئة كيلومتر لا أكثر، الأمر يعتمد على سعة البطاريات.

نسبة الإنتاج العالمي من السيارات الكهربائية ٩٪ من مجمل إنتاج السيارات في العالم. سأشرح قليلًا جدًّا؛ لأنني أعرف قليلًا جدًّا: محرك الاحتراق الداخلي في السيارة المألوفة فيه صبَّابات وأسطوانات واحتراق نفط، ودخان وسخام ينطلق في الجو. ومحرك السيارة الكهربائية لا تكاد تسمع له صوتًا. هو كالمحرك في ثلاجتك. وصوته صوته.

كثيرون يفضلون السيارة الهجين: فيها محرك احتراق داخلي على البترول، وفيها محرك كهربائي على البطارية. إيجابية السيارة الهجين أنها تشحن نفسها كهربائيًّا، وأنت تزودها بالبترول لكن بقدر أقلَّ من السيارة المألوفة. عدد السيارات الهجين في العالم يزيد قليلًا عن السيارات الكهربائية الخالصة.

شركة تسلا تتصدر إنتاج السيارة الكهربائية، لكنَّ تويوتا ونيسان ومرسيدس وبي إم، كلَّها تنتج وتتنافس.

السيارة الكهربائية ليست الحلَّ لمشكلة التلوث. فالكهرباء التي تُشحن في بطارياتها تأتي من محطات توليد تستعمل البترول.

الحل موجود في مصادر الطاقة البديلة كالرياح ومساقط المياه والخلايا الشمسية. القصة طويلة.

فلماذا سُمِّيت الشركة وسيارتُها باسم تسلا؟ هذا اسم رجل صربي أميركي سجل باسمه ثلاثَمئة اختراع.

هاجر نقولا تسلا إلى أميركا وعمل مع توماس إديسون المخترع المشهور قبل أكثر من مئة عام. وطور استخدام التيار المتردد (AC)، بينما أصر إديسون على التيار المباشر (DC). ونشأ ما عرف بحرب التيارين بين إديسون وتسلا. وبالمناسبة فسيارة تسلا تسير على تيار ثابت في البطارية يتحول إلى تيار متردد في المحرك، هي تسير على التيارين معًا.

هذا الرجلان أضاءا العالم بالتيارين. وفوق ذلك: وضع تسلا الأسس الكهربائية للراديو، ولولا هذه الأسسُ لما كان ماركوني اخترع الراديو. وإديسون جعلنا لأول مرة في التاريخ نسمع صوت شخص مات قبل سنين. التسجيل الصوتي على الأسطوانة اختراع إديسون.

نركز قليلًا على نقولا تسلا. كانت تأتيه حمامة بيضاء ويطعمها. جعلها عشيقته. فإن افتقدها راح يبحث في الحدائق عن حمام أبيض يبادله نظرات الهيام وحبات القمح.

عاش نقولا تسلا حتى السابعة والثمانين ولكنه لم يتزوج قط. ولم يكن ينام في المرة الواحدة فوق الساعتين، فإن جاع شرب لتر حليب، فهو لم يكن يأكل اللحم، ولا حتى الخبز. رجل لديه ثلاثُمئة براءة اختراع جاءت إليه بالملايين، وعاش تلك العيشة! السعادة موجودة في قلب الرضا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المعتزِلون

بيريلمان

هذا مُعلِّم روسي خطير، كتب في تبسيط الفيزياء كتابًا في سنة ١٩١١، وطبع مئاتِ الطبَعات بكل اللغات، وما زال يطبع. وله في العربية عدة طبعات. اسمه الفيزياء المسلية. وله أيضًا الرياضياتُ المسلية.

كان ياكوف بيريلمان يعيش في لينينغراد -التي عادت اليوم إلى اسمها القديم سان بطرسبرغ- عندما حاصرها الألمان في الحرب العالمية الثانية. دام الحصار سنتين وأشهرًا، ومات فيه أكثر من مليون روسي. أكل الناس الحشائش، وأوراقَ الشجر. وأما بيريلمان فقد أغلق بيته عليه واعتفد. واعتفد بالعربية معناها لزم بيته متعففًا عن سؤال الناس حتى الموت. ومات بيريلمان جوعًا.

معتزل من بلدي

هذا ابن مدينتي نابلس. كان معلِّم رياضيات، وذكر لي والدي اسمه ونسيت الاسم. عندما تقاعد هذا الرجل كان يجلس في محل كنفاني فيأتيه أهل الصنائع بمسائلهم: فهذا مبيض جدران يسأله أن يحسب له مساحة بيت أخذ مقاييسه، وهذا نجار وذاك حداد. وكان يفتيهم، وطارت له شهرة بحدة الذهن. لكنه كان عفيفًا. وجدوه ميتًا في بيته، وليس في البيت كسرةُ خبز. وجدوه قد وضع رأسه على المنضدة ويدُه في قطرميز المخلل، بعد أن لم يبق فيه شيء.

المعتزل خوفًا

قرأت في بعض المصادر الأجنبية أن ابنَ الهيثم عاش -عندما كان معتزلًا- من ثمرة كتبه. والمصادر العربية في هذا الأمر أصدق: لقد عاش على نسخ الكتب، اشتغل ناسخًا لينال قوت يومه. وللمصدر الأجنبي نقول: المؤلف في العالم العربي، قديمًا وحديثًا لا يأكل من ثمرة كتبه.

قبل سنين اشتريت كتابا يبسِّط العلوم، لبول بارسونز، وفي المقدمة قرأت أن مؤسس الطريقة العلمية في الدنيا هو ابن الهيثم. ليس اليونانيين، ولا الصينيين؟

وهُرعت إلى مكتبة الجامعة التي كنت أعمل بها، جامعة بيرزيت، لأفحص عن الأمر. قد درسنا في المدرسة أن ابنَ الهيثم عظيم، ولكننا دائمًا نشك في كتب المدارس وخصوصًا عندما تمجِّد عظماء الماضي. وفي موسوعة علمية

أميركية كبيرة رجوت أن أقع على فقرة عن ابن الهيثم. ووجدت -ويا لشدة ما انتابني من العجب- نحوَ خمسين صفحةً عن ابن الهيثم. ثم عثرت على طبعة عربية لكتابه المناظر، وأدهشتني اللغة العلمية الدقيقة التي استعملها هذا الرجل قبل ألف وخمسين سنة.

ينقلون عن ابن الهيثم قولَه في بعض كتبه، وعدُّوا له من الكتب نحوَ مئتين، أن الرجل الذي يقرأ كتب العلماء يجب أن ينصِّب نفسه خصمًا لهم في كل ما يقولون، ويجب أن يخاصم نفسه في كل ما يقرر، حتى يتثبَّت بالدليل القاطع وبعد الاعتبار، أي التجربة، من صحة ما ذهب إليه.

لم يتركِ ابن الهيثم مجالًا إلا خاض فيه، وتميز في البصَريات. فأفهم المجتمع العلمي أن العين لا تصدر شعاعًا يسقط على الأشياء فتراها، بل هي تستقبل الأشعة، واجترح جديدًا عندما قال إن العين جهاز لا يَرى، فالذي يرى هو الدماغ. وأصاب عندما عزا انكسار الضوء إلى تغير سرعة الضوء إذ ينتقل من وسط إلى وسط.

مقالة الويكيبيديا الإنجليزية عن ابن الهيثم تقع في ثمانية آلاف كلمة، واتَّكأت عليها.

كل علم اليونانيين لم يَعُد علمًا الآن، وكل علم العرب والمسلمين لم يَعُد علمًا الآن. كل ذلك أصبح تاريخًا. ولكن، بدون هذا التاريخ ما كان العلم اليوم ليصل إلى ما وصل إليه.

وُلد أبو علي الحسن بن الهيثم في البصرة عام ثلاثِـمِئة وأربعة وخمسين هجرية، وتألق في الرياضيات، وارتحل إلى مصر حيث عرض على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله مشروعًا للتحكمُ في فيضان النيل. ومضى ابن الهيثم إلى أسوان، ورأى بعينه أن المهمة ضخمة، ولا قِبل له بها. فعاد إلى القاهرة مذعورًا، فالحاكم بأمر الله شديد السطوة، وله في العقاب أساليبُ عجيبة. ويقال إن ابنَ الهيثم ادعى الجنون ولزم بيته. فأفلت من العقاب، وظل على هذه الحال حتى اختفاء الحاكم. فهذا الخليفةُ الفاطمي ركبَ حماره واتجه إلى المقطم، ولم يعد.

وفي فترة اعتزاله في بيته كتب ابن الهيثم أعظم كتاب في البصريات في التاريخ القديم، وهو المناظر. ولابن الهيثم نظرياتٌ في الكسوف وفي قوس قزح، وله باع طويل في علوم الهندسة والرياضيات. وكلما كتب الأوروبيون عنه ذكَّروا أنفسهم بأنه جاء قبل «عصر النهضة» بخمسمئة سنة. وقد تُرجمت أهم كتبه إلى اللاتينية؛ إذ كانت متداولة في الأندلس وتأثر بها ابن رشد. وامتد أثر ابن الهيثم عبر الترجمة اللاتينية فقرأه روغر بيكون وتأثر بمنهجه التجريبي، وقرأه ليوناردو دافنشي، وغاليليو، وديكارت، وكِبلر. ولابن الهيثم

معضلة رياضية تعرف باسم «مسألة ابن الهيثم»، وهي تقتضي الغوص في معادلات من الدرجة الرابعة، وهذا من عويص الرياضيات. ولم يتم حل هذه المعضلة إلا في عام ألف وتسعمئة وسبعة وتسعين على يد بيتر نيومان من جامعة أكسفورد.

كان ابن الهيثم عقلًا جبارًا، أتاحت له الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي أن يتألق. وبعض ما أتاحته هذه الحضارة كتبُ القدماء، فقد قرأ ابن الهيثم بالعربية كتب أرسطو وبطليموس واستفاد كثيرًا، وأتى بنقد عميق على القدماء وقدم جديدًا.

على سطح القمر توجد بقعة قطرها ثلاثون كيلومترًا وعمقها كيلومتران، واسمها الهازن. والهازن هو الاسم اللاتيني للحسن، أي الحسن بن الهيثم. سُمِّيت باسم العالِم العربي.

إغناتس زيملقايس

الدكتور إغناتس زيملقايس مجري الأصل، وكان طبيبَ توليد في المستشفى الكبير في ڤيينا. لاحظ قبل مئة وسبعين سنة أن وفياتِ النساء عاليةٌ بمرض حُمَّى النِّفاس. ولاحظ شيئًا آخر. لاحظ أن الوفيات في العنابر التي يعمل فيها الأطباء أعلى بثلاث مرات من العنابر التي تعمل فيها القوابل: الدَّايات. ولاحظَ شيئًا ثالثًا: لاحظ أن القوابل يغسلن أيديَهن. ولكن الأطباء المتكبرين يدخلون إلى غرف التوليد دون غسل اليدين. ودوَّن ملاحظاته في كتاب، وأمر الأطباء بغسل اليدين. ولاحقه الأطباء بالسخرية.

وأصيب بانهيار عصبي وهو في السابعة والأربعين من العمر. وأدخله زملاؤه الأطباء إلى مَصحَّة. وتعرض للضرب الشديد على يد حراس المصحة. وبعد أسبوعين مات بغنغرين في ذراعه التي كسرت من شدة الضرب. وبعد موته بسنوات اعترف العالم بفضله. كلما جاء وباء نتذكر غسل اليدين، ونتذكر إغناتس زميلقايس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زعماؤنا

جمال عبد الناصر

الزمان: أواخر سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠. المكان: مدينة نابلس، التي وقعت تحت الاحتلال الإسرائيلي قبل ثلاث سنين. ولماذا احتلتها إسرائيل؟ لأن جمال عبد الناصر هُزم في حرب يونيو/حزيران. لقد تهور، وتهور معه الملك حسين وحكام سوريا. فهُزموا جميعًا.

كنت فتى يافعًا. نزلت إلى السوق. المحال مغلقة، والصمت يلف المدينة، وهناك باعة يبيعون الخبز والخضر على عرباتهم. الناس يشترون وهم يبكون، والباعة يبيعون وهم يبكون. عبد الناصر مات. كان المخلِّص الذي نريده أن يخلصنا مما أوقَعَنا فيه. كانت شعبيته طاغية في كل العالم العربي. رغم هزيمته المنكرة، قبل ثلاث سنين، ظللنا نحبه.

قاد عبد الناصر الضباط الأحرار عام اثنين وخمسين، وعزلوا الملك فاروق، ثم ألغَوا الملكية. كان انقلابًا تحول إلى ثورة. ولماذا ثورة؟ لأنها غيرت وجه المجتمع المصري: إلى الأحسن، وإلى الأسوأ. أُلغي البرلمان، وحَلَّ محله مجلس بلا سلطة، سمِّه مجلسَ الشعب أو الاتحادَ الاشتراكي العربي لا فرق. بدأ في مصر حكم العسكر. وحُلَّت الأحزاب. أطيح بإرث تعدُّديٍّ محدود أنجبته ثورة عام تسعة عشر، وتمتعت به مصر نحو ثلاثين سنة. وأطاح العسكر بالإقطاع: الباشا الذي رأيناه في أفلام الأبيض والأسود لم يعد باشا، والأرض الزراعية نُزعت ملكيتها من الإقطاعيين ووزعت على الفلَّاحين. كان عبد الناصر يعلم أن هذا التفتيت للأرض غيرُ مجد اقتصاديًّا. لكنه نظر إلى التغير الاجتماعي المنشود والحراك الطبقي. نشأت طبقة وسطى قوية، ونهضت الصناعة، وفُتحت المدارس في المدن والأرياف بوتيرة غير مسبوقة.

كنت أعيش في لندن، وهذا استطراد، وزرت صديقي المصري محمد شقير لكي أسلم على السيدة والدته، التي جاءت في زيارة، وهي ناظرة مدرسة متقاعدة. وفُتحت سيرة عبد الناصر. أخذ صديقي يحمل بشدة على عبد الناصر، وراحت والدته تعارضه وتقول: «لولا حكمُ عبد الناصر لما تعلمتُ أنا، ولا أنت».

حُكم عبد الناصر كان له وجه سياسي دولي. كان يواجه الاستعمار، ويشارك في حركة عدم الانحياز. ولماذا نقول عبد الناصر باستمرار، ولا نقول النظام المصري؟ لأن الرجل كان مستبدًّا. لم يكنز المال: كانت لديه شهوةُ الحكم، لا شهوة المال. ولكي يبنيَ السد العالي أمَّم قناة السويس، وصفقنا طويلًا. وهجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على منطقة القناة، واحتلت إسرائيل

كامل جزيرة سيناء بسهولة، هذا هو العدوان الثلاثي ١٩٥٦. وبضغط أميركي وسوڤييتي انسحب المهاجمون خائبين، وصفقنا طويلًا. وبعد إحدى عشرة سنة احتلت إسرائيل سيناء بسهولة فائقة. عبد الناصر لم يتعلم الدرس العسكري ولا السياسي.

وماذا عن المعارضين وخصوصًا الإخوان المسلمين؟ زُجَّ بهم في السجون.

جمال عبد الناصر صاحب مشروع تنموي وطني، وغير ديمقراطي. وككل مستبدٍّ اجتمع حوله المطبِّلون، بُحَّ صوت عبد الحليم وهو يغني له.

معمّر القذّافي

أحَبه كثيرون من الليبيين ممن استفاد من إجراءاته في بدايات حكمه الذي بدأ عام ١٩٦٩. لكن النفط في ليبيا كان يتدفق غزيرًا، وكان عدد السكان مليونين، فلعل الحكم الملكي البائد، لو بقي، كان سيقدم للناس الشقق والوظائف التي قدمها القذافي. كان شابًّا في الثامنة والعشرين عندما أمسك بالحكم، ورأى في جمال عبد الناصر أبًا روحيًّا. ومات عبد الناصر بعد سنة. فوقع في وهم القذافي أنه يصلح لخلافته زعيمًا للعرب.

تأثر القذافي بخطِّ عبد الناصر المناهض للاستعمار. وأنفق من أموال النفط الكثير على حركات ثورية أو عُنفيَّة لا علاقة لها بليبيا ولا بالعرب. كان حاكمًا مستبدًا، من النوع الذي يضع ميزانية البلد في جيبه وينفق منها كما يشاء. آنس القذافي في نفسه إقبالًا على الفكر السياسي المحض، فكان الكتاب الأخضر. وكانت للقذافي نظرات ونظريات في العيش والسياسة. انتقد المباريات الرياضية التي يتفرج عليها الآلاف، قائلًا: «أنا أؤيد ممارسة الرياضة، لكن ليس الفرجة عليها. الناس يذهبون إلى المطعم ليأكلوا لا ليتفرجوا على الآكلين». خوش نظرية.

يردد العامة كثيرًا بعض عبارات القذافي بإعجاب. وخير رد على هذا سمعته في لقاء متلفز مع د. عزمي بشارة. قال: «الساعة الواقفة تكون صحيحة مرتين كل يوم».

صمد أربعين سنة حاكمًا مطلقًا لليبيا، كان يعالج السياسة الداخلية بحنكة. لكنها حنكة مخلوطة باستغلال فقر الفقراء لتوظيفهم مصفِّقين حينًا، وبلاطجةً حينًا. كان الحكم للعسكر، وكان هذا الحكم يستعمل الغوغاء للقضاء على المعارضة باسم الشعب.

في زمن القذافي نشأت في ليبيا مدارس وجامعات. ولكن الإبداع العلمي والأدبي لا يتنفس بدون أكسجين الحرية.

أحب الناس في القذافي اعتزازه بتراثه الوطني، وشموخَه في وجه المحتل السابق إيطاليا. ولكن مشاريعه التنموية، ومن بينها النهر الصناعي العظيم لم تؤت أكلها. إذا توفر النفط سدَّ مسدَّ الماء.

ظل القذافي يجرب أن يكون زعيمًا عالميًّا، فبعد أن يئس من العرب اتجه إلى إفريقيا وسمى نفسه ملك ملوكها، واشترى التأييد بأموال الشعب الليبي. سقطتُه الشخصية الكبيرة كانت جنون العظمة. هذا الحاكم كان قرأ في صباه سير العظماء، قرأ عن أتاتورك ولنكولن، واشتهى أن يكون عظيمًا.

بعد ثورة عارمة سقط القذافي وقُتل قِتلة شنيعة. وساعد حلف الناتو في إسقاطه. ولا يُلام الشعب الليبي على أنه خضع للدكتاتور أربعين سنة، وما أسقطه إلا بمساعدة الأجنبي. فلا الألمان أسقطوا هتلر ولا الإسبان أسقطوا فرانكو، ولا العراقيون أسقطوا صدامًا. المستبد القاسي قد يحتاج إلى قوة خارجية لإسقاطه. وانغمست ليبيا بعد سقوط القذافي في حرب أهلية. ولكن الفرق بين الليبيين في زمن القذافي والليبيين بعده أنهم صاروا أحرارًا ولهم رأي. نعم! رغم الحرب الأهلية التي أعقبت سقوط القذافي.

حافظ الأسد

أعرض جانبًا واحدًا من جوانب حكم حافظ الأسد. أعرضه من خلال كتاب لمحمد برُّو عنوانه ناجٍ من الـمِقصلة.

دخل محمد برو أحد أفظع السجون في الدنيا -سجن تَدمُر- طالبًا في الثانوية وخرج منه رجلًا. يقصُّ الكاتب أحداثًا مرعبة: يصور مشاهد الشنق، وفنون التعذيب. الكتاب شهادة كاملة وموثَّقة بالأسماء. مرة واحدة في الكتاب صادفت كلمة وحوش بشرية في وصف المعذِّبين، ثم استدرك الكاتب سريعًا: «الوحوش لا تصنع هذا».

هناك جِلد يتمزق بحبال مطاطٍ مجدولة بفولاذ، ويتعب المعذِّب ويتصبَّب عرقًا، فيشرب، ويمسح عرقه ويعود إلى ضحيته. هناك جَلد حتى الموت: بعد نوبة جَلد يأتي الجلَّاد بالقرميدة ويرضخ بها رأس الضحية. ترى رجلًا آخر كُسِّرت أضلاع صدره وعظامه، وخربت أعضاؤه الداخلية، وخرجت إحدى عينيه من محجرها، ثم إنه يُنقل إلى العنبر بين زملائه كي يروه وهو يموت. يتحلَّقون حوله يدعون له بالموت السريع، وبعد ساعة يموت بين أيديهم.

يصف الكاتب الراكضين إلى المشانق. يركضون فرحين بالخلاص من التعذيب. هذه سوريا في عهد حافظ الأسد.

حكم القاضي على الصبي محمد برُّو بالإعدام، وطلب إليه أن يوقِّع، فوقَّع. وبصدفة من صدفِ القدر العزيزة، جاء المسؤول الأعلى وقال: «هذا الصبي

ابن الكذا والكذا أعطوه عشر سنين، وهكذا كان، هكذا نجا من المِقصلة. هذا القاضي الساديُّ نفسُه نراه ينظر إلى شيخ ستيني يقف مع ولديه. يقول له: «أريد أن أعدم ولدًا واحدًا منهما، وأنت من سيختار». ويبكي الشيخ، ويتوسَّل. فإن امتنع فالإعدام لهما معًا. وأخيرًا أشاح الشيخ بوجهه وأشار بيده إلى الخلف غير عارف إلى من أشارت اليد. وأُعدم أحدهما.

في سجن تدمُر حفظ المعتقلون الشعر والقرآن، وكان بينهم أطباء وجيولوجيون وصيادلة. فإن رأيت كيف يكتب هذا السجين وكيف يحلِّل النفسيات فأنت تعلم أنه احتكَّ بخيرة رجال سوريا في سجن تدمُر.

عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير

كان عبد الملك بنُ مروان قاعدًا والمصحف منشور بين ذراعيه، فأتاه من بشَّره بالخلافة، فقد مات أبوه مروان بن الحكم وآلت الخلافة إليه. طوى عبد الملكِ المصحف وقال: «هذا آخرُ العهدِ بك». كان من أفقه الناس وأعلمهم، ولكنه عرف أن السياسة شيء والدين شيء آخر. صعِد المنبر يوم ولي الخلافة وقال: «لست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا بالخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا بالخليفة المأفون (أي الأحمق: يعني يزيد). ألا وإني لا أداوي هذه الأمةَ إلا بالسيف، حتى تستقيم لي قناتكم. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مُقامي هذا إلا ضربت عنقه».

مع تولِّيه الخلافة كانت أمامه مشكلة كبيرة، فقبل سنة كان عبد الله بن الزبير قد انشقَّ على دولة بني أميه وبويع له في مكة، وأرسل أخاه مصعبًا واليًا على العراق. فدولة الخلافة منقسمة: في مكة خليفة وفي دمشق خليفة. حارب عبد الملك مصعب بن الزبير -وكان صديق الصبا- وعندما قتل مصعب قال عبد الملك: «الـمُلك عقيم». واحتَزَّ رأس مصعب وبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير في مكة.

قصَّتان عن عبد الملك

كان عبد الملك بنُ مروان بليغًا عارفًا بالقرآن وبشعر العرب. عيَّن الحجَّاج واليًا على العراق، وجاءه يومًا كلام عن وحشية الحجَّاج مع أعدائه، فكاتبه في الأمر. فكتب إليه الحجَّاج يسوِّغ أفعاله. فردَّ عبد الملك بإيجاز: «أما بعد، فإنك سالم والسلام». والعبارة غريبة: «إنك سالم والسلام؟» سأل الحجَّاج بعض من بمجلسه. فقال له: «أما السلام فمعروف». وأما سالمٌ فهذا إشارة إلى بيت من الشعر. كان الناس يُبلغون عبدَ الله بنَ عمر عن أشياء يصنعها ولده سالم، وكان يحبه جدًّا، وكان يغير الموضوع ويتهرَّب ولا يلوم ولده، قال:

يُديرونني عن سالم وأُديرُهُمْ

وجِلّدَةُ بين العينِ واَلأنفِ سالمُ

فهذا تفسير «إنك سالم».

وقال عبد الملك لجلسائه يومًا: «أي المناديل أفضل؟» قال بعضهم: «مناديل اليمن، كأنها نَوْر الربيع»، وقال آخر: «مناديل مصر كأنه الغِرقِئ». والغرقئ الغشاء الداخلي للبيضة الذي قد يلتصق بها وأنت تقشرها ويجعلك تلعن الساعة التي سلقت فيها بيضة. قال عبد الملك: «بل أفضل المناديل مناديلُ عَبدة». وخرج القوم من مجلس عبد الملك وهم يسألون بعضهم بعضًا: «وما مناديل عَبدة؟» حتى جاءهم من قال لهم: «هذا عَبدة ابن الطبيب الشاعر حين كان مع أصحابه الفرسان، فنزلوا وأخذوا ينتشلون اللحم من القِدر: فهذا لحم ما زالت به حمرة، وهذا لحم أصبح أشقر اللون، المهم أن كل ما تغير لونه قليلًا كانوا ينتشلونه ويأكلونه لشدة جوعهم». أكلوا اللحم ثم قاموا إلى خيولهم ومسَّحوا أيديهم بأعرافها، قال عَبدة بن الطبيب:

لما نَزلْنا نصبْنا ظِلَّ أَخبِيَة

وفارَ لِلقومِ بِاللَّحمِ الـمَراجيلُ

وَرْدًا وأَشقَرَ لم يُهْنِئْهُ طابِخُه

ما غَيَّرَ الغَلْيُ منه فَهْو مأكولُ

ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَة

أعرافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ

رَجع إلى ابن الزبير

نعود إلى عبد الله بن الزبير بمكة، وقد قُتل أخوه مصعب والي العراق، ضاقت على ابن الزبير الأنشوطة، وحوصر في مكة، حاصره الحجَّاج. وقاتل ببسالة، وقاتل من أصحابه من قاتل، وخذل من خذل. دخل ابن الزبير على أمه أسماءَ بنتِ أبي بكر، وكانت عجوزًا، وقال لها: «يا أُمَّه! خذلتني الناس، وما بقي معي إلا اليسير». فقالت له أُمُّه: «إن كنت تعلم أنك على حقٍّ فامض له، قد قُتل أصحابك عليه. لا تمكِّن صبيان بني أميةَ من رقبتك يتلعَّبون بها. والله لضربة بالسيف في عزٍّ أحب إلي من ضربة بالسوط في ذل». قال ابن الزبير: «أخاف إن قُتلت أن يمثِّلوا بي». قالت أمُّه: «وهل يضير الشاة أن تسلخ بعد موتها!» فدنا عبد الله بنُ الزبير وقبَّل رأسها، وطلب منها أن تدعوَ له. فقالت: «اللهم ارحم ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك الظمأ في هواجر مكة والمدينة. اللهم قد سلَّمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت». وخرج ابن الزبير ولم يلبث أن قُتل. فاحتزَّ الحجَّاج رأسه وأرسل به إلى الخليفة بدمشق.

وصُلب جذع ابن الزبير منكوسًا في مكة. بعد أيام مر به عبد الله بنُ عمر، فقال: «أما والله لقد كنت صوَّامًا قوَّامًا». وبعث إلى الحجَّاج يقول: «أما آن لهذا الراكب أن يترجَّل». فأُنزل ودُفن. وخَلَصت الخلافة لبني أمية بعد ذلك ستين سنة، ثم دالت دولتهم وامَّحى أثرهم.

فيصل الأول في سوريا

هذه قصة «المملكة السورية». هي فصل من فصول ارتطامنا بالغرب المخادع بعد أن كنا عنه بمعزل بضعَ مئات من السنين تحت الخيمة العثمانية.

في عام ١٩١٨دخل فيصلُ بنُ الحسين دمشق مع خروج الجيش العثماني منهزمًا في نهاية الحرب العالمية الأولى. استُقبل فيصلٌ بحفاوة بالغة، وعَيَّن حكامًا عسكريين لبيروتَ وحلبَ والأردنِّ والشام. هذه كلها كانت سوريا في ذلك الزمن. وذهب فيصلٌ إلى باريس ليفاوض المنتصرين. وعاد إلى سوريا. ولكن الإنجليز والفرنسيين كانوا قد اتفقوا سرًا على تقسيم المنطقة في معاهدة سايكس بيكو. وتسرَّب السرُّ ولم يعد سرًّا. وعاد فيصلٌ إلى دمشق غيرَ مكترث بما عزمت عليه فرنسا وبريطانيا.

أنزلت فرنسا قواتها على الشاطئ اللبناني وزحفت نحو دمشق. وجه الجنرال هنري غورو إنذاره المعروف. وبعد التشاور أرسل فيصل برقية قَبِل فيها شروط غورو. لكن غورو واصل الزحف على دمشق بدعوى أن ردَّ فيصل تأخر نصف ساعة.

واضطر فيصلٌ إلى الإذعان لرأي وزير حربيته يوسفَ العظمة، فأرسل قوة تقف في وجه الفرنسيين وعلى رأسها الوزير. وكانت المعركة في ميسلون على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الغرب من دمشق. كانت معركةُ ميسلون وقفةَ عز وشرف، واستشهد فيها يوسفُ العظمة. قُتل في المعركة، بحسب الدراسات الرصينة، خمسون فرنسيا ومئةٌ وخمسون عربيًّا.

فر فيصلٌ إلى جنوب دمشق، ثم إلى حيفا حيث كان الإنجليز قد رسَّخوا انتدابهم على فلسطين. وعاد إلى دمشق مصرًّا على أنه ملكُ سوريا، وعيَّن علاء الدين الدروبي رئيسًا للوزراء.

لكن الدروبي كان قد اتفق مع الفرنسيين حتى قبل ميسلون. وفرض الفرنسيون على سوريا غرامة باهظة. الدروبي وزع الغرامة على شتى المدن، ولكن حوران ثارت، فزارها لتهدئتها، فقتله الثوار. لم يمكث الدروبي في منصبه سوى ثلاثة أسابيع.

وذهب فيصلٌ إلى العراق ليكون ملكًا تحت الانتداب البريطاني. ولم تعد سوريا إلى الملكية، حتى عام ألف وتسعمئة وسبعين عندما تولى حافظُ الأسد

الرئاسة!

العراق من فيصل الأول إلى صدّام

نتحدث في هذا السرد التاريخي عن المملكة العراقية الهاشمية، ثم نمضي إلى الجمهورية.

بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى احتل الإنجليز ولايات البصرة وبغداد والموصل فصنعوا العراق. أما الولايات الغربية التي ستشكِّل سوريا فكانت من حصة فرنسا. أسرع الإنجليز قبل مقدم القوات الفرنسية بتنصيب فيصل ابن شريف مكة ملكًا على سوريا. ورفضت فرنسا أن تحكم سوريا وفيها ملك، فنصَّبت بريطانيا فيصلًا ملكًا على العراق في استفتاء سريع.

يذكرون أن البصرة لم تحتفل بقدومه، ولكنه عندما وصل بغداد خرج الناس للقائه. قال معروف الرصافي، العثماني الهوى:

خرجَ الناسُ يُهْرَعوُنَ احتِفَاءً

بِقُدومِ الأميرِ غيرِ الأميرِ

مَلَأُوا الشارعَ الكبيرَ لِأَمْرٍ

في كبيرِ العقولِ غيرِ كبيرِ

كيف جاءَ الأميرُ قبلَ ائْتِمار الـ

قومِ فيما يَخْتَصُّ بِالتَّأْميرِ

ثم سَمَّوْهُ بِالأميرِ، وهذا

مِن ضُروبِ الخِداعِ في التَّعبيرِ

أَأَميرًا والآمِرونَ سِواهُ

لم يكنْ عِندهُمْ سوى مَأْمُورِ

والآمرون هم الإنجليز. كان فيصل دمثًا، وأخذ الناس باللين. كان عروبيًّا، وظل له مطمع في سوريا. وأوهمته فرنسا بأنها تفكر جديًّا في الأمر، ذلك حتى لا يؤيد ثورة جبل العرب الكبرى في سوريا عام خمسة وعشرين. ولم يؤيدها. ولم تعطه فرنسا سوى ظهرها. وبقي ملكًا على العراق، يحاول جهده التقرب إلى الشيعة، ولكن حكمه قام على أكتاف رجالٍ من أهل السنة في العراق تمرَّسوا بالسياسة في بغداد وإستانبول أثناء الحكم العثماني، ورجالٍ من سوريا وفلسطين واليمن جاءوا معه من دمشق.

الملك غازي

مات فيصل عام ١٩٣٣، وتسنم العرش ابنه الوحيد غازي. وفي عهده جرى أول انقلاب في العالم العربي.

الفريق الركن بكر صدقي لم يطلب الوزارة ولا العرش، بل أراد أن يحكم العراق بالجيش من وراء واجهة ملكية، نحن في عام ستة وثلاثين. الملك غازي لم يعارضِ الانقلاب. أما رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فتوجه إلى إستانبول، وأما نوري السعيد -وسنقابله بعد حين- فقد نفى نفسه إلى القاهرة. الإنجليز راقبوا الأمر من كثب، وبعد أشهر اغتيل صدقي في الموصل. قيل بتدبير إنجليزي. وعاد الهاربان. وبعد ذلك بثلاث سنين قُتل الملك غازي في حادث سيارة. يا للمصادفة! هذا في عام ١٩٣٩ وطبول الحرب العالمية الثانية تقرع، وغازي ميال إلى الألمان.

فيصل الثاني

كان فيصلُ بن غازي في الرابعة من عمره عندما نودي به ملكًا على العراق. أصبح خاله الأميرُ عبد الإله وصيًّا على العرش. في هذا العام قامت الحرب العالمية الثانية، والإنجليز يحكمون المملكة العراقية المستقلةَ استقلالًا صوريًّا. وسَنَدهم في العراق -سوى الوصي على العرش- رجل من أمهر الساسة الذين عرفهم تاريخ العرب.

تمرس نوري السعيد بالسياسة العثمانية والإنجليزية. هو مثقف ومكيافيللي. صحب فيصلًا الأول، ولكنه كان عراقي الهوى لا عروبي التوجه. هذا الرجل قالت عنه غيرترود بيل مستشارةُ المندوب السامي البريطاني عندما التقته أول مرة: «إننا نقف وجهًا لوجه أمام قوة جبارة ومرنة في آن واحد، وينبغي علينا نحن البريطانيين إما أن نعمل يدًا بيد معها أو أن نشاغلها في صراع عنيف يصعب معه تحقيق النصر». هذا الرجل تولى رئاسة الوزراء في العراق أكثر من عشر مرات.

غير أن رئيس الوزراء في عام واحد وأربعين كان رشيد عالي الكيلاني. ورأى الكيلاني انتصارات ألمانيا النازية في الحرب، فآزرها على بريطانيا، وعزل الوصي على العرش، ففر الوصيُّ من العراق. ثم نزلت بريطانيا بقواتها ففر رشيد عالي. يسمون ذلك انقلابًا لكن رشيد عالي كان رئيس وزراء. وانتهت الحرب وبقي لبريطانيا نفوذ في العراق. وشب فيصلُ الثاني وتولى العرش بنفسه.

وظل نوري السعيد يتصدر المشهد، فكانت له اليد الطولى في عقد حلف بغداد الموالي لبريطانيا عام خمسة وخمسين. كان الشارع العربي يغلي ضد

المستعمرين. وبعد حلف بغداد بسنة وقع العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، فاشتعل الشارع العراقي. ثم بعد سنتين قامت الوحدة بين مصر وسوريا. فكانت إحراجًا للحكم الملكي في العراق.

ردَّ العراق بعد أسبوعين فقط بإعلان وحدة مع الأردن التي يحكمها الهاشمي الآخر الحسينُ بن طلال. وتلاحقت الأحداث: بعد أسابيع طلب الملك حسين قوات من العراق لدعم عرشه.

أرسل إليه فيصل الثاني الشاب قوةً بقيادة عبد الكريم قاسم. فاختار قاسم أن يزحف على بغداد بدل عمَّان. وحاصر القصر الملكي، قصر الرحاب. وهناك كانت المجزرة. قُتل الملك، وسُحل الوصي السابق في شوارع بغداد، وقُتلت النساء: منهن أميرات ومنهن خادمات. ولوحق نوري السعيد، وقُتل. وانتهت الملكية في العراق، وانفصمت الوحدة مع الأردن.

عبد الكريم قاسم وبدء الحكم الجمهوري

هذا عسكري من أصول فقيرة، أبوه سنِّي وأمه شيعية. بدأ حكمه بمجزرة قصر الرحاب، مع ذلك كان عبد الكريم قاسم ودودًا مع رفاق السلاح. ومن حسنات هذا الانقلاب –وكانوا يسمونه ثورة الرابعَ عشرَ من تموز/ يوليو- أنه أسَّس لدولة حديثة، مع تغليب الدولة المدنية على القبيلة. قبل تحول العراق إلى الحكم الجمهوري بأشهر كانت مصر وسوريا قد توحدتا، ورفض قاسم فكرة الانضمام إذ رأى سوريا أصبحت ولاية مصرية. وهاجمه الرئيس المصري عبد الناصر في خطاباته.

كان لقاسم ميل إلى الاتحاد السوفييتي، لكن النبرة القومية العربية كانت تفرض نفسها في ذلك الزمن.

البارز بين رفاق الزعيم قاسم كان العقيد عبد السلام عارف. عسكري آخر، وطموح. أحس قاسم بالخطر فنفى عارفًا سفيرًا، ثم سجنه، ثم وضعه تحت الإقامة الجبرية. وتجمعت السحب السود في سماء الزعيم قاسم، تحالف ضده البعثيون، والقوميون، والأهم أن الشارع العراقي كان في ذلك الزمن القومي قوميًّا، كان العرب كلهم مع عبد الناصر. وحدث انقلاب وقبض على قاسم ومعاونيه وسيقوا إلى مقر الإذاعة والتلفزيون وأعدموا، وصورت جثثهم. كان البعث النواةَ الصلبة للانقلاب. ولكن هذا الحزب كان خديجًا، فصنع مع عبد السلام عارف ما صنعه عبد الناصر مع محمد نجيب إذ وضعه صورة يحكم من ورائها.

عبد السلام عارف

ارتدى عبد السلام عارف الزي المدني وصار رئيسًا. وتغدى بالبعث قبل أن يتعشوا به، فأقصاهم. عند توليه الحكم كانت الوحدة بين مصر وسوريا قد انفصمت، واقترب عارف من عبد الناصر، مجرد اقتراب. بعد ثلاث سنين قُتل عبد السلام عارف في حادث طائرة.

عبد الرحمن عارف

جيء بأخيه العسكري المسالم عبد الرحمن عارف رئيسًا. نحن نتحدث عن العراق، ونذكر كلمة قالها -أو قيل إنه قالها- أولُ ملك للعراق، فيصلُ الأول. قال: «أعرف أن الجيش ليس مكلفًا بحماية الوطن. نريده قويًّا ليواجه القلاقل في الجنوب وفي الشمال». يقصد الشيعة والأكراد. هذا كان دورَ الجيش في العراق، فإن وجد في غير هذين الموقعين (فلسطين مثلًا) فـ «ماكو أوامر». شحذ البعث همَّته وبعد سنتين انقلب على الحكم، ونُفيَ عبد الرحمن عارف. الغريب أنه عاش حتى تجاوز التسعين، وعاد إلى العراق بعد حين. ثم بعد سقوط بغداد بيد الأميركيين توجه إلى الأردن وفيها مات ودفن.

أحمد حسن البكر

بدأ حكم البعث بالعسكري أحمد حسن البكر الذي ارتدى البزة المدنية، هذا في عام ١٩٦٨. أيده في انقلابه عبد الرزاق النايف، فأصبح رئيس وزراء، وإبراهيم الداود فعين وزيرًا للدفاع وقائدًا للجيش. وبعد أسبوعين جرى انقلاب داخلي فأقصي الرجلان، واغتيل النايف فيما بعد في لندن. وظل الداود في المنفى. وصفا الجو للبعثيين.

كان ناظم كْزار مسؤول الأمن، بالأحرى مسؤول التعذيب. كان باطشًا. ولكن شابًا آخر كان أقرب إلى الرئيس البكر.

صدام حسين التكريتي والرئيس البكر من عشيرة واحدة ومنطقة واحدة، وكانت بينهما وشائج مصاهرة. في عام ثلاثة وسبعين حاول ناظم كزار الانقلاب على الحكم، فأحبطت المحاولة بمعونة استخبارية سوفييتية. وأشرف صدام حسين شخصيًّا على تعذيبه وقتله.

أمسك صدام حسين بالأمن، وبملفات شتى من أهمها الإعلام. لكنه ليس عسكريًّا، والجيش لن يطاوعه ضد البَكر، وهو لن ينقلب على كبير العشيرة. وثِق به الرئيس أحمد حسن البكر. وفي عام خمسة وسبعين وُقِّعت اتفاقية الجزائر مع إيران. فأرضِي الشاه بترسيم حدودي لصالح إيران، وبالمقابل قطعت إيران دعمها للثائرين الأكراد. وبهذا استراح الجيش العراقي من حرب الجبال في الشمال، وخرج من معادلة السلطة. بدأ الإعلام العراقي يقدم الرئيس البكر على أنه الأب القائد، وكانت صورته مصحوبة دائمًا بصورة

صدام. في عام ١٩٧٩ أراد البكر أن يعقد وحدة مع سوريا، يكون بموجبها رئيسًا لدولة الاتحاد، ويكون حافظ الأسد نائبًا للرئيس. هذا بالطبع لم يرق لصدام حسين، كانت القشة الأخيرة.

صدَّام حسين

بطريقة لا نعرفها أزيح أحمد حسن البكر (مسألة عائلية)، وتولى رئاسة العراق أول رئيس مدني. لم يعد الحكم عسكريًّا، أصبح بوليسيًّا. بعد أيام جمع صدام قادة الحزب في «قاعة الخُلد»، وأخرج منهم خمسة وخمسين من القاعة واحدًا واحدًا: اثنان وعشرون أُعدموا، والبقية سجنوا. تأسَّست جمهوريةُ الخوف. وفي العام نفسه قامت الثورة الإيرانية بزعامة الخميني. وبعد عام شن صدام حربًا على إيران انتهت بعد ثماني سنين ومليون قتيل، ولا منتصر. وبعد سنتين احتل صدام الكويت ثم أُخرج منها. وبعد حصار دام ثلاث عشرة سنة، أسقط الاحتلال الأميركي الرئيس العراقي. بعد صدام بدأ عراق جديد مؤلم ودام. تغير كل شيء، وما زال يتغير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العراقة والشرف

أعرق الأنبياء في النبوَّة يوسُفُ عليه السلام: فأبوه يعقوبُ نبي وجدُّه إسحقُ نبي، وأبو جدِّه إبراهيمُ أبو الأنبياء.

وأعرق النساء في الخلافة فاطمة بنت عبد الملك. أبوها عبد الملك خليفة، وجدُّها مروانُ بنُ الحكم خليفة، وإخوتُها: الوليدُ ويزيدُ وسليمانُ وهشامٌ، كلُّهم خلفاء. وزوجها عمرُ بن عبد العزيز خليفة. عندما آلت الخلافة إلى زوجها عمرَ بن عبد العزيز قال لها: «عندك عِقدٌ ثمين أهداه إليك أبوك، والعِقدُ من حق بيت المال، فاختاري بيني وبينه». فقالت له: «بل أختارك على كل شيء». وردَّت العِقد إلى بيت المال. وعندما مات عمر عرض عليها أخوها الخليفة يزيدُ بن عبد الملك أن يردَّ عليها العِقد فأبت. قال الشاعر في فاطمةَ بنتِ عبد الملك:

بنتُ الخليفة والخليفةُ جدُّها

أختُ الخلائفِ والخليفةُ بعلُها

وأشرف النساء نسبًا فاطمةُ رضي الله عنها، أبوها محمدٌ ، وأمُّها أمُّ المؤمنين وأولى المسلمات خديجة، وزوجُها عليٌّ كرم الله وجهه، وابناها سيدا شباب أهل الجنة الحسنُ والحسين.

الأمير عبد القادر الجزائري

وقعت الجزائر تحت ضغط الفَرنسة مئة وثلاثين عامًا، لكنها كانت كلما تذكرت المجاهد الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري انتعش لسانها العربي. قال الأمير عبد القادر:

لنا في كل مكرمة مجالُ

ومن فوق السِّماك لنا رجالُ

ورِثنا سؤدَدًا للعُرب يبقى

وما تبقى السماءُ ولا الجبالُ

فبِالجَدِّ القديم علَت قريش

ومِنَّا، فوق ذا، طابت فَعالُ

سلوا تخبركمُ عنا فرنسا

ويصدقُ إن حكت منها المقالُ

فكم لي فيهمُ من يوم حرب

به افتخر الزمان ولا يزالُ

حفظ عبد القادرِ القرآنَ يافعًا، وتبحَّر في الدين وعلوم العربية. وفي رحلة الحج مع والده تعرف الفتى ببلاد العرب التي مرَّا بها برًا، كان هذا قبل نحو مئتي عام. وحانت نقطة التحول في حياته وهو في الثالثة والعشرين من العمر، ذلك عندما احتلَّت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠. وبعد سنتين بويع بالإمارة وخاض جهادًا طويلًا. وتعاقب جنرالات فرنسا على المجاهدين يرهقونهم بسياسة الأرض المحروقة. قال الجنرال بيجو: «لن تحرثوا الأرض، وإن حرثتموها لن تزرعوها، وإن زرعتموها لن تحصدوها».

ترجَّل الفارس بعد خمسة عشر عامًا فسلَّم سيفه للفرنسيين على أن يكون منفاه دمشق. لكنهم نقضوا العهد، وسجنوه في فرنسا أربعَ سنين، واستقبله بعدها الإمبراطور الجديد (نابليون الثالث)، فأهداه سيفًا وأذن له بالرحيل إلى إستانبول، ومنها توجه إلى دمشق.

كانت للأمير عبد القادر في دمشق مآثرُ مذكورة، فقد أنعش الجو الثقافي بكتبه وأشعاره، وعندما وقعت الفتنة الطائفية في لبنان وامتدت إلى دمشق، وقف يحمي بصدره وبسُمعته المسيحيين، وجعل من بيته في دمشقَ ملاذًا لهم.

وُلد الأمير عبد القادر في ولاية وهران وهي تحت الحكم العثماني، ومات عن ست وسبعين سنة في دمشق، وهي في ظل الدولة العثمانية. مات قبل أن تتحرر الجزائر من الاحتلال الفرنسي بثمانين سنة، ولكن ذكراه ظلت في قلوب الجزائريين: هو طليعة المجاهدين ضد فرنسا وضد الفَرنَسة.

الحجَّاج

قال بعضهم: «لا نحبُّه ولا نسبُّه»، وقال غيرهم: «بل نسبُّه ونلعنه». كان الحجَّاج بن يوسف شخصية خلافية في حياته وبعد موته. وُلد في الطائف موطن عشيرته ثقيف مع مولد الدولة الأموية.

وشبَّ فصيحًا يساعد أباه في تعليم الصبيان. عندما كان الحجَّاج في الرابعة والعشرين من عمره نشأت على مقربة منه في مكة المكرمة دولةٌ ضِرار. ففي مكة أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة. حكم ابن الزبير الحجاز، وسيَّر أخاه مصعبًا إلى العراق فحكمها، ولم يبق لبني أمية سوى الشام ومصر. وبعد سنة تولى الخلافةَ في الشام رجل قوي: هو عبد الملك بنُ مروان. ملَّ الحجَّاج التعليم، وقاده طموحه إلى السياسة. لكنه رمى بنظره بعيدًا، لم يختر مكة القريبة، بل ارتحل إلى الشام، وانضم إلى شرطة عبد

الملك. أصبح قائدًا قاسيًا: رأى رجاله مرةً يأكلون في غير موعد أكل، ودعَوه إلى طعامهم، غير أنه حرَّق عليهم خيمتهم وعاقبهم، فشكاه قائده إلى الخليفة. فأصلح الخليفة بينهما، لكنه أدرك أن بين رجاله مَن يملك قلبًا قويًّا.

مضى عبد الملك إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير واصطحب الحجَّاج. قُتل مصعب وعاد العراق إلى حظيرة الدولة الأموية. لكن عبدَ الله بنَ الزبير ظل في مكة وظل ينادَى بالخلافة في الحجاز. فوجَّه إليه عبد الملك الحجَّاج في جيش. كانت فرصةَ الحجَّاج ليستعمل قسوته. احتمى ابن الزبير بالحرم المكي، فضرب الحجَّاج الكعبة بالمنجنيق، وحاصر الحرم حتى قضى على ابن الزبير وقتله وصلبه. لم يبال بقرابة ابن الزبير من الرسول، ولا بأن أمه هي أسماءُ بنتُ أبي بكر، ذاتُ النطاقين.

فلماذا يمتنع كثيرون عن لعن الحجَّاج؟ ذلك أنه قضى على الانشقاق في الدولة الإسلامية، ومنع ازدواجية الخلافة. قال له عبد الملك في ساعة صفاء: «صِف لي نفسك؟» فقال الحجَّاج: «أنا حقود حسود، ولا أعرف رجلًا أشدَّ مني إقدامًا على الدم».

استقام أمر الخلافة لبني أمية، غير أن الخوارج في العراق كانوا يسببون قلقًا. كانوا محاربين أشداء، ومن لم يكن معهم من أهل العراق كان يتخذ موقفًا وسطًا فلا هو مع الخلافة ولا هو مع الخوارج. وأرسل عبد الملك الحجَّاج إلى العراق واليًا، وبدأ عهده في الكوفة حيث ألقى خطبته المشهورة، فهدد الناس وحملهم على السيف كي يخرجوا معه لقتال الخوارج.

ومات عبد الملك وتولى الخلافةَ ابنه الوليد فازداد تمسكًا بالحجَّاج. مات الحجَّاج عن خمس وخمسين سنة. كان يسفك الدماء لأدنى شبهة، ولكن كثيرين يفضلون النظر إلى الصورة الواسعة فيقولون إنه حفظ على الدولة الإسلامية تماسكها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رؤساء لبنان منذ الاستقلال

بشارة الخوري

تولى بشارة الخوري منصب الرئاسة والفرنسيون ما زالوا يفرضون انتدابهم على لبنان. ثم إنه أصدر قرارات تعزز استقلال البلاد. فاعتقله الفرنسيون مع عدد من الوزراء والكبراء في قلعة راشيا بضعة أيام في عام ١٩٤٣، وقاوم من بقي من الوطنيين الإجراء الفرنسي بتشكيل حكومة بديلة، ولكن فرنسا التي كانت آنذاك تحت الاحتلال الألماني، كانت أضعفَ من أن تستمرَّ في الاعتقال فأفرج عن المعتقلين. ولم يصبح الاستقلال ناجزًا إلا بعد ثلاثِ سنين.

تولى بشارة الخوري الرئاسة تسعَ سنين، حاول بعدها التشبث لكن الشارع أرغمه على ترك المنصب.

كميل شمعون

انتخب للرئاسة كميل شمعون، وفي لبنان البرلمان هو من ينتخب الرئيس. شمعون رجل محنك ويتعامل مع أميركا وفرنسا وإسرائيل بلا موانع، وله مصالحه التجارية. في نهاية عهده حاول التشبث، ولكن في أسوأ ظرف ممكن. كان العراق قد تحول من الملكية إلى الجمهورية، وكانت الجارةُ سوريا قد توحدت مع مصر. كان المدُّ القومي العروبي سيد الموقف، وفي لبنان أيضًا. واشتعل الشارع. وطلب شمعون الدعم الأميركي فنزلت قوات المارينز في الأوزاعي ببيروت. أدرك الأميركيون أن لبنان لن يقترب من المعسكر الشرقي في ظل حربهم الباردة مع الاتحاد السوڤييتي، لكنهم أدركوا أيضًا أن شمعون ليس رجل المرحلة. فسهل مبعوث الرئيس الأميركي آيزنهاور انتخاب بديل ذي وجه عروبي. رفض قائد الجيش فؤاد شهاب أي تدخل للجيش في الأحداث فكان ذلك من حسناته.

فؤاد شهاب

انتخب فؤاد شهاب للرئاسة: العسكري الأول. كان لقاء السقيفة على الحدود اللبنانية السورية بين شهاب وعبد الناصر عنصر تهدئة للمشاعر القومية في لبنان. وداخليًّا انتهج شهاب سياسة الحوار بين الطوائف. عرض بعد سنتين الاستقالة فطُلب إليه أن يُتمَّ فترته. في عهده قويت يد المخابرات والجيش. وعُرض عليه أن يعدِّل الدستور ليبقى في الرئاسة فرفض. مات فؤاد شهاب الرئيس اللبناني الأكثر عروبية، بعد انتهاء رئاسته بتسع سنين. وخلَّف زوجته الفرنسية روز رينيه بواتيو التي عاشت بعده عشرين سنة.

قال الطبيب الذي زارها وهي في مرض الموت إنه دخل أفقر بيت في جونيه، جدرانه مشققة، وليس به مدفئة وذلك في شتاء سنة إحدى وتسعين، وكانت السيدة تتلفع بحرام رقيق. لم ينجب الزوجان. لكن فؤاد شهاب خلَّف ذكرى فريدة.

شارل حلو

دعم شهاب شارل حلو، ففاز بالرئاسة. وتولى السنوات الست المعلومة. في زمنه أصبحت بيروت تدعى باريس الشرق. لكن إفلاس بنك إنترا زعزع ثقة الناس باقتصاد البلاد. ثم جاءت بعده مباشرة حرب الأيام الستة التي لم يكن لبنان طرفًا فيها لكنه تأثر بنتائجها، خاصة بسبب تصاعد النشاط السياسي الفلسطيني. في عهده ازداد الاستقطاب بين القوى القومية بزعامة كمال جنبلاط، والقوى المسيحية بزعامة بيار الجميل وكميل شمعون.

سليمان فرنجية

بدأ فرنجية عهده ووراءه إرث من الزعامة القبلية، فهو لم يتوان في ماضيه عن قتل الخصوم، وكان مدعومًا بميليشيا مسلحة. وأثناء فترة تواريه في سوريا قبل أن ينال العفو، تعرَّف بحافظ ورفعت الأسد. وسيُقدَّر له أن يدعوَ سوريا للتدخل عسكريًّا في لبنان، بعد أشهر من بدء الحرب الأهلية ١٩٧٥. صنع فرنجية ما حاول دونالد ترمب فعله. ترمب حاول بعد خسارته البقاء في البيت الأبيض وفشل، ولكن فرنجية بقي في القصر الرئاسي أربعة أشهر بعد انتخاب الرئيس الجديد. وصف روبرت فيسك فرنجية بأنه من أمراء الحرب وبأنه رجل مافيا غاضبٌ وحاد وشديد الذكاء. لا غرو ففي رئاسته نضجت مكونات الحرب الأهلية التي اندلعت قبل انصرافه. بالحرب الأهلية دخل لبنان عصرًا جديدًا. نتحدث عن الحرب الأهلية اللبنانية قليلًا، لكننا نستعرض رؤساء لبنان في خضمِّها وبعدها.

إلياس سركيس

تولَّى سركيس والحرب الأهلية قد بدأت، وبدأت قوية. الاستقطاب اللبناني كان حادًا. قوى اليسار والقوميون ويدعمهم الوجود الفلسطيني العسكري من جهة، والجبهة اللبنانية وعمودها الفقري الكتائب من جهة أخرى. لم يصنع سركيس شيئًا لأنه كان رئيسًا بلا سلطة. كل السلطة لأمراء الحرب، ولسوريا التي كانت قد رسَّخت وجودها العسكري في لبنان. غزت إسرائيل لبنان بعد سنتين من تولي سركيس، وجدَّدت غزوها في آخر سنة من عهده فوصلت إلى بيروت، وفي هذه السنة ١٩٨٢ أُخرج السلاح الفلسطيني من لبنان مع حامليه. ولكن الوجود الإسرائيلي استمر في شريط حدودي جنوبي.

بشير الجميّل

ترأس لبنان بشيرُ الجميِّل وهو في الخامسة والعشرين. وهو محارب في ميليشيا والده بيار الجميِّل، الكتائب. كان قد شارك في عمليات كثيرة راح ضحيتها مدنيون وعسكريون، ومنهم جنود سوريون. ربما لهذا اغتيل بعد ثلاثة أسابيع من انتخابه. بعد اغتياله وقعت مجزرةُ صبرا وشاتيلا بتعاون إسرائيلي.

أمين الجميّل

بعد بشير الجميِّل تولى الرئاسةَ أخوه الأكبر أمين الجميِّل. كان في لبنان قواتٌ سورية وإسرائيلية. وكانت دول المنطقة، وما وراء المنطقة، تفرغ توترها الاستراتيجي في لبنان. تولى أمين الجميِّل الرئاسة وقد خرج العنصر الفلسطيني المسلح من لبنان، لكن سنواته الست ظلت سنواتِ حرب أهلية. كان أمين الجميِّل من التيار المعتدل في الكتائب، لكنه كان مغلول اليد. في أواخر عهده نصر سمير جعجع على إيلي حبيقة في صراع داخلي في ميليشيا «القوات اللبنانية». وقبل انصرافه عيَّن الجميِّل ميشال عون قائد الجيش على رأس حكومة عسكرية.

مر لبنان بسنة فراغ دستوري وكان ميشال عون وسليم الحص الوجهان البارزان في هذه السنة.

رينيه معوض: ثم تولى رينيه معوض الرئاسة مع إقرار مجلس النواب اتفاقَ الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية. وبعد أسبوعين ويومين اغتيل.

إلياس الهراوي

انتخب إلياس الهراوي رئيسًا. وصمد اتفاق الطائف. انتهى القتال، ولكن الطائفية لم تنته. ولا مشاغبةُ ميشال عون انتهت، بعد جهد كبير أخرج عون، المشتاقُ للرئاسة، من لبنانَ إلى المنفى. تصالح الهراوي مع الطموحات السياسية السورية في لبنان، وقلَّص نفوذ الميليشيات، غير أن حزب الله تمتع بحرية نسبية. وعدَّل الهراوي الدستور ليبقى ثلاث سنوات فوق الستِّ المعهودة.

إميل لحُّود

بدعم سوري تولى إميل لحُّود الرئاسة وظل رجلَ سوريا. كان قائد الجيش فهذا عسكري آخر يرأس لبنان. واعتمد داخليًّا على مساندة حزب الله، الذي شكَّل إزعاجًا مستمرًا للوجود الإسرائيلي في الشريط الحدودي أدى إلى انسحاب إسرائيل. ومُدِّد للحُّود بثلاث سنوات بضغط سوري. في زمنه تولى

رفيق الحريري رئاسة الوزراء أربع سنوات، واستقال لمعارضته التمديد، واغتيل بعد استقالته. وفي أعقاب اغتياله تزايد الضغط على سوريا للخروج عسكريًّا من لبنان فخرجت.

وفي أواخر عهد لحُّود جرت مواجهة عسكرة عنيفة بين حزب الله وإسرائيل عقب اجتياح إسرائيلي فاشل عام ألفين وستة.

بعد لحُّود كان للاستقطاب السياسي اسمان بتاريخين: الثامن من مارس/ آذار، والرابعَ عشرَ من مارس/ آذار. وأدى هذا إلى فراغ دستوري لبضعة أشهر.

ميشال سليمان

جيء بقائد الجيش ميشال سليمان رئيسًا. أزال صورته من الدوائر الرسمية، وسعى إلى الحوار بين الفرقاء. لكن الفرقاء ظلوا يحكمون لبنان، كلًا في منطقته وفي وزارته. وعندما أنهى سليمان سنواتِه الست أعلنها بوضوح: لا للتجديد.

وجاء الفراغ الدستوري الكبير: سنتان ونصفُ السنة، ولبنان بلا رئيس.

ميشال عون

كان ميشال عون قائدًا للجيش ثم عاش منفيًّا في فرنسا سنوات. وبعد جهود مضنية في فترة الفراغ الدستوري فاز بالرئاسة. عقد مجلس النواب خمسًا وأربعين جلسة باطلة غاب عنها النصاب القانوني قبل أن يفلح في انتخاب عون رئيسًا في الجلسة السادسة والأربعين. وما جرى ويجري في رئاسة عون موجود في نشرة الأخبار: انفجارُ مرفأ بيروت سنة عشرين، والأزمةُ المصرفية سنة عشرين وإحدى وعشرين، واثنتين وعشرين([1]).

حسني الزعيم

هذه قطعة صغيرة من تاريخ سوريا، تتمثَّل في رجل.

كان حسني الزعيم في الثانية والخمسين من العمر عندما نفذ أولَ انقلابٍ «ناجح» في العالم العربي، تولى على إثره حكم سوريا. كان ضابطًا مع الجيش الفرنسي الذي يحتل سوريا في الأربعينات ويتبع حكومة فيشي المدعومة من النازيين. وبانتهاء الحرب العالمية الثانية، عام خمسة وأربعين، حُكم عليه بالسَّجن عشر سنوات. ولكن الرئيس السوري شكري القوَّتلي عفا عنه بعد مدة، وأعاده إلى رتبته العسكرية، وهي رتبة زعيم. اسم عائلته

الزعيم ورتبته الزعيم. وبعد هزيمة الجيوش العربية في حرب فلسطين عام ثمانية وأربعين عُين حسني الزعيم قائدًا للجيش.

كان متهورًا جريئًا غضوبًا. هذا الضرب من الكاريزما يحبه العرب، سبحان من خلقهم. في آخر مارس/ آذار من عام تسعة وأربعين انقلب حسني الزعيم على الرئيس القوَّتلي وحبسه، ثم أطلقه فنفى القوَّتلي نفسه إلى الإسكندرية.

عطَّل حسني الزعيم الصحف، وكمَّم الأفواه، ولكن الشعب أيَّد الانقلاب. وأُجريت انتخابات، من النوع المعروف عربيًّا، وترشح الزعيم وحده وصار رئيسًا. وجعل نفسه مارشالًا. كان حسني الزعيم سريع التحرك على الجبهة الخارجية والداخلية: عقد أواصر الصداقة مع الملكِ فاروق في مصر ومع السعودية، وعادى الأردن والعراق اللذين يحكمُهما الهاشميون، وزجَّ الشيوعيين في السجون كي يرضيَ أميركا، ووقع اتفاق الهدنة مع إسرائيلَ الوليدة، أسوةً ببقية دول الطوق. وفي الداخل أقصى العربَ السنة، وقرَّب الأكراد والعلويين في الجيش. وعيَّن محسن البرازي رئيسًا للوزراء وهو مثله كردي الأصل. أغضب حسني الزعيم رجال الدين إذ طرح أجندةً اجتماعية مدنية، منحت -ضمن أمور أخرى- حق التصويت للمرأة.

كان حسني الزعيم يؤمن بوحدة بلاد الهلال الخصيب، وتعاوَنَ معه أنصار الحزب الاجتماعي القومي السوري، ولكنه عندما أحس بدفء الكرسي تحته نبذ فكرة الوحدة.

استولى على كلِّ السلطات في البلد، وأصبح دكتاتورا في غضون أسابيع، مما أحنق رفاقه الانقلابيين. وكان اهتمامه الزائد بأناقته ضغثًا على إبَّالة.

وجاءت القشة الأخيرة عندما التجأ إليه زعيم الحزب القومي السوري أنطون سعادة، فقد كان لبنان يطلب سعادة للقضاء بسبب القلاقل التي يثيرها أنصاره. استضاف الزعيم أنطون سعادة. ثم سرعان ما سلَّمه إلى فريق الإعدام في لبنان.

هذه الغدرة أسقطت حسني الزعيم من أعين الجمهور، وجعلته في أعين رفاقه شخصًا لا يؤمَن جانبه. بعد أربعة أشهر ونصف على انقلاب حسني الزعيم جاء الانقلاب المضاد. انقلب سامي الحناوي على الحكم، وقُتل حسني الزعيم ورئيسُ وزرائه سريعًا، قيل بعد جلسة محاكمة صورية، وقيل بل قتلا فور اعتقالهما.

الخليفة المتوكل

حدثني بعضُ صلحاء الرجال عن الخليفة المتوكل الذي رفَع المحنة عن أهل السنة والجماعة، ومدحه كثيرًا. ظللت ساكتًا لأنني أنأى بنفسي عن الخلافيات. فلم أذكر له أن المتوكل هدم قبور الطالبيين ونكَّل بهم. سألته عن شيء آخر في سيرة المتوكل، قلت له: ذكر المسعودي والثعالبي أن هذا الخليفة الصالح كان يملك أربعة آلاف جارية! هز صاحبي الصالح رأسه. فمن هو حتى يشككَ في المؤرخين القدامى. قلت لصاحبي: «التنوخي يقول إن المتوكل عندما قُتل وهو سكران، خلَّف ثمانيةَ آلافِ جارية ضمن ممتلكاته». سكت صاحبي.

أنا لا أصدق أن الخليفة المتوكل امتلك ثمانية آلاف جارية ولا حتى أربعة آلاف. ربما امتلك مئتين فقط. وهل هناك جريمةٌ أبشعُ من هذه؟ أن تحبس حياةَ مئتي امرأة على شهواتك. العبودية أهون. العبد يعمل وقد يتاح له الزواجُ من أَمَة. وقد يحلمُ بأن ينال الحرية. ولكنَّ الجارية من جواري المتوكل المئتين تعيش كالخروف تأكل وتشرب، وأقصى ما تتوقعُه أن تباع في سوق النخاسة ضمن تركة الخليفة.

لا أفهم الازدواجية الأخلاقية عند بعض الناس.

التاريخ تاريخ. نتناول هنري الثامن الذي كان يُعدم زوجاتِه ببرود، وكذا نتناول المتوكلَ ذا الجواري الكثيرات. لكننا لا ننصب هنري الثامن ولا المتوكل أيقونة أخلاقية لزمننا.

بورقيبة وخلفاؤه

قال الحبيب بورقيبة أولُ رئيس لتونسَ المستقلة: «من حَفنة من غبار القبائل والعروش، كلُّها كانت مستسلمة للخنوع والمذلة، صنعتُ شعبًا وأمة».

جدير بمؤسسة بورقيبة أن تواريَ هذا الاقتباسَ من صفحتها. عبارة «غبار القبائل» اقتبسها بورقيبة عن المندوب الفرنسي المستعمر.

الحبيب بورقيبة سياسي واقعي حصيف نصح العرب بالعقلانية في زمن الحماسة الثورية المملوءة بالجعجعة الفارغة. لكن تونس لم تكن غبار قبائل. و«المجاهد الأكبر» لم يصنع الشعب التونسي. كانت تونس دولة قبل الاحتلال الفرنسي، وكان للباي في تونس بلاط. وشهد بلاطُه خيرَ الدين التونسي أحدَ كبار قادة الإصلاح في الشرق، واستضاف أحمد فارس الشدياق.

بورقيبة مصلح بطريقته. عرف كيف ينتزعُ استقلال تونس خطوة خطوة بمراوغة المحتل الفرنسي. وكان من القلَّة بين الزعماء العرب ممن أتقن العربية وتشبَّع بتراثها، ولكنه رأى في الفرنسية أداة مهمة للنهوض. استبدَّ بالحكم، وبالغ في فرض العَلمانية، ونكَّل بخصومه السياسيين. ناضل

بالطربوش وسجنته فرنسا طويلًا. ثم حكم تونس بدون طربوش ثلاثين سنة. تقييم بورقيبة وعهدِه بموضوعية صعب على غير التوانسة، ومستحيل عليهم. لذا أجدني آخذ اقتباسًا من هنا، ومعلومة من هناك، دون التورط في أحكام كثيرة.

زين العابدين بن علي

في عام سبعة وثمانين عَيَّن بورقيبة زينَ العابدين بن علي رئيسًا للوزراء، وبعد شهر انقلب بن علي على الرئيسِ المسن وألزمه الإقامةَ الجبرية في مدينته المنستير.

استمر بن علي على النهج العلماني لبورقيبة، ولكنه لم يملك تاريخ بورقيبة النضالي، وفتح الباب على مصراعيه للفساد. وقامت على بن علي الثورةُ التي فجَّرت الربيع العربي. وبعد أسابيع، وفي بداية عام ألفين وأحد عشر، حققت الثورةُ الهدف المباشر: هرب زين العابدين بن علي بعد أن حكم تونس ثلاثًا وعشرين سنة. واستضافته السعودية صامتًا حتى الموت.

المنصف المرزوقي

بعد أشهر من سقوط بن علي تولى الرئاسة في تونس المنصف المرزوقي، ودامت رئاسته ثلاث سنوات، كان الشارع خلالها يحكم البلاد. وعندما جرت انتخابات في ديسمبر/ كانون الأول عام أربعة عشر صوَّت الجنوب للمرزوقي، وصوَّت الشمال للباجي قايد السبسي ففاز السبسي في انتخابات الإعادة بخمسة وخمسين بالمئة.

الباجي قايد السّبسي

مع السبسي عادت البورقيبية السياسية إلى تونس، فالسبسي ابن العهد البورقيبي سياسيًّا وفكريًّا. لكن البورقيبيةَ الآن، ليست وحدها في الميدان. فحركةُ النهضة الإسلامية بقيادة راشد الغنوشي تمثل القطب الآخر. وقبل أن يستوفيَ السبسي مدتَه الرئاسيةَ بأشهر توفي.

قيس سعيّد

في الانتخابات التي تلت وفاةَ السبسي فاز قيس سعيِّد باثنين وسبعين بالمئة في الإعادة. كان هذا في أكتوبر/ تشرين الأول عام ألفين وتسعة عشر([2]).

مصطفى رياض

(مصطفى رياض) لي معه مشكلة. اسمه مكون من اسمين، وهما شائعان. ويختلط الأمر عليَّ: أهو مصطفى رياض أم رياض مصطفى. ويختلط اسمه باسم الممثل حسين رياض. ومصر في هذا الشأن أهون من السودان. فأنت في السودان تسير في شارع المشاهير بين أحمد محمد ومحمد أحمد، وقد يتسلل بين الاسمين عثمان. في بلاد الشام هناك اسم عائلي يميز الناس، فعندك القوتلي والشيشكلي والأتاسي. ذكرت أسماء بعض رؤساء سوريا على سبيل المثال.

كلامي هنا هو عن (مصطفى رياض) لا غير. ولا عجب أنه فقد اسم العائلة فأصله غامض. قالوا هو تركي وقالوا بل هو من يهود إزمير. لكنه ابن مصر، وكان رئيسَ وزرائها ثلاث مرات. وكانت له مآثر: وَقَف أرضًا تدرُّ الدخل على دار الكتب عند إنشائها، ورتَّب راتبًا لجمال الدين الأفغاني، وأصلح المحاكم الشرعية.

عرفت فضل مصطفى رياض عندما هجاه أحمد شوقي. ولماذا هجاه؟ لأنه عارض الخديوي. وعرفني بفضله حافظ إبراهيم حين رثاه.

أولًا: الهجاء. وقعت بين المندوب السامي البريطاني وبين الخديوي جفوة، وما كان يمكن للخديوي أن يعتذر، فقدم رئيس الوزراء مصطفى رياض الاعتذار كي يحل الأزمة. فانبرى شاعر الخديوي أحمد شوقي يقول:

كبيرَ السابقين من الكرامِ

بِرُغميَ أن أنالَكَ بِالـمَلامِ

إذا ما لم تكن للقولِ أهلًا

فما لك في المواقفِ والكلامِ

خطبتَ فكنتَ خطْبًا لا خطيبًا

أُضيفَ إلى مصائبنا الجِسامِ

وهل تركت لك السبعون عقلًا

لِعِرفانِ الحلالِ مِن الحرامِ

لَهجتَ بالاحتلالِ وما أتاه

وجُرحُك منه لو أحسستَ دامِ

وما أغناهُ عمَّن قال فيه

وما أغناكَ عن هذا الترامي

ومات مصطفى رياض، فرثاه شوقي رثاء باردًا. ورثاه حافظ إبراهيم، فوصف كيف كان رياض يواجه الخديوي إسماعيل بجرأة، ووصف هيبة مصطفى رياض. قال حافظ:

وقفتَ لإسماعيلَ والأمرُ أمرُه

وفي كفِّه سيفٌ مِن البطشِ يَلمَعُ

إذا صاحَ لبَّاهُ القضاءُ وأسرعت

إلى بابِه الأيامُ، والناسُ خُشَّعُ

وأرهبْتَ حُكَّامَ الأقاليم فارعَوَوْا

وكانوا أُناسًا في الجهالة أَوضَعُوا

فخافوكَ حتى لو تناجَوْا بِنَجْوَة

لخالُوا رياضًا فوقهم يتسمَّعُ

أقمتَ عليهم زاجرًا من نفوسِهم

إذا سَوَّلَت أمرًا لهم قامَ يَردَعُ

لقد عاشت مصر سبعين سنة عجيبة بين عامي ١٨٨٢ و ١٩٥٢. في هذه السنوات السبعين

كان الإنجليز في مصر. وكان في السياسة المصرية قطبان: الدوبارة مقرُ المندوب السامي الإنجليزي، وعابدين قصرُ الخديوي. ولكن لسان الميزان كان عند الحكومة. لهذا اكتسب مصطفى رياض مكانته، وجاء سعد زغلول، وإسماعيل صدقي ومصطفى النحاس، وكان لكل رئيسِ وزراءَ في مصر أثر سياسي مهم. حقق هذا لمصر بيئة سياسية خصبة. من أجل هذه البيئة يحنُّ كثيرون من المصريين إلى العهد الملكي. واليوم: ننظر إلى الرجل الثاني في معظم بلاد العرب فنراه مجرد موظف عند الرجل الأول المستبد. نستثني لبنان ففيه ترويكا الحكم: رئيسُ الجمهورية، ورئيس الحكومة، ورئيس البرلمان. ويوجد بجانبهم آخرون كثيرون، يحكمون أكثر مما الثلاثة يحكمون.

عبد الرحمن الداخل

قامت خلافة بني العباس، وانتهت دولة بني أمية. ولم يكن العباسيون متسامحين مع أمراء بني أمية، بل وضعوا فيهم السيف، ولاحقوا من فرَّ منهم فما ظفروا بأحد من بني أمية إلا قتلوه. وممن فرَّ عبد الرحمن بنُ معاوية بن هشام. ظل متواريًا خمس سنين، ثم وصل إلى بلاد المغرب، وبعث خادمه

يجسُّ له الأندلس. قال خادمه لعِلية القوم: «إن أتاكم رجل من أهل الخلافة، أتبايعونه؟» فقالوا: «نعم». فدخل عبد الرحمن الأندلس، فهو عبد الرحمن «الداخل». وتولى الأمر فيها ثلاثًا وثلاثين سنة.

كانت الخلافة العباسية وطيدةَ الأركان في العراق والشام، وتجدد الحكم الأموي، ثم الخلافة الأموية في الأندلس بعد انهيارها في الشام. وقد لَقَّب الخليفة العباسي المنصور غريمَه عبدَ الرحمن الداخل صقرَ قريش.

يُنسب إلى عبد الرحمن الداخل قولُه:

أيها الراكبُ الميمِّمُ أرضي

أَقْرِ مِن بَعضِيَ السلامَ لِبعضي

إن جسمي كما علمتَ بأرضٍ

وفؤادي ومالكيه بأرضِ

وتقول الرواية إن عبدَ الرحمن الداخل رأى نخلة وحيدة في الأندلس فقال:

تبدت لنا وسْط الرُّصافَة نخلةٌ

تناءَتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النخلِ

فقلتُ شبيهي في التغرُّبِ والنَّوى

وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ

فمثلُك في الإقصاءِ والـمُنْتَأى مِثلي

وزعموا أن كل ما في إسبانيا من شجر النخيل هو بنات تلك النخلة الأولى.

عَمُّ السفَّاح والمنصور

هذه قصة رجل سفَّاك للدم، وأحداثها تقع على الـمَفصِل بين انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية. هذا الرجل هو العم. هو عم السفاح أول خليفة عباسي، وعم أخيه المنصور. زحف عبد الله بنُ علي بجيشه على دمشق، وفيها آخر خلفاء بني أمية. وهذا الخليفة هو مروان بن محمد الذي لقب الحمار لشدة صبره. لقد أسرف خلفاء بني أمية في اللهو والشراب، فلما جاءهم خليفة صبور تقي محارب، كان الوقت متأخرًا على إنقاذ دولتهم.

زحف عبد الله بن علي العباسي على دمشقَ عاصمة الأمويين، وفتحها عَنوة. وسقطت دولة بني أمية. وتولى الخلافة أبِو العباس السفاح في العراق. وظلِ

عمه، وهو سفاح أيضًا، في الشام. وبعد أربع سنين مات السفاح، فدعا العمُّ عبد الله بنُ علي لنفسه وقعد للبيعة فبايعه أهل الشام. لكن الذي تولى الخلافة العباسية بالعراق هو أبو جعفر المنصور. أرسل المنصور جيشًا إلى الشام وتلاقى جيش المنصور وجيش عمه. فانهزم العم وتوارى. وما زال المنصور يطلبه حتى ظفر به.

وكان بينهما عهد مكتوب بأن يحفظ المنصور حياة عمه المتمرد، ولا ينالَه بسوء. أعد المنصور لعمه بيتًا جعل في أساسه الملح. وسكنه العم. وسرعان ما أجرى المنصور الماء على أساس البيت فانهار فقُتل عمه تحت الأنقاض.

في أحد المجالس قال المنصور لجلسائه: «اذكروا لي ملكًا جبارًا قتل ثلاثةً اسمُ كل واحد منهم يبدأ بعبد». فتجرأ أحد جلسائه وقال له: «أنت يا أمير المؤمنين، قتلت أبا مسلم الخراساني واسمه عبد الرحمن، وقتلت عبدَ الجبار الأزدي، وسقط البيت على عمك عبد الله بن علي». فضحك المنصور وقال: «ويحك، سقط البيت وما ذنبي أنا؟»([3])

أبو جعفر المنصور

أبو جعفرٍ المنصور رجلٌ بنى مدينة، وبعد عقدين من الزمان أصبحت أكبرَ مدينة في الدنيا. كان المنصور فصيحًا صاحب فقه وحديث، عاش في صباه وشبابه حياة التواري خوفًا من اضطهاد الأمويين لقومه بني العباس الطامحين إلى الخلافة. وقد بث العباسيون دعاتَهم لنقض الخلافة الأموية، وكان أبرزَ الدعاة أبو مسلم الخراساني. وبجيشه الجرار قضى أبو مسلم على دولة بني أمية، وأصبح في سنوات السفاح الأربع ذا نفوذ كبير في الدولة الوليدة.

بعد أشهر من تولي المنصور الخلافة استدعى أبا مسلم من خراسان استدراجًا. طلب المنصور من الحرس أن يتواروا وراء الستائر، قال لهم: «إذا صفقت بيديَّ فاقتلوه». وأخذ يحقق مع أبي مُسلم في صغائر الأمور، ثم صفق بيديه فقتل الحرس أبا مُسلم. كانت غدرةً أولى باكرة ستتبعها غدرات.

اتخذ العباسيون الكوفة ثم الأنبار قاعدة لملكهم. وفي سنة مئة وخمس وأربعين للهجرة جمع المنصور الفَعَلة في مكان اختاره بنفسه، وبدأوا يبنون بغداد. كان المنصور يشتد على العمال في الحساب بالدرهم وحتى بالدانق -وهو سُدُسُ الدرهم- فلقب بالدوانيقي.

في زمن المنصور بدأت حركة الترجمة. يقول المؤرخون إن المنصور أمر بترجمة كتب الطب اليونانية لأنه كان يشكو معدته، كان ممعودًا. دامت خلافة المنصور إحدى وعشرين سنة، وضع فيها أساسًا مكينًا لدولة ستعيش خمسة قرون راجحة هي الدولة العباسية. ولا شك في أن المنصور كان سيغتاظ جدًّا

لو سمع المعاصرين وهم يصفون بغداد التي بناها بأنها عاصمةُ الرشيد. ولكن بغداد في زمن حفيده الرشيد كانت حقًّا عاصمة الدنيا. كانت فعلا أكبر مدينة في العالم إذا بلغ عدد سكانها قرابة المليون.

عماد عفّت

في ميدان التحرير القاهرة، في تلك الأيام الثمانيةَ عشَر التي أطاحت بمبارك، حضر هشام هيليار وهو أكاديمي إنجليزي مصري كان يقضي إجازة سبتية في القاهرة. هشام هليار أبوه إنجليزي وأمه مصرية. نسمعه يحدثنا عن عماد عفت شهيدِ الثورة المصرية:

المرة الأولى التي دخلت فيها ميدان التحرير هي المرة الأولى التي رأيت فيها مصر. وفي كل مرة أقول هذه الكلمات أشعر بوخز في ظاهر رقبتي. هذا المكان، ميدان التحرير، في ذلك الوقت، كان المكان الذي ترى فيها أحسنَ المصريين في موضع واحد. هناك تجد الاحترام، واللباقة، والشهامة والاحترام والشجاعة والتضحية، والنظافة أيضًا. وكان الشيخ عماد عفت في التحرير. وظل مع الثورة حتى قتلته رصاصة من أحد فلول النظام.

الشيخ عماد عفت شاعر ومحب للفنون ويحضر الأمسيات، ويغني مع شباب الثورة أغنيات فرقة اسكندريلّا التي أحيت تراث الشيخ إمام وسيد درويش، وهو رجل علم وبحث. كان في شبابه يريد أن يدرس على الشيخ عبد الجليل القرنشاوي، فقال له الشيخ: «وأين لي الوقت؟» أنا أقضي ساعاتي في المواصلات! فكان عماد عفّت يرافق شيخه في المواصلات قارئًا عليه مستفيدًا من علمه.

نعود إلى الأستاذ الجامعي هليار الذي سمعته وهو يلقي حديثه في طلبة جامعة أكسفورد في بريطانيا. يقول إنه رأى النسوية المعروفة نوال السعداوي، وبجانبها مشايخُ الأزهر، وغيرَ بعيد وقف شباب ناصريون. كل هؤلاء كانوا يتناقشون بلا خصومة. الهدف واحد: أن تكون مصرُ أفضل. هذا الحلم تجسد في تلك الأيام التي لن تنساها مصر. وقد كتب الدكتور هليار كتابًا عن الثورة المصرية ومصيرها المؤلم.

في أيام الثورة المصرية كنت في ألمانيا، ورأيت محطات التلفزة تقطع برامجها في وقت الذروة لتنقل الحدث الكبير. كل العالم وقف يشاهد مصر تنهض. ثم أصبحت الثورة ذكرى. غير أنها تركت في النفوس شيئًا لا يمكن أن يزول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زعماؤهم

من لويد جورج إلى تشرتشل

في عام ١٩٢٢ ودَّعت بريطانيا آخر رئيس وزراء من حزب الأحرار. ومنذ ذلك الحين فرئيس الوزراء إما من المحافظين وإما من العمال. هذا نظام الحزبين بصورته الكاملة.

لويد جورج

كانت لغتُه الأولى الويلزية. لم يتولَّ المنصب شخص من ويلز سواه، حتى اليوم. وكان نيل كينوك قاب قوسين. خاض لويد جورج، وهو من حزب الأحرار، الحرب العالمية الأولى وتقاسم العالَم مع كليمنصو الفرنسي. كان صهيونيَّ الهوى، وفي زمنه صدر وعد بلفور، وعُقدت معاهدة سايكس بيكو.

بونار لو

هذا الاسكتلندي كان رئيس وزراء أقلَّ من سنة، ومرض واستقال. من حزب المحافظين.

ستانلي بولدوين

(تولى ثلاث فترات بمجموع سبع سنين بين ١٩٢٣ – ١٩٣٧): كان ستانلي بولدوين الشخصية البريطانية الأهم بين الحربين العالميتين. من المحافظين.

رامزي مكدونالد

(تولى فترتين مجموعهما سبع سنين، بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥): كان باكورة حزب العمال، وكان شارك في تأسيسه قبل أربع وعشرين سنة. كان رامزي مكدونالد يحمل في جيبه، كما قيل، وثيقة ميلاده التي تقول إنه طفل غير شرعي، وكان يواجه بها كل من يلمزه من هذا الجانب. كانت أمه خادمة منازل. ما كان يمكن أن يتولى شخص فقير رئاسة الوزراء في العصور الماضية، بريطانيا شهدت مع حزب العمال تحولًا كبيرًا.

توفيت زوجة مكدونالد وخلَّفت له خمسة، ولم يتزوج. كانت ابنته الكبرى إيشبل سيدة المنزل في عشرة داوننغ ستريت، وكانت شديدة التقتير في المأكل والملبس، حتى إن أختيها الصغيرتين كانتا تذهبان إلى المدرسة البعيدة مشيًا لتوفير أجرة الحافلة.

نيقيل تشمبرلين (١٩٣٧ - ١٩٤٠)

عاد المحافظون إلى الحكم مع تشمبرلين. ومع تصاعد الأطماع الألمانية في الزمن النازي ذهب تشمبرلين إلى ميونخ واجتمع بهتلر الذي كان قد احتل النمسا قبل أشهر، ووقع معه وثيقة فيها تفاهم ضمني بأن تقتطع ألمانيا قطعة من بلاد التشيك. عاد تشمبرلين يلوح بالورقة أمام مستقبِليه في لندن. ظن أنه تجنب الصراع بإرضاء هتلر. واحتل هتلر تشيكوسلوفاكيا، ثم بسرعة ألحق بها بولندا. فقامت الحرب العالمية الثانية.

ونستون تشرتشل (١٩٤٠- ١٩٤٥) (١٩٥١ - ١٩٥٥)

بسرعة انقلب حزب المحافظين على زعيمه تشمبرلين واختار ونستون تشرتشل المعادي لنهج إرضاء ألمانيا. ألقى تشرتشل خطبة في مجلس العموم فور تشكيل حكومة الحرب، خطبةً هادئة حافلة بالرسميات وتفاصيل التشكيل الحكومي، ثم جاءت العبارة المشهورة: «ليس عندي ما أقدمه سوى الدم والتعب والدموع والعرق. نحن بإزاء كارثة ماحقة، أمامنا شهور وشهور من الصراع والمعاناة. تسألون ما سياستنا؟ أقول: هي شن الحرب في البحر وعلى الأرض وفي الجو».

وبعد هذه الخطبة بأيام كان ثلثُ مليون جندي بريطاني وفرنسي يغادرون الشاطئ الفرنسي عند دنكرك أمام جحافل هتلر هاربين باتجاه بريطانيا.

كان هتلر قد احتل فرنسا واحتل في طريقه هولندا وبلجيكا. وبدأ يُطبق على القوات الفرنسية والبريطانية التي تجمعت عند الشاطئ. كان الإخلاء شبهَ معجزة. هبَّت سفن الأسطول البريطاني، كما لم يبق قارب صيد إلا توجه إلى دنكرك. وسيطر هتلر على أوروبا. وبعد إخلاء دنكرك بأيام قام تشرتشل عن مقعده في مجلس العموم، وقال: «سنمضي حتى النهاية. سنحارب في فرنسا، في البحار والمحيطات، سنحارب بقوة متعاظمة وثقة متعاظمة في الجو. سندافع عن جزيرتنا مهما كلَّف الأمر. سنحارب على الشواطئ والسواحل والحقول والشوارع والتلال، لن نستسلم».

ولماذا نستعرض بهذا التفصيل حدثًا كان مجرد لحظة في حرب عالمية مات فيها ثمانون مليونَ إنسان؟ موقف تشرتشل الصلب أثَّر في سير التاريخ. لقد تقلَّب تشرتشل في المناصب الوزارية ثلاثًا وعشرين سنة. وفي السادسة والستين من عمره كانت مواقفه تؤهله لأن يكون رجل اللحظة، وفي النهاية انتصر. ماذا كنا نقول لو أنه انهزم؟ ربما كنا سنغير كلامنا. غير أنه وقف وقفة شجاعة.

كان تشرتشل استعماريًّا لا يكاد يَذكر بلاده إلا مع صفة الإمبراطورية. ولم يتنبأ بأن هذه الإمبراطورية سوف تتفكك في فترة حكمه الثانية.

الطريف أن الانتخابات في بريطانيا جاءت بعد أسابيع من الانتصار الساحق. ونام تشرتشل مطمئن البال. نام منتصرًا فائزًا. وصحا على هزيمة انتخابية وُصفت بالزلزال. (٣٣٩ مقعدًا للعمال، و١٩٧ للمحافظين، حزب تشرتشل).

كلمنت أَتلي

جاء بعد تشرشل إلى رئاسة الوزراء العمَّالي ذو الشخصية الباهتة كلمنت أتلي. نُقل عن تشرتشل قولُه: «وقفت سيارة فارغة أمام عشرة داوننغ ستريت –مقر رئاسة الوزراء-، ونزل منها كلمنت أتلي». لكن أتلي كان رجل سياسة محنكًا. ذات يوم دخل عليه في مكتبه أحد أعوانه، وقال له: «فلان يتحدث في المجالس بأنه يريد أن يتحداك على المنصب». لم يقل أتلي كلمة، بل رفع سماعة الهاتف وطلب ذلك الشخص. سأله: «هل تريد أن تتحداني على المنصب؟» وبسرعة قال الآخر: «لا». قال له: «شكرًا»، وأقفل الخط. ولم يجرؤ الخصم على التحدي.

عودةٌ إلى تشرتشل

لقد عاد إلى المنصب مرة أخرى بعد بضع سنين. ونال جائزة نوبل. لجنة نوبل احترمت نفسها ولم تعطه جائزة السلام، بل جائزة الأدب. وجائزة نوبل شأن سياسي. الغرب يريد أن يمنحها لتشرتشل، فلتكن في الأدب. ولتكن على كتابه تاريخ الشعوب الناطقة بالإنجليزية. فلماذا كتب هذا البريطاني عن الشعوب الناطقة بالإنجليزية وعمم هذا التعميم؟ بعض السبب أن أمه أميركية.

تزوجها أبوه (اللورد راندولف تشرتشل) في زمن كان فيه المال الكثير بأيدي رجال الأعمال الأميركيين، بينما لوردات الإنجليز يملكون الأراضي ولا يملكون السيولة المالية. فكان كثيرون من أغنياء أميركا يزوِّجون بناتهم من أبناء لوردات الإنجليز طلبًا للصيت، وأبناء اللوردات يتزوجون الأميركيات الثريات طلبًا للسيولة. مات تشرتشل ابن الأميركية عن إحدى وتسعين سنة.

مارغريت ثاتشر

الرجال والنساء على مسرح السياسة أحجار شِطرنجٍ على الرُقعة. كلٌّ يؤدي دوره، يأكل ثم يؤكل. ونادرًا ما ينهي كبير القوم دورَه بنفسه. في الغالب يُعزل أو يقتل، أو تفرضُ عليه الإقامةُ الجبرية. وقليلون ماتوا على الكرسي.

أنغيلا ميركل أنهت دورها بنفسها بعد ستَّ عشرةَ سنة في منصب المستشار، أعلى منصب سياسي في ألمانيا. كانت سياسية من الطراز الرفيع، وكانت حاسمة في توزيع الأدوار وفي إنهاء الأدوار. كانت تصنع ذلك بيد من حديد مغلفة بقَفاز من حرير.

وقبلها حكمت بريطانيا المرأة الحديدية، مارغريت ثاتشر. كانت عنيدة، وصارمة. كانت تنهي أدوار الآخرين بيد من حديد مغلفة بقفاز من فولاذ. وتحدَّاها من داخل حزبها مايكل هزلتاين. وتغلبت عليه. ودحرجت وزير خزانتها جفري هاو، إلى وزارة الخارجية، ثم إلى منصب أدنى هو نائب رئيسة الوزراء.

بالغت ثاتشر في المماحكات مع الاتحاد الأوروبي، وفرضت ضريبة جديدة تحابي الأغنياء، وخرجت المظاهرات الحاشدة ضدها، وأسرعت كرة الثلج في تدحرجها. قدم جفري هاو استقالته، وبحسب الأصول كان من حقه أن يدليَ بأسبابه في مجلس العموم. وقف هاو وقال إنه حضر مع ثاتشر نحوًا من سبعمئة اجتماع بخلاف المؤتمرات الخارجية. وقال إن طريق التغيير من الداخل أصبح مسدودًا. وإن ثاتشر تكسِّر مجاذيف وزرائها.

كنت أعيش في بريطانيا في ذلك الزمن. بعد ثلاثة أسابيع من الخطاب الناري لجفري هاو، الذي ألقاه بكل هدوء، توجه كبار حزب المحافظين -ويسمونهم في الصحافة «البدلات الرمادية»- إلى ثاتشر، وقالوا لها: «لمصلحة الحزب، عليكِ التنحِّي».

ورحلت المرأة الحديدة عن عشرة داوننغ ستريت مقرِّ رئاسة الوزراء دامعة العينين بصحبة زوجها دينيس، بعد إحدى عشرة سنة في رئاسة الوزراء. كان هذا في خريف عام ١٩٩٠.

سنعود في فصل لاحق لنقصَّ بعض قصص ملوك بريطانيا.

شيشرون

قلَّما تجتمع البلاغة والحكمة والمنصبُ السياسي في شخص. كان ماركوس شيشرون المولودُ قبل الميلاد بقرن رجل دولة في زمن يوليوس قيصر، وكان خطيبًا مفوهًا وحكيمًا. وكان رجلًا حرًّا. استوعب حكمة الإغريق وزود اللغة اللاتينية بأدب وحكمة. عاش في عصر الجمهورية في روما، وكان من أنصار إدامة الجمهورية، فوقف معارضًا يوليوس قيصر. وقُتل قيصر، فعادى شيشرون ماركوس أنطونيوس ذا التطلعات الإمبراطورية. فقُبض عليه وقطعت يداه ورأسُه.

بعد موته بألف وأربعمئة سنة ألهَم شيشرون بكتبه ومواقفه النهضة الأوروبية. قيل: «عصر النهضة هو قبل كل شيء إحياءُ تراث شيشرون». وفي عصر

التنوير كان شيشرون الأب الفكري لمونتيسكيو وجون لوك وديڤيد هيوم. قال ماركوس شيشرون:

• ما زال البشر يكررون الأخطاء عينها عبر القرون: نجاحي يتم بتدمير الآخر، أقلقُ وأتوتر على أمر لا سبيل إلى تغييره، أعُدُّ الأمر مستحيلًا فقط لأنني عجزت عنه، أتجاهل تطوير تفكيري، أحاول حمل الآخرين على التفكير والعيش بطريقتي.

• الأمة تتعايش مع الحمقى، وحتى مع الطموحين.. لكن، لا حياة لها مع الخونة.

• لا تلوموا قيصر، بل لوموا أهل روما الذين رقصوا فرحين وهو يسلبهم حريتهم.

• لم توجد قطُّ حكومة إلا وفيها الكاذب واللص والمخرب.

• ما يفعله المجتمع بالأطفال سيفعله الأطفال بالمجتمع.

• جهلك التاريخ معناه أن تظل طفلًا في تفكيرك.

• لم أصادف موظفًا إلا كان مملًا أو تافهًا أو متحايلًا، أو غبيًّا أو مضطهدًا للناس، أو سارقًا، أو يتصرف بسلطته كطفل يملك كلبًا شرسًا.

هذا قبل الميلاد بمئة سنة. والآن بعد الميلاد بألفي سنة تقف أمام موظف الجوازات في المطار وقفة التلميذ أمام ناظر المدرسة، تقدم جوازك بأدب، وتراه مزهوًا بسلطته، يأمرك بأن تنظر في العدسة، وربما يصدر أمره بإشارة من إصبعه، فمن أنت حتى يكلمك! ثم تغلط الغلطة الكبيرة وتطلب من هذا الديك أن لا يختم الجواز على ورقة فارغة لأن جوازك لم يعد فيه صفحات كثيرة. ثق عندئذ بأنه سيقلب الصفحات حتى يجد صفحة فارغة فيدمغَها في وسطها بختمه. أمام موظف الجوازات، وأمام كل موظف عليك أنت تأخذ بقول شيشرون الآخر: «الصمت أحدُ أهم فنون المحادثة». وقال شيشرون:

• الحكماء دليلهم العقل، والبسطاء يهتدون بتجاربهم، والحمقى تقودهم الضرورة، والجبابرة تقودهم الغريزة.

• أفٍّ لهذا الزمن.. الأطفال لا يطيعون آباءهم، وكل إنسان صار يكتب الكتب.

• الصديق يضاعف فرحنا، ويحمل نصف همومنا.

• قوانينُ أكثر.. عدالةٌ أقل.

• إن ملكت حديقة ومكتبة فعندك كلُ شيء.

• حتى في الفردوس لن تسعد بدون شريك يقاسمك الفرح.

• لا يجوز للأغلبية أن تملك سلطة كاملة.

• الشكر رأس الفضائل.

• الأخلاق منحدرة لأننا نعبد الذهب.

• سلطة المعلِّم عائق أمام المتعلِّم.

• المعرفة الخرساء خير من الجهل الفصيح.

• بالشكِّ نصل إلى الحقيقة.

• صعبٌ على الفضلاء تصورُ وجودِ خسة في الآخرين.

• منحتنا الطبيعة الحياة على سبيل الدَّين، ولم تحدد موعد السداد.

• أعداؤك قد يقتلونك، لكنَّ من بوسعه أن يؤذيَك هو الأصدقاء.

• المباح ليس بالضرورة مشرفًا.

• إذا كان الأمر واضحًا فالبلاغة حشو.

• لا تجرح صديقك.. ولو بالمزاح.

• لا صداقة في السياسة.

• القائد الفعال كان ذات يوم مرؤوسًا مطيعًا.

• بعد الانتصار يكثر الأعداء.

• وقال ماركوس شيشرون: «خير طريقة لانتقاد الآخرين أن تفعل ما هو صحيح، لا أن تكشف أخطاءهم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الديماغوجية مجسّدة

لندع جانبًا تفكُّه بعض المتحذلقين بكلمة ديماغوجي. الديماغوجية مصطلح في علم الاجتماع والسياسة. الكلمة يونانية ومعناها «قائد الرعاع».

أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥)

من أكبر الديماغوجيين، نعم، كان أنيس المعشر إذ يُرى بصحبة خليلته إيڤا براون. فإذا ما صعد المنبر تدفقت من بين شفتيه الأكاذيب والوعود، والاعتزازُ الخائب بالعرق الآري. كان بهذا يثير الجماهير ويتحدث إلى غرائزهم الدنيئة. ولنضحك على أنفسنا قليلًا: لنذكر أن كثيرين من حمقى العرب يعجبهم هتلر. يحبون الرجل القوي. حبَّتهم القرادة. هذا الهتلر حول ملايين الألمان إلى جثث، وملايين الألمانيات بعد هزيمته المذلة إلى فتيات شارع يلتمسن القوت من جنود الحلفاء ويقدمن أنفسهن مقابل ألواح الشوكولاطة.

لقد اتخذ منذ بدايات حركته النازية الق بيحة ميليشيا القمصان البنية «شتورم أبتايلونغ» ومعنى اسمِها «فصيلُ الانقضاض»، وكانت مهمة هؤلاء الرعاع أن يخربوا الاجتماعات الحزبيةَ للآخرين.

وكأني بك تقول: «أوليس في العرب ديماغوجيون؟» والجواب: «بلى». ولأنني لا أريد التعرض لمن يحكمون في زمننا هذا فلآخذ مثالًا على حاكم غير ديماغوجي، لكنه وقع في بعض المزالق الديماغوجية.

الملك حسين (١٩٣٥ - ١٩٩٩)

ملك محنَّك تجنب الوحشية المفرطة، وكان واقعيًّا في فعله وفي خطاباته. غير أنه قال لنا – بُعيد احتلال إسرائيل لبلدنا في يونيو/حزيران عام سبعة وستين: «قاتلوهم بأظافركم وأسنانكم». وكان جيشه قد انسحب أمام جيش الاحتلال. وقبل الهزيمة بسنوات كانت الإذاعة الأردنية تبثُّ كل يوم أغنية «البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي» لرجاء عبده، ولماذا؟ لأن والدَ عبد الناصر كان يعمل في مصلحة البريد.

وبدوره تهكم عبد الناصر بالملك حسين في خطاب له مسميًا إياه حسين بن زين باسم أمه زين الشرف. وكانت امرأة ذات حنكة وتدخل. هذا لإثارة الجماهير. وكانت في عبد الناصر شعبوية تقترب من الديماغوجية.

ونتذكر أن الرجلين التقيا كأحسن ما يكون اللقاء وعقدا معاهدة دفاع مشترك عام سبعة وستين، ونجَّرا لنا الخازوق.

وفي الساحة الفلسطينية يتميز الزعماء بطول البقاء. عندما قامت الثورة في ليبيا، قال السيد نايف حواتمة (١٩٣٥ -) الأمينُ العام للجبهة الديمقراطية الفلسطينية: «ليس معقولًا أن يبقى معمَّر القذافي في الحكم أربعين سنة». في تلك السنة كانت قد مرَّت على تولي نايف حواتمة القيادة في جبهته أربعون سنة. لقد تولى قبل القذافي بسبعة أشهر. واليوم مضت على الرجل إحدى وخمسون سنة. اللهم لا حسد.

وبما أن الشيء يُعرف بضده سأتناول أقل شخص ديماغوجية في العالم.

أنغيلا ميركل (١٩٥٤ -)

وقفت ميركل ضد التيار وفتحت الباب لإخواننا السوريين. سمعتُ خطابها بمناسبة السنة الجديدة -ربما عام خمسة عشر- ورأيتها توضح لشعبها - بلا أي انفعال - منفعة استضافة مليون سوري. هذا أمر نافع لألمانيا، هذا دم جديد في شرايين الاقتصاد الألماني، وهذه قضية إنسانية يفرضها القانون الدولي. تذمَّر الألمان ثم احتجُّوا ولا سيما بعد وقوع أحداث فردية من بعض الأجانب. وثبتت ميركل على موقفها.

بين أنغيلا ميركل ودونالد ترمب -الذي رفض مصافحتها رغم صرخات الصحفيين المطالبين بتصوير مصافحة- صحراء من الفرق: هنا قائد الرعاع الديماغوجي، وهناك الزعيمة التي وظفها شعبها لخدمته.

الشاذّ بينهم

نتحدث عن خمسة مشاهير، ونبحث عن الشخصية الشاذة بينهم. كلهم يشتركون في شيء، عدا واحدًا. وبالمناسبة: هناك أكثر من جواب. لنبدأ:

لاري كينغ

هذا سيد السؤال القصير، هو المذيع الذي لا يتفاصح، ولا يسبق ضيفه إلى معلومة. ولا يقفز على ضيفه تلك القفزة الساذجة قائلًا: «هذا بالضبط ما كنت سأسألك عنه». مذيع لا يتباهى عملة نادرة. قال لاري كينغ: «أقول لنفسي كل صباح: يا هذا، لن تتعلم أي شيء اليوم مما ستقوله. ولكنك يجب أن تتعلم. إذن أصغِ». عندما بلغ الثمانين قال لاري كينغ: «قد بلغت الثمانين، وللآن لا أعرف ماذا سأصبح عندما أكبر». توفي لاري كينغ عام ٢٠٢١.

المهاتما غاندي

لم يكن رئيسًا ولا صاحبَ منصب. قاد الهند إلى الاستقلال بقوة مبادئه. قاطع منتجات المستعمِر البريطاني. عندما زار لندن للتباحث، اصطحب معه عنزًا كي يشرب من لبنها، وظل يرتدي شملته المشهورة. وهو صاحب فلسفة اللّاعنف «أهيمسا»، وفلسفة الصدق والإصرار «ساتياغراها». قال غاندي: «لو شمِل مبدأُ العين بالعين العالم لأصبحنا جميعًا من العميان». وقال: «الضعفاء لا يسامحون، الأقوياء هم القادرون على المسامحة». مات غاندي عام ١٩٤٨.

أبراهام لنكولن

رئيس أميركي حكم فترة واحدة، شهرته أنه خاض حربًا أهلية ضد الولايات الجنوبية المتمسكة بالعبودية، وانتصر، وتحرر العبيد من العبودية المباشرة. قال لنكولن: «مهمة الكتب أن تجعلنا نعرف أن الأفكار الرائعة التي تكونت لدينا ليست جديدة». وقال: «كلما رأيتُ أحدًا يدافع عن العبوديِّة، تمنيت أن أراه يقع في ربقتها»، وقال لنكولن: «أفضل طريقة تمكِّنك من التنبؤ بمستقبلك أن تصنعه بنفسك». مات لنكولن عام ١٨٦٥.

يوليوس قيصر

هذا القائدُ الروماني مات قبل الميلاد بأربع وأربعين سنة. كان يقود حملة مظفرة في فرنسا فأمره مجلس الشيوخ بالعودة إلى روما. فعرف أن أعداءه سيعقدون له محاكمة بسبب تجاوزاته. فعبر نهر الروبيكون بقواته، وخاض حربًا أهلية انتصر فيها وأصبح الحاكم، وأجرى إصلاحات واسعة أغضبت المترفين. وأعلن نفسه دكتاتورًا مدى الحياة. قال يوليوس قيصر: «الممارسة هي المعلم الأول»، وقال: «أفضِّل أن أكون الأول في قرية على أن أكون الثاني في روما»، وقال: «خير موت هو موت الفجاءة». وهكذا كان فقد اغتاله صحبُه في مجلس الشيوخ ومنهم كاسيوس وبروتوس. فهل قال قيصر وهو يجود بنفسه: «حتى أنت يا بروتوس!»، هذه من اختراع شكسبير. أحد المؤرخين القدماء قال إن قيصر قال: «وأنت أيها الصبي!».

جون كيندي

أصغر رئيس أميركي. تولى الرئاسة وهو في الثالثة والأربعين، ودعم حركة السود المطالبين بالحريات بعضَ الدعم. وغزا كوبا غزوة فاشلة. أحبه الناس لشبابه، واشتهرت زوجته الحسناء جاكلين. حكم ثلاث سنين تنقص شهرين. ومن أقواله: «لا تفكر فيما يقدمه الوطن لك، بل فيما تقدمه أنت للوطن»، وقال: «كلما زادت معرفتك ازداد وعيك بجهلك»، وقال: «النصر له آباء كثر، والهزيمة يتيمة».

فمن الشاذ بين هؤلاء المشاهير؟ قد تختار غاندي لأنه الوحيد الأصلع. فها إني أخبرك بأن يوليوس قيصر كان أصلع. ولعلك تقول غاندي وحده من الهند، والبقية من غير الهند. هذا ينطبق أيضًا على قيصر فهو الروماني الوحيد. ومن هو الإعلامي الوحيد بينهم؟ هو لاري كينغ. جواب جيد. لكن فكر في طريقة الوفاة. كلهم ماتوا اغتيالًا، ولاري كينغ مات على فراشه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصارع المشاهير

نحدِّثكم عن بعض المشاهير وكيف ماتوا؟

كارونداس

رجل قانون يوناني عاش في صقلِّية. وضع قانونًا بأن كل من يدخل مجلس المشرعين ومعه سلاح يجب أن يقتل به. ذات مرة هجم الأعداء، فأسرع كارونداس بالدخول إلى المجلس لتحذير الأعضاء. ونسي أن يترك سيفه في الخارج. وكي يؤكد على قانونه، خرج وقتل نفسه بسيفه.

كين شي هوانغ

في عام أربعة وسبعين جاءنا خبر اكتشاف أثري في الصين. اكتشفوا ثمانية آلاف تمثال لجنود كانت مدفونة. كان الإمبراطور الصيني كين شي هوانغ قد أمر بنحت تماثيل هؤلاء الجنود كي يقوموا على حمايته بعد الموت. الطريف أن الإمبراطور حاول أن يطيل حياته في الدنيا، فتناول أقراصًا من الزئبق، وبها مات.

المستعصم بالله

مات آخر خلفاء بني العباس على يد المغول، لفُّوه بسجادة، وداسته الخيل. وقبله بقرون قتل الجند المسلمون الخليفة الشاعر عبدَ الله بنَ المعتز بطريقة مشابهة.

جان بابتيست موليير

الكاتب والممثل المسرحي الفرنسي كان يمثل دورًا في آخر مسرحياته. وفاجأته نوبة صدرية، فأخذ يتلوى ويُظهر أن ذلك جزءٌ من المشهد. في تلك المسرحية يموت البطل جالسًا على كرسي. وجلس موليير على كرسي. وما إن أسدل الستار حتى حُمل وهو على كرسيه إلى بيته حيث مات.

غريغوري راسبوتين

هذا هو الراهب الروسي الذي فتن نساء القياصرة. يحدثنا عنه الأمير فلكس يوسوبوف. شرب راسبوتين الشاي الذي وُضع له فيه سمُّ السيانيد، ولم يبدُ عليه تأثر. أطلق عليه يوسوبوف النار فأصابه في صدره، وظنه قد مات. وبعد هنيهة قفز راسبوتين كالنمر فهرب يوسوبوف. فلحقه راسبوتين إلى الباحة،

فأطلق الأمير عليه الرصاص مرة أخرى، فظل راسبوتين يختلج، فحمله أصحاب الأمير ورموه في نهر نيفا فمات غرقًا.

يوسف إسماعيل

هذا مصارع تركي عثماني ذهب إلى أميركا، وأطاح بأبطال المصارعة في الحلَبات، وذاع صيته وسموه التركي المرعب. لقد وفّر ثمانية آلاف دولار -في ذلك الزمن قبل مئة وثلاث وعشرين سنة كانت ثروة كبيرة- وحولها إلى قطع ذهبية وضعها في حزامه. وركب السفينة عائدًا. وبدأت السفينة تغرق، وأُعدَّت قوارب النجاة، نزل يوسف إسماعيل إلى الماء وسبح باتجاه قارب النجاة، ولكن الذهب الذي انتطق به شده إلى الأعماق.

اللورد فرانسيس بيكون

كان وزير الخزانة في إنجلترا وكان رجل فلسفة وعلم. كانت مركبته تقطع حي «هاي غيت» بلندن وسط الثلوج المتراكمة. خطرت له فكرة: هل يمكن للتجميد أن يؤخر الموت؟ فنزل لفوره وقصد بيت سيدة تربي الدجاج. اشترى دجاجة وأمرَّ السكين على عنقها بحيث لا تموت فورًا، وجاء بالثلج بسرعة يغطيها به من كل ناحية. وقال في نفسه نكشف الثلج عنها بعد ساعات ونرى إن كانت احتفظت برمقها. التجربة لم تكتمل، فبيكون أُصيب بنزلة حادة، وحُمل إلى بيتٍ قريب وبقي في السرير يومين ومات، شهيدَ العلم التجريبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحشية الملوك

هنري الثامن

نبدأ القصة قبل خمسمئة عام، مع هنري الثامن الذي مَلَك إنجلترا ثمانيَ وثلاثين سنة.

وهؤلاء زوجاته الست: الأولى كاثرين الأراغونية، طلَّقَها. ولهذا الطلاق قصة، وستأتي. الثانية آن بولين، أعدمها. الثالثة جين سيمور. الرابعة آن الكليفية طلَّقَها، الخامسة كاثرين هوارد أعدمها. السادسة كاثرين پار كاد أن يعدمها لكنها نجت، وعاشت بعده.

عندما أراد هنري تطليق الزوجة الأولى قال له وزيره توماس مور إن في الأمر خروجًا عن العقيدة. كانت إنجلترا كاثوليكية. فأطاح الملك بالكنيسة الكاثوليكية، وصادر أموالها وعقاراتِها. وأطاح برأس وزيره.

توماس مور

ودَّع الوزير العابدُ الزاهد ابنته وسيق إلى حتفه. قُطع رأسه وسُلق سلقًا خفيفًا، ثم أُنشب فيه عود وعُلق. قدمت ابنته البارة مارغريت روپر، وكانت كاتبة مثقفة، رشوة للحارس، فأَنزل لها الرأس من على العود فأخذته وحفظته بالتوابل، فنمَّ عليها الجواسيس فسجنت ثم أطلقت، ثم عندما ماتت دفن الرأس معها. استُخرج الرأس في القرن التاسع عشر وعُرض في كاتدرائية كانتربري سنين طوالًا. ومرَّت على مأساة الوزير توماس مور، وهو اليوم قديس عند الكاثوليك، مئة سنة وجاء الدور على ملك.

تشارلز الأول

أُعدم هذا الملك البريطاني عام ١٦٤٩، ولماذا نذكر التاريخ؟ لأنه مهم فعنده تحولت بريطانيا إلى جمهورية لسنوات عشر. بعد نحو مئتي سنة من إعدام الملك فتح القبر وأجرى الجراح الملكي فحصًا لحال الجثة، وسرق فقرة من العمود الفقري للملك تشارلز، وضعها في ماء وملح، وكان يُريها لزوَّاره. سمعت الملكة ڤكتوريا بالأمر فأمرت بردِّ الفقرة إلى القبر. كرومويل الذي أعدم الملك تشارلز نفذ بريشه فمات على فراشه. مات كرومويل عام ١٦٥٨.

كرومويل

بعد موت كرومويل بقليل أعيدت الملكية إلى بريطانيا. وبالطبع نبشوا قبره. رفع رأس كرومويل على قصبة في لندن أربعًا وعشرين سنة، ثم أطاحت به

عاصفة فسرقه الحارس ووضعه في مِدخنة بيته. وظل الراس يتنقَّل بين الأيدي حتى دفن في عام ١٩٦٠، دفن في مكان سري. فكرومويل قاتل ملك، والعواطف ضده ستظل جياشة.

السير والتر رالي

نرى صورته اليوم على بعض علب التبغ. كان يستحق الإعدام لأنه نقل إلينا عادة التدخين من الهنود الحمر. لكنه أُعدم عام ١٦١٨ إرضاء للإسبان بعد نهبه موقعًا إسبانيًّا في المستعمرات. احتفظت زوجته برأسه تسعًا وعشرين سنةً حتى ماتت، فورث ابنهما الرأس.

لويس الرابع عشر

كان أشهر ملوك فرنسا منهومًا، قالت عنه شقيقة زوجته إنه كان يأكل في الوقعة أربع زبديات من الـحَساء، وتَدرُجًا كاملًا -طيرًا يشبه الدجاجة-، وحجلًا، ثم يلتهم قصعة من السلطة، ثم يجدد الدسم بلحم الخروف مع الثُّوم، ويردفه بفطيرة، ويتسلى بالفواكه، لكنه -في أثناء تناول الفواكه- يدسُّ في فمه بيضة مسلوقة تلو أخرى. مات لويس الرابع عشر، على فراشه، أو ربما على مائدته. المهم أنه لم يُعدم، بل حُنِّط ودُفن. وبعد ستين سنة قامت الثورة الفرنسية فنبشوا قبره. وسُرق قلبُه المحنط، وبطريقة ما بيع القلب للإنجليز، ووقع بيد القس وليم بَكلاند.

وليم بكلاند

القس بكلاند عالم جليل، كتب أول وصف علمي للديناصور. لكنه كان غريب الأطوار، كان ربما حاضَر في تلاميذه وهو على صهوة جواده. وكان منهومًا بطريقته الخاصة: لقد أكل لحم القنفذ والتمساح، ولم تفلت من أضراسه الحشرات، كان يأكل كل شيء. قلنا إن قلب لويس الرابع عشر وقع بيده، طبعًا لقد أكله. أكله وهو يقول: «لم آكُل قلب ملك من قبل».

بطرس الأكبر

قيصر روسيا كان فيه تحضُّر وتوحش. هو الذي نقل روسيا إلى المدنية الأوروبية، لكنه كان على قدر من الجلافة غير قليل. شكَّ بطرس في أن لأحدهم علاقةً بزوجته كاترينا، فأجبرها بطرس على أن تحضر التعذيب الذي تعرض له الرجل، ثم تشهدَ قطعَ رأسه. ليس هذا فحسب، بل وضع الرأس في قطرميز به كحول، وجعله فوق سرير الزوجة المسكينة. ليست مسكينة

تمامًا. فبعد هذا الفعل الشنيع توَّجها بطرس إمبراطورة تجلس معه على العرش. هذه كاترينا الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملوك إنجلترا في آخر مئتي عام

نعرض لملوك بريطانيا في العصر الحديث. ويهمنا أن نلتقط بعض الطرائف، بدل أن نلتفت إلى الأثر التاريخي، ففي هذا الزمن كان ملوك بريطانيا قد فقدوا كل سلطة سياسية.

الملكة ڤكتوريا

عشقت ڤكتوريا زوجها ألبرت بجنون. وولَدت له تسعة. ڤكتوريا من سلالة ملكية ألمانية. عائلتها هانوڤر. وزوجها ألبرت من سلالة (ساكس كوبورغ وغوتا) وهو ألماني الأصل أيضًا.

بعد وفاة زوجها تعلقت ڤكتوريا بمستشارها الهندي عبد الكريم. كانت علاقة ود جميلة، وكان بينهما رسائل أعدمها الحمقى من أفراد الأسرة المالكة بعد وفاتها. توفيت ڤكتوريا عام ١٩٠١ بعد مُلك دام أربعًا وستين سنة. على فراش الموت كان يمسك بيدها وهي تجود بآخر أنفاسها حفيدها ابن بنتها، الذي كان إمبراطور ألمانيا ڤلهلم الثاني.

إدوارد السابع

بعد ڤكتوريا تولى الملك ابنُها إدوارد السابع، ونُسب في التسمية إلى أبيه، فهو ابن عائلة ساكس كوبورغ غوتا، وأمه ڤكتوريا من سلالة هانوفر. لا بأس كلهم ألمان. لكن العائلة المالكة البريطانية تنكلزت وغيرت لغتها منذ حين. هذا العهد الإدواردي الجميل دام تسع سنين من الرخاء والاسترخاء. أنجب إدوارد السابع ستة. ومات سنة ١٩١٠.

جورج الخامس

بموت إدوارد السابع تولى الملك ابنُه جورج الخامس. ولا ننسَ، هو من عائلة ساكس كوبورغ وغوتا. ولا تنسوا (غوتا). جورج الخامس حفيد ڤكتوريا الإنجليزي ابن ابنها، وأما حفيدها ابن بنتِها فهو ڤلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا. ونشبت الحرب العالمية الأولى. وتعادى البلدان والحفيدان.

كانت الطائرات في تلك الحرب بدائية. كانت الطائرة الألمانية تعبر بحر المانش ونقصف لندن. المصيبة أن الطائرة كانت من طراز (غوتا غيه أربعة). وحفظ الناس اسمها. حديث الناس كان عن طائرة «غوتا» اللعينة. والناس يعرفون أن اسم العائلة الحاكمة هو ساكس كوبورغ وغوتا. الأمر لا يحتاج إلى عبقرية للربط بين العدو الألماني والملك ذي الأصل الألماني. وفي ربيع عام سبعة عشر -والحرب على أشُدِّها- غير جورج الخامس اسم عائلته إلى

وندسور، وبقي هذا الاسم حتى اليوم. حكم جورج الخامس ستًّا وعشرين سنة، واسترخت بريطانيا بعد الانتصار المكلف في الحرب الأولى. أنجب جورج الخامس ستة أطفال. وكان كبيرهم يخبئ للطبقة السياسة الإنجليزية مصيبة.

إدوارد الثامن

جلس إدوارد الثامن على العرش. وبعد أسابيع ظهرت في حياته السيدة الأميركية واليس سمبسون. لقد طَلَّقت زوجها الثاني المستر سمبسون وتعلقت بملك بريطانيا، وتعلق بها. لم يعجب هذا البريطانيين، امرأة لها زوجان سابقان على قيد الحياة وتتزوج مليكهم؟ قالوا له: «اقعد أمام الميكروفون»، فقعد، وقال في كلمته: «قبل سويعات قمت بآخر واجباتي ملكًا وإمبراطورًا. والآن، وقد خَلَفني أخي دوق يورك، فأول ما أقول يجب أن يكون إعلان الولاء له، وهذا ما أصنعه من صميم قلبي». ثم تزوج الملك المعزول إدوارد الثامن حبيبة قلبه، وعاشا حياة خالية من المشاغل، ولم يفرِّقهما إلا الموت.

جورج السادس

بعد التنازل العاصف عن العرش جلس أخو الملكِ المعزول على العرش. جاء إلى الملك متزوجًا. وستعيش زوجته مئة عام وعام. لكنه لم يكن محظوظًا مثلها. أنجبت له ابنتين. وخاضت معه أهوال الحرب العالمية الثانية. مات جورج السادس عام ١٩٥٢.

إليزابيث الثانية

ابنته الكبرى إليزابيث، ستعيش ستًا وتسعين سنة. لقد استهلكت ملكة بريطانيا في عمرها المديد أكثر من ثلاثين كلبًا من النوع القصير القوائم، الكورغي الولشي من نوع بمبروك. الأسماء التي كانت تطلقها على كلابها عجيبة، ها هي عينة: إيما، ونوبل، وكاندي، وشوغار، وفوكسي، وويسكي، وبركان. تولت إليزابيث الثانية العرش وهي متزوجة. لا مشاكل. وعاش زوجها مئةَ سنة. وأنجبا أربعة. الكبير اسمه تشارلز.

تشارلز الثالث

طلَّق تشارلز زوجته الحسناء ديانا التي فتنت الإنجليز وغيرَ الإنجليز، وعشقت غيره وعشق غيرها، وماتت وعاش. ثم تزوج عشيقته كاميلا باركر بولز، وهي

مطلقة ولها ولدان وتكبره قليلًا. عندما بلغ تشارلز الثالثة والسبعين ماتت أمه إليزابيث (٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٢٢)، فأصبح ملكًا وأصبحت زوجته ملكة.

كليمنصو

حديثنا عن سياسي فرنسي، اشتهر كثيرًا لأنه كان ذا أثر بليغ في فترة حرجة. كان شديدًا، وجَرَّ على العالم ويلات لم يعش ليشهدَها.

عاش جورج كليمنصو ثماني وثمانين سنة. وترأس الحكومة الفرنسية مرتين. المرةُ الثانية كانت لسنتين وشهرين، ووقعت في زمن حرج، مع نهاية الحرب العالمية الأولى. كليمنصو أحد رجلين قسَّما العالم، الآخر لويد جورج البريطاني، ولكن أثر كليمنصو كان كبيرًا لأنهم قسَّموا العالم في ڤرساي بظاهر باريس. سبق التقسيم المجحف بسنتين معاهدةٌ ووعد: معاهدة سرية بين فرنسا وبريطانيا هي سايكس بيكو، ووعد ظالم من بريطانيا هو وعد بلفور.

هجر كليمنصو الشاب الطب إلى الصِحافة، ثم هجرها إلى السياسة. وفي كل مراحل عمره لم يهجر شاربيه الكثين.

لم يفلح وودرو ويلسون رئيس أميركا في إقناع كليمنصو العجوز بالتسامح وبناء السلام العالمي. مات كليمنصو قبل عشر سنوات من اندلاع الحرب العالمية الثانية التي زرع بذورها في ڤرساي. فقد فرض على الألمان إتاوة باهظة، وجرَّد ألمانيا من السلاح، ومن بعض أراضيها. كانت معاهدة ڤرساي قنبلة موقوتة.

قال الجنرال الفرنسي فرديناند فوش: «هذه ليس معاهدةَ سلام، بل هدنة تدوم عشرين عامًا». وهكذا كان بالضبط: بعد عشرين عامًا من ڤرساي قامت الحرب الثانية. والآن إلى جملة من أقوال النمر، هذا لقبُ جورج كليمنصو:

• كل ما أعرفه تعلمته بعد الثلاثين.

• لست أدري آلحرب فاصل بين سلامين، أم السلام فاصل بين حربين.

• أميركا هي الأمة الوحيدة التي انطلقت من الهمجية إلى الانحطاط دون المرور بالحضارة.

• أن تقتحم الأمور معناه أنك مجنون ينجز. العاقل يكتفي بالتفكير.

• الحرب أمر مهم، فلا يجوز أن تُترك للعسكريين.

• الذي يفكر جيدًا قبل أن يفعل ليس بصاحب همة. عليك أن تفعل مثلما تتنفس.

حاييم وايزمن

خطر ببالي الأسيتون فبحثت عنه في الشبكة. ينتج العالم نحو سبعة ملايين طنٍّ من الأسيتون كل عام. ليس لأظفار النساء من ذلك إلا القليل. فالأسيتون يستخدم في الصناعة، وهو مادة أساسٌ في الكيمياء العضوية. كلمة الأسيتون من أسيتوم اليونانية ومعناها الخَلُّ، وبالخَلِّ أيضًا يمكنكِ إزالةُ طلاء الأظفار. حُضِّر الأسيتون قبل أربعمئة سنة.

فما علاقة الأسيتون بوعد بلفور وصاحبه آثر بلفور الذي كان وزير خارجية بريطانيا عندما صدر الوعد؟

اكتشف الكيميائي البريطاني اليهودي حاييم وايزمن طريقة سهلة لتصنيع الأسيتون في أيام الحرب العالمية الأولى، فكان ذلك مفيدًا للصناعة الحربية البريطانية. وكانت لوايزمن معرفةٌ ببلفور. وبلفور كان يؤيد إنشاء دولة لليهود في أوغندا، ولكن وايزمن غيَّر له رأيه.

فهل يصح القول إن الأسيتون سببُ نكبة الشعب الفلسطيني؟ أقول هذا القول على سبيل السخرية، ولكنني أُتبعه ببعض التفلسف. بعضُ الناس يملكون من المنطق الفاسد أنهم يرون فأرًا بقرب جدار فينسجون قصة مُفادها أن سد مأربَ العظيم انهار بسبب فأر قرض حجرًا في أسفله.

وفي عالم السياسة سمعت من قال إن الحاج أمين الحسيني مفتي القدس سببُ النكبة. ومن الغوغاء من استعمل صورة المفتي وهو يقابل هتلر للقول إن المفتي أيد النازية. وينسون أنه قبل سنتين من هذا اللقاء كان رئيس وزراء بريطانيا تشمبرلين يصافح هتلر النازي في ميونخ. ثم قامت الحرب. مفتي فلسطين قابل رئيس دولة تعادي الدولة التي تحتل بلده. وعدو عدوي صديقي. كان يحاول إنقاذَ بلد يغرق، وفشل.

ونعود إلى وايزمن صاحب الأسيتون.

بعد وعد بلفور التقى وايزمن بفيصل بن الحسين. كلٌّ منهما صاحب قضية. قضية فيصلٍ أن يضمن دولة للعرب يكونُ ملكَها. وقضية وايزمن أن ينشئ دولة لليهود على حساب شعب فلسطين. وتعاطفا.

النشاط الصهيوني لحاييم وايزمن استمر خمسين سنة قبل أن يتحقق حلمُه البغيض. ثم ترأس هذه الدولة المفبركة.

جميل أن يقف المرء حياته على قضية، وقبيح أن تكون هذه القضية كقضية وايزمن. من النفاق الخالص أن تقيم قضيتك على وهم ديني وأنت علماني. وإسرائيل دولة دينية، لكنها تضطهد الفلسطينيين بعلمانية. ستظل تعيش هذا

التناقض حتى لو طبَّعت معها إحدى وعشرون دولةً عربية. أما الدولة رقم اثنان وعشرون وهي فلسطين، فكانت في طليعة المطبِّعين.

غاندي

تخرَّج موهنداس كاراماشاند غاندي محاميًا في الهند، وذهب إلى جنوب إفريقيا واستطاب القعدة هناك، وعاش عشرين سنة اخترع فيها النضال السلمي على طريقة هندوسية فيها فهم متسامح للدين. هناك سماه هنود جنوب إفريقيا الروحَ الأعظم، المهاتما. كلمة سَنسكريتية. وعاد إلى الهند ليقارع الإنجليز المحتلين.

وفي لندن قارعهم بشَملته وساقيه العاريتين. ذهب إلى لندن ليفاوض وأجبرهم على احترامه كهندي أصيل لا كهندي يتشبه بالأوروبيين. وناضل حتى اقترب موعدُ التحرر من الاستعمار، لكن قبل الفرحة التامة بأشهر اغتاله هندوسي متعصِّب عام ١٩٤٨. قال غاندي:

• عش كأنك ستموتُ غدًا، وتعلم كأنك ستعيش إلى الأبد.

• ما السعادة؟ هي عندما ينسجم ما تفكر فيه مع ما تقوله، وما تقوله مع ما تفعله.

• الضعفاء لا يسامحون. المسامحة صفة الأقوياء.

• لا نريد حرية ليست فيها حريةُ أن نرتكب الأخطاء.

• اكرهوا الخطيئة، وأحِبَّوا الخاطئين.

• لن أسمح لأحد أن يعبر عقلي بقدميه الوسختين.

• خير ما تصنعه لتربح نفسَك، أن تخسرها في خدمة الآخرين.

• في الأرض ما يكفي لإشباع حاجات الجميع، وليس فيها ما يكفي لإشباع أطماع الجميع.

• يمكنك الحكمُ على عظمة الأمة وتطورِها الأخلاقي من طريقة تعاملها مع الحيوان.

ليندون جونسون

أحدِّثكم عن رئيس أميركي مشهورٍ عندي أنا فقط. ولماذا؟ لأنه أول رئيس أميركي أعي زمنه. كان جونسون نائبًا للرئيس جون كيندي. قال جونسون: «كيندي في الأسواق يقبِّل الأطفال، وأنا أقوم بالشغل». وفي منتصف فترة

رئاسة كيندي اغتيل. وفي اليوم نفسه جيء بنائب الرئيس ليؤديَ اليمين الدستورية. حكم جونسون نصف مدة رئاسية، ثم انتُخب فحكم مدة كاملة.

مات جونسون بعد الرئاسة بأربع سنين. كان في الخامسة والستين. وعيت رئاسته من أخبار حرب ڤييتنام، وفي زمنه احتلت إسرائيل بقية بلدي. قال ليندون جونسون:

• الأمس لا يسترد، والغد لنا كي نربحه.. أو نخسره.

• أنت لا تتعلم شيئًا وأنت تتكلم.

• إذا اتفق شخصان اتفاقًا تامًا، فلا بد أن أحدهما فقط هو الذي يقوم بالتفكير.

• من لا يملك حق التصويت شخص مكشوف، بلا حماية.

• الرئيس كالحمار وسط عاصفة هوجاء، ما عليه إلا أن يثبُت ويتلقَّى.

• كان جون كيندي ضحية للكراهية التي هي جزء من بلادنا. إنها مرض يعاني منه القلة، ولكنه خطر يحيق بالكثيرين.

• أنا لا أفكر في السياسة، سوى ثماني عشرة ساعة في اليوم.

• إن لم يحبَّني الأميركيون فسوف يحبُّني أحفادهم.

• لا محاباة عندي بين الموظفين في البيت الأبيض.. أعاملهم جميعًا بلامبالاة.

استضاف جونسون بعض زعماء العالم الثالث على عشاء، وبينا هم يتحدثون سكب جونسون مرقًا في زبدية، وأخذ يفت فيه لباب الخبز ببطء وهو يتكلم. وأخذ ضيوفُه يفعلون الشيء نفسه. ثم دعا جونسون كلبه الأثير (يوكي) ووضع له الزبدية على الأرض.

ماو تسي تونغ

ماو تسي تونغ ابن أسرة ميسورة في الريف الصيني.

الصين كبيرة جدًّا، وكان المستعمرون يتناهشونها من أطرافها، والشاب المتعلم أخذ يعمل في مكتبة الجامعة في بكين. كان في أواسط العشرين عندما نجحت الثورة الشيوعية في روسيا، فاتخذ الماركسية اللينينية مذهبًا. وحارب المستعمرين، وحارب خصومه الصينيين أكثر، وبعد مسيرة طويلة خلا لحزبه الشيوعي الجو. حكم ماو الصين مستبدًّا ربع قرن. نقل الصين من أمة ضعيفة إلى أمة قوية، وحرس استقلالها. هو مثقف وصاحب تنظير عالٍ، وقتل نظامُه الاستبدادي نحو ستين مليونَ إنسان في الإعدامات الجماعية أو في معسكرات الاعتقال. مات ماو على فراشه وهو في الثانية والثمانين.

المستبد طاقة نووية: يكون قنبلة مدمرة، أو محطة توليد الكهرباء. وكان ماو كليهما. هذا قولي، فأما ماو تسي تونغ فقد قال:

• السياسة حرب بلا دماء، والحرب سياسة دامية.

• لا حياة للفدائيين إلا وسط الناس، كما أنه لا حياة للسمك إلا في الماء.

• المحدود في طموحه وتفكيره كالضفدع في أسفل البئر، يظن السماء بسعة فُتحة البئر.

• لتأخذ المرأة مكانها في جبهة العمل، بأجر متساو لعمل متساو.

توماس هوبز

حديثنا عن المفكر الإنجليزي توماس هوبز. ولدته أمه قبل أوان الولادة وهي ترتعد خوفًا من أخبار الأسطول الإسباني الذي يوشك أن يغزوَ إنجلترا. قال هوبز: «أنا أحد توأمين، ولدتني أمي أنا والخوف». لن ننسى تاريخ مولده: هو تاريخ الأرمادا، الأسطول الإسباني العظيم الذي قصد إنجلترا فشتَّته الأسطول الإنجليزي الصغير شَذَرَ مَذَرَ بمساعدة العواصف الهوج. حدث هذا عام ١٥٨٨.

في طفولته شهد توماس شجارًا بين أبيه القسيس وقسيس آخر أدى إلى تشرد الأسرة. الحادثة جعلت هوبز يكره الشجار طول عمره. ولكن، كان عليه أن ينتظر سنوات ليرى الشجار الأكبر.

عندما تجاوز توماس هوبز الأربعين قامت الحرب الأهلية الإنجليزية، وقُتل فيها عشرات الآلاف.

أُعدم الملك، وقام حكم شبهُ جمهوري استمر عشر سنين. شاهد هوبز هذا المنظر المفزع وهو قاعد في مأمنه في باريس. وعندما عادت الملكية عاد هوبز إلى وطنه إنجلترا. وكتب كتابه الأشهر.

اسم الكتاب اللِّڤياثان، أو اللُّوياثان، وهذا هو حية البحر الأسطورية التي تلتهم الجثث، وتُحيل كل شيء إلى خراب. وما الحل عند هوبز لتجنب الخراب؟ الحل أن يكون هناك ملك مطلق، يحكم البلد ويملك السيف والصولجان.

في فرنسا التي عرفها هوبز جيدًا كان الملك يحكم بالحق الإلهي. قال هوبز: ما هذا إلَّا هراء. الله لا يعيِّن الملوك. لكن البلد بحاجة إلى اليد القوية، إلى من يملك سلطة مطلقة، حتى لو كان ظالمًا، وحتى لو ضيَّق على الناس وبدَّد الثروات. فمتى يفقد هذا الحاكم حقَّه في السلطة؟ فقط عندما يصبح الناس خائفين على حياتهم، عندما يكون القتل قريبًا من النفوس. هوبز ابن زمنه.

رأى حربًا أهلية بشعة فكان هذا رأيَه. كتاب اللَفياثان تلخصه الحكمة العربية: «سلطان غشوم خير من فتنة تدوم».

فهل نقبل من السلطان أن يكمم الأفواه؟ بحسب هوبز إذا لم يكن الخطر على الحياة قريبًا منا نقبل منه ذلك. ولكن الدنيا تغيرت في بريطانيا. قلنا بريطانيا هذه المرة ولم نقل إنجلترا، ففي حياة هوبز توحدت إنجلترا وسكوتلندا وصارتا بريطانيا. تطور الحكم في بريطانيا، وبالتدريج تغير العقد الاجتماعي الذي هو تفاهم ضمني بين الحاكم والرعية. أصبح العقد الاجتماعي يتضمن التعددية وحرية الرأي وصولًا إلى الديمقراطية البرلمانية. بريطانيا سارت نحو الديمقراطية على قدميها، ولم تركب المقصلة.

فكرة هوبز عن الحاجة إلى الحاكم المطلق هي ابنة ظروفه. ليست مبدأً مطلقًا كمبادئ الرياضيات. عندما تخرج البلاد من حرب أهلية طاحنة يتوق الناس إلى السلطان المطلق الذي يوفر الأمان. لكن الحرب الأهلية شر، والسلطان المطلق شر، وخير منهما السلام الاجتماعي مع العدالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من عبد الحميد حتى نهاية الدولة العثمانية

عمر الدولة العباسية بالسنوات الميلادية ٥٠٨ أعوام. وعمر الدولة العثمانية ٦٢٥ عامًا. لكنَّ الدولتين تتساويان في عدد الخلفاء أو السلاطين. في كل منهما سبعة وثلاثون خليفة أو سلطانًا. حديثي عن الدولة العثمانية وكيف تحولت إلى تركيا الحديثة، حديثي عن أواخر السلاطين.

عبد الحميد الثاني

سلطانٌ وخليفة. حكم ثلاثًا وثلاثين سنة. كان صاحب دين وخلق، واستبداد. رأى سلفَه مرادًا يُعزل بعد ثلاثة أشهر من توليه ثم يُحبس في قصره ربع قرن. ورأى سلفَ سلفِه، عبدَ العزيز، يعزل ويموت بعد عزله بستة أيام في ظروف غامضة. فتعلم عبد الحميد الدرس، فأحاط حكمه بالمخبرين، وفهم الدسائس، وثبت على العرش. وظلت شعوب الدولة العثمانية في زمنه من البلغار والصرب واليونانيين والألبان والأرمن والكرد تتململ وتحارب الدولة وتنال استقلالًا جزئيًّا أو كليًّا. وظلت دول أوروبا تتحفز لنهش الدولة العثمانية، وما كان يمنعُها من القضاء عليها سوى التنافس فيما بينها.

الذي أسقط عبدَ الحميد كان جمعيةَ الاتحاد والترقي. وتولى قادتها الحكم الفعلي. أنور باشا العسكري المتهور، ثم طلعت باشا العقلُ المخطط، ثم جمال باشا الذي عرفناه بلقب السفاح. في عام ١٩٠٩ نفى هؤلاء عبد الحميد إلى سالونيكي في اليونان في غرب الدولة العثمانية.

محمد رشاد

خليفة وسلطان، جاء بعد عبد الحميد، لكنه لم يستطع أن يستبد ولا أن يحكم، ولا رئيسُ وزرائه (الصدرُ الأعظم) كان يملك كثيرًا من الأمر. المستبد كان ثلاثيَّ جمعية الاتحاد والترقي.

في زمن محمد رشاد قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت فيها الدولة العثمانية حليفةً لألمانيا والنمسا. وخسرت ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية. وبهذا انهارت ثلاث إمبراطوريات. وسبقتها بسنة الإمبراطورية القيصريةُ الروسية التي قضت عليها ثورة البلاشفة. وقبل الهزيمة الكاملة بثلاثة أشهر مات السلطان محمد رشاد.

وحيد الدين

تولى الأمر سلطانًا وخليفة ليشهدَ الانهيار الكبير. بريطانيا وفرنسا تحتلان بلادَ العرب التي كانت عثمانية، واليونان تزحف على الأرض التركية، وبريطانيا

تحتل إستانبول. في سنة ١٩٢٢ حمل البريطانيون السلطان على سفينة حربية مع عائلته إلى مالطا، ثم عاش بقية حياته في إيطاليا. واستطرادًا ففي تلك السنة اكتشف البريطانيون قبر توت عنج آمون بمصر، وأخذوا مومياءات ملوك مصر إلى لندن. ومن هنا قولُ شوقي:

أَمَنْ سَرقَ الخليفةَ وَهْوَ حَيٌّ

يَعِفُّ عنِ الملوكِ مُكَفَّنِينا

مع السقوط سقط رجال الاتحاد والترقي الثلاثة، وقُتلوا واحدًا واحدًا. اثنان اغتيلا والثالث حارب الروس في القفقاس وقُتل. في هذا الزمن الصعب لم يبق من الدولة العثمانية سوى الأناضول في وسط تركيا.

ومن الأناضول بدأ مصطفى كمال، الضابطُ الذي أبلى بلاء حسنًا في الحرب العالمية ونال الأوسمةَ العثمانية والألمانية، حرب الاستقلال بما بقي من جنود الدولة العثمانية. ومع انتصاراته عزلَ وحيدَ الدين، وألغى السلطنة وأعلن الجمهورية. لكنه لم يلغ الخلافة.

عبد المجيد الثاني: جاء آخرُ العثمانيين خليفةً فقط. وسينتظر أقل من سنتين ليرى الخلافة تلغى في عام أربعة وعشرين وليذهب إلى المنفى. كان آخرُ خلفائنا على الإطلاق رسَّامًا. وبهذا الخليفة الفنان انتهت ستةُ قرون وربعُ القرن هي عمر الدولة العثمانية.

توماس جفرسون

كل رئيس أميركي تُعَدُّ الرئاسةُ إنجازَ حياته الأكبر. ولكن جفرسون أنجز أكثر قبل الرئاسة.

أصبح توماس جفرسون الرئيس الأميركي الثالث. وتولى الرئاسة فترتين. إنه الرئيس الأميركي الفيلسوف والمثقف. جفرسون هو الكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال. كان يملك الأطيان، والعبيد أيضًا. ولم يحرر جفرسون من عبيده الستمئة سوى ستة. وكانت له علاقة مع أَمَة عمرها خمسَ عشرة سنة، واستولدها عدة أطفال. لكنه مما يُذكر لهذا الرجل أنه صدر في عهده مرسوم بوقف استيراد العبيد. في زمن جفرسون اشترت الولايات المتحدة لويزيانا من فرنسا نابليون: المساحة مليونا كيلومتر مربع. وفي عهده بدأ تهجير الهنود الحمر عن مواطنهم داخل لويزيانا. حياة توماس جفرسون كمفكر سياسي ومثقف كبير لم تجعله مثاليًّا. سنعرض بعد قليل أقوالًا له عن الصداقة والتسامح، وعن السلاح والقوة. وليلاحظ المشاهد أمرًا عني وعما أورده عليه من معلومات. أنا أصف الشخصية التاريخية، وأسرد شتى الجوانب من حياتها، لا أذم ولا أشغل نفسي بإصدار الأحكام الأخلاقية. الإنسان ابنِ عصره. فإن

حدثتك عن شخص أعرفه وأعايشه، وكان متسلقًا خبيثًا نقالًا للكلام، فقد تراني أذمه. أنا أقيسه بالمعايير الأخلاقية في زمننا الحاضر. فأما ناس التاريخ فمن غير المنصف أن نحاسبهم بمقتضى المعايير الأخلاقية في زمننا. وهذا رجع الكلام إلى جفرسون.

نافس جفرسون جون آدمز على الرئاسة فهُزم، ثم نافسه مرة أخرى بعد أربع سنين ففاز. ومع ذلك استمرت الصداقة، ودامت المراسلات بين الرجلين بعد ذلك أربع عشرة سنة عندما توفيا. المصادفة أنهما توفيا في اليوم نفسه، وأنهما توفيا في الرابع من يوليو/ تموز عام ألف وثمانمئة وستة وعشرين، في يوم الذكرى الخمسينَ للاستقلال. آخر ما نذكره من مآثر جفرسون أنه كان مدافعًا قويًّا عن الحرية الدينية.

نحن في الشرق لقينا أذى من السياسة الأميركية، وخصوصًا من ميل أميركا إلى حماية مصالحها بالتعدي على الآخرين وبمناصرة كيانات عنصرية. وننظر في حياة جفرسون الرجل الذي صنع لبلاده مجدًّا، كي نعرف الأسس التي قامت عليها أقوى دولة في العالم. قال توماس جفرسون:

- فيما يتعلق بالأسلوب اسبح مع التيار، وفيما يتعلق بالمبدأ اثبت كالصخرة.
- آمل أن نسحق أرستقراطية المال التي تتحدى حكومتنا وتتعدى على القانون.
- نريد السلام والتجارة والصداقة مع كل الأمم، ولا نريد أحلافًا.
- الرجل الشجاع هو بحد ذاته أغلبية.
- الاختلاف معك في السياسة والدين والفلسفة لن يفقدك صداقتي.
- بحر الحرية الصخاب لا يخلو من الأمواج.
- كل دساتير ولاياتنا تنص على أن السلطة بيد الشعب، لذا من حق الجميع بل من واجبهم حملُ السلاح.
- أفضِّل أن أحلم بالمستقبل لا أن أفكر في الماضي.
- من لا يقرأ أفضل ممن لا يقرأ إلا الصحف.
- كلما صنعت شيئًا فاصنعه كأن كل العالم يراقبك.
- علِّموا الناس جميعًا ووفروا المعلومات، فالناس هم الضمانة للحفاظ على الحرية.
- المال والفخامة لا يمنحانك السعادة، السعادة كائنة في السكينة والعمل.

• التجار لا وطن لهم.

• الأرض يملكها الأحياء، لا الأموات.

• لا أحد يندم على أنه أكل قليلًا.

• أن تسافر وحدك أفيد، لأنك تتأمل أكثر.

• يجب أن يكون كل مواطن جنديًّا. هكذا كان الأمر عند اليونان وعند الرومان، وهكذا يجب أن يكون في كل أمة حرة.

• على الشعب الحر الذي يريد أن يظل حرًا أن تكون له ميليشيا منظمة ومسلحة جيدًا.

• لا يجوز حرمان أي حر من استعمال السلاح.

وقد كررت آراء جفرسون في حمل المواطنين السلاح كي تتأكد من أن هناك عمقًا تاريخيًّا لتعلق الأميركي بسلاحه الشخصي. أميركا قامت على اغتصاب أرض الآخرين، وصار هذا عنصرًا في صياغة الوعي الأميركي

• في كل بلد وكل زمان كان رجال الدين معادين للحرية.

• صحافة حرة وشعب ليس فيه أمية.. هذا كل المطلوب.

• كلما اشتهى المرء منصبًا بدأ العفن يتسلل إلى سلوكه.

• لا أستطيع الحياة بغير كتب.

• أصعب ما في الإدارة وضع الشخص المناسب في المكان المناسب.

• العقول الصافية لا تغريها السلطة.

• المؤسسات المصرفية أخطر من الجيوش.

• لقد عرف أعداؤنا أننا كنا نحاجج كرجال، والآن فليعرفوا أننا نستطيع القتال كرجال.

• إخماد النزاعات الدينية يكون بإهمالها.

• النزعة إلى مقاومة الحكومة ثمينة جدًّا، وأتمنى أن تبقى موجودة.

• الصديق الذي جرحتَه سيتحول إلى عدو مشحون بالمرارة.

• أفكر كالرومان: من كان قائدًا اليوم يمكن أن يكون جنديًّا غدًا إذا دعت الحاجة.

وقال توماس جفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة: «أخشى ما أخشاه أن أعيش طويلًا». وعاش ٨٣ سنة.

شارل ديغول

أسر الألمانُ شارل ديغول الشاب ابنَ الخامسة والعشرين، وحاول الفِرار عدة مرات وفشل، وظل في المعتقل ثلاث سنين حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى. وعندما احتل الألمان فرنسا في مطلع الحرب العالمية الثانية كان ديغول جنرالًا، وبسرعة اكتسح الألمان فرنسا، ففر ديغول إلى لندن. واتخذ ميكروفون البي بي سي منبرًا يحرض منه الفرنسيين، على المقاومة. ولم يقاوموا إلا قليلًا. وعاد ديغول في أواخر عام أربعة وأربعين إلى باريس المحررة بحِراب الإنجليز والأميركيين. ورافقه في هذه العودة الاحتفالية تشرشل رئيسُ وزراء بريطانيا الذي طالما عانى من غطرسة الجنرال الفرنسي إذ هو مقيم في لندن.

سرعان ما تبين أن ديغول ليس ممن يشتهون السلطة لذاتها. ترك قومه الفرنسيين يرتكبون كل حماقاتهم السياسية ثم تسلم السلطة. وفي الحكم كان أكبرُ إنجاز له أن أقنع الفرنسيين بأنهم أمة عظيمة. كان جريئًا ويملك ما يكفي من الشعبية، فقرر الخروج من الجزائر تحت وطأة الثورة الجزائرية المجيدة. وعندما كان ديغول يقترب من الثمانين عقَد استفتاء دستوريًّا وخسره، فاستقال. وتوجه للعيش في مزرعته. ومات بعد سنة ونصف. قال شارل ديغول:

- كيف لك أن تحكم بلدًا فيه مئتان وستةٌ وأربعون نوعًا من الجبن؟
- المقابر مليئة بأشخاص كنا نظن أنه لا غنى عنهم.
- خسرت فرنسا معركة، ولم تخسر الحرب.
- لأن السياسي لا يصدِّق ما يقول، فهو يتعجب عندما يصدقه الآخرون.
- الأميركيون سيرتكبون كل حماقة تتخيلها، بالإضافة إلى حماقات لا تخطر لك ببال.
- المعاهدات كالورود وكالفتيات الجميلات، إنها لا تدوم على حالها.
- في السياسة إما أن تخون بلدك وإما أن تخون الناخبين. أفضِّل أن أخون الناخبين.
- الخطر يوحد الفرنسيين.
- كي يكون السياسي سيد الموقف، عليه أن يتخذ هيئة الخادم.

• النقاش مهمة الكثيرين، والفعل مهمة شخص واحد.

• لا تسلني عمن أثر فيَّ؛ الأسد يعيش على الحملان التي افترسها، وأنا قرأت كتبًا كثيرة.

• أحترم فقط من يخالفونني، لكنني لا أطيقهم.

• كنت أنا فرنسا.

• ليس لدولة تفتقد القنبلة الذرية أن تعد نفسها مستقلة.

• فرنسا لا يمكن أن تكون فرنسا إلا إن كانت عظيمة.

• يقف ضدي البرجوازيون، والعسكر، والدبلوماسيون، وليس معي إلا الناس الذين يركبون المترو.

• عندما أريد أن أعرف كيف تفكر فرنسا، أسأل نفسي.

• لا يُحكم البلد بالبنادق.

• الوطنية أن يكون حبك لبلدك في الصدارة، والقومية أن يكون كرهك للآخرين في الصدارة.

• ليس لأي أمة أصدقاء، هناك مصالح.

• كلما عرفت الناس أكثر، ازداد حبي للكلاب.

• لا يوجد إنجاز عظيم إلا ووراءه شخص عظيم، والرجال العظام هم من يصمم على العظمة.

• العظمة طريق يؤدي إلى المجهول.

• حاولت انتشال فرنسا من الوحل، لكنها عادت تكرر أخطاءها. لن أستطيع منع الفرنسيين من أن يكونوا فرنسيين.

• كن على قدميك دائمًا، وتأقلم، وإلا فالاستراتيجية لا تنفعك.

• عندما أكون على حق أَغضَب، وتشرشل يغضب عندما يكون على خطأ، فنحن في علاقة غضب معظم الوقت.

لقد عاش ديغول تحت حماية الإنجليز في سنوات الحرب العالمية الثانية، ولم يكن يخفي كراهيته لهم. ذات يوم قالت له زوجة تشرشل: «عزيزي الجنرال، خفِّف من كراهيتك لأصدقائك».

• القادة العظام يُخرجون أفعالهم إخراجًا مسرحيًّا لمضاعفة التأثير.

• رجل السياسة الحقيقي مستعد دائمًا للمخاطرة.

• البلد العظيم ليس له أصدقاء.

• نشأت أحترم السلطة ومن يمثلها.

• القائد الناجح يحتفظ ببعض المفاجآت التي تبقي الجمهور متحمسًا وحابسًا الأنفاس.

• السلطة تحتاج إلى الأبهة، والأبهة تحتاج إلى الابتعاد.

• الكنيسة هي المكان الوحيد الذي يتحدث أحدهم فيه إليَّ، وليس عليَّ أن أجيب.

وقال شارل ديغول: «المرء في الشيخوخة سفينة تحطمت على الشاطئ».

مهاتير محمد

نتحدث عن محاضر بن محمد، هذا الطبيب الذي يُعرف في نشرات الأخبار بـ مهاتير محمد. وقد حكم بلده ماليزيا طويلًا. حكم اثنتين وعشرين سنة حتى عام ألفين وثلاثة. وفي هذه الفترة أصبحت ماليزيا قوة اقتصادية كبيرة. استطاع، وهو المسلم التقي، أن يوفِّق بين الملايو المسلمين، والأقلية الصينية الكبيرة التي هي ربع السكان.

وفي هذه الفترة أقال نائبه أنور إبراهيم ورماه في السجن ست سنوات بتهمة الفساد واللواط. ثم ترك مهاتير منصبه. لكنه ظل أهم شخصية سياسية في البلاد. وبعد خمس عشرة سنة عاد مهاتير محمد إلى منصب رئاسة الوزراء.

كان في الثالثة والتسعين من العمر، أصبح أسن رئيسِ وزراءَ على الكوكب. وعاد إلى المنصب متحالفًا مع خصمه اللدود أنور إبراهيم، واعدًا إياه بأن يسلمه المنصب بعد سنتين. لكن مهاتير محمد ترك منصبه في الخامسة والتسعين دون أن يسلم رئاسة الوزراء لحليفه اللدود.

كره مهاتير محمد الغرب، وبادله الغرب كرهًا بكره. لكنه أصر على أن تمتلك ماليزيا علوم الغرب والشرق لتصبح بلدًا مزدهرًا. قال مهاتير محمد:

• الصادق مع نفسه يتقبل النقد.

• من لا يعمل سيتآكل دماغه.

• يمكن التغاضي عن المشعوذ، ولا يمكن التغاضي عن الخرافة.

• إذا أمعنت في استحضار التاريخ فلن تستطيع التعاون مع أحد، ستظل تحارب الأعداء.

• من العبث تحويل العملة إلى سلعة، وخفض قيمتها بشكل مقصود، هذا يُفقر الدول الضعيفة.

• إذا أرادت أستراليا أن تكون صديقًا، فعليها ألا تتصرف وكأنها تعلِّم دول آسيا كيف تدير شؤونها.

• كل قائد محتاج إلى السلطة، وبدونها لا يكون قائدًا.

• حرية الصحافة ليست شيئًا مطلقًا، إذا أثارت الصحف الكراهية العنصرية وجب منعها.

• لا يهمني أن يتذكرني الناس بعد موتي. إن تذكروني فهذا حسن، وإلا فأنا ميت على كل حال.

• المضاربة بالعملات ليست تجارة.

• آن الأوان لوضع الإنترنت تحت الرقابة الحكومية.

• الشركات الكبيرة ملك للأمة كلها، وإخفاقها سيضر الكثيرين.

• العملة ليست شيئًا تطبعه، بل يجب أن تكون مدعومة بالاقتصاد القوي، أو بالذهب.

• يجب صنع الديموقراطية محليًّا، إنها لا تفرض من فوق.

• في ماليزيا ثلاثة أعراق، وتسع وعشرون قبيلة، ولو سمحت لكل الناس أن يقولوا ما يشاؤون لكان هناك عنف ومواجهات، ونحن بحاجة إلى الاستقرار.

• اليهود يحكمون العالم بالوكالة.

• في مجتمع متنوع كماليزيا القانون واحد، ليس هناك قانون للمسلمين وقانون لغير المسلمين.

• بلد لا يملك المهارات الهندسية والمعرفة لن يكون بلدًا متقدمًا.

• يجب أن يكون لكل رئيس وزراء بصمته.

• لن نبيع قطعًا من بلادنا لشركات أجنبية كي تنشئ مدنًا جديدة.

• الديمقراطية لمن لم يتعودوا عليها تسبب القلاقل والحرب.

• ديمقراطية الهند الزائدة تمنعها من أن تتطور كالصين.

• لو قلت إنني سأتقاعد بسكينة كي أعمل لآخرتي فهذا في منتهى الأنانية.

وقال مهاتير محمد: «أنا أول دكتاتور يستقيل طواعية وهو بكامل صحته».

مانديلّا

كنت أتحيرُ في وصف مكان بيتي في رام الله لمن يريد زيارتي، فأخوضُ معه في شمال يمين ثم شمال وشمال مرة أخرى. وفارقتني حيرتي فجأة. فكيف؟

أهدت إلينا حكومةُ جنوب إفريقيا مشكورة، تمثالًا لنيلسون مانديلَّا، وقررت البلدية نصبه قرب بيتي. فإن أردتَ زيارتي وطلبت الوصف، قلت لك تعال إلى مانديلَّا وتلقاني عنده أنتظرك.

إن كنت شهدت عصر مانديلَّا، فأنت تعرف كل شيء، وإلا فسوف آتيك بجديد. لكن، حتى لو كنت ممن شهد عصر مانديلَّا فإنني أعدك بقصة لم تسمع بها من قبل. هل تُراهن؟

مانديلَّا شاب أسودُ متعلمٌ يعمل في المحاماة. عندما كان في الثلاثين من العمر أصبح نظام العزل العنصري في جنوب إفريقيا قانونيًّا. السود أكثرُ من ثلاثة أرباع السكان، والآسيويون عشَرةٌ بالمئة، والبيض نحوُ عشرة بالمئة. ومعظم الخيرات بيد البيض، ويُمنع على السود أن يختلطوا بالبيض، الزواج ممنوع قانونًا، الفصل العنصري شامل. والدولة لها جيش من البيض يحارب في ناميبيا لسرِقة خيراتها، وفي أنغولا لدعم اليمينيين.

وانضم مانديلَّا إلى حركة الكفاح المسلح. وحُكم عليه بالسَّجن مدى الحياة.

وظل رفاقه يناضلون. ما كان أحد يتوقعُ أن يكون لمانديلَّا شأن، فلن يذكرَ سوى أنه السجين ٤٦٦٦٤. ولكن رفاقه لم يتهاونوا في كفاحهم، وأصبح مانديلَّا أيقونة. ومع ازدياد الضغط العالمي اضطر رئيس جنوب إفريقيا فريدريك ديكليرك إلى إطلاق سراح مانديلَّا، بعد سبعة وعشرين عامًا من السَّجن. كانت خطوةً سياسية اضطرارية، ولكن ديكليرك سجل لنفسه أنه الرجل الذي أطلق مانديلَّا. وخرج مانديلَّا. كانت لحظة لا تنسى في عام ألف وتسعمئة وتسعين. راقبتُ اللحظة مع الملايين في كل العالم، وراودتني المخاوف من أن تتبدد الصورة الزاهية لهذا المناضل وأن يصبحَ دكتاتورًا، بعد أن يخوض حربًا أهلية، يُقتل فيها البيض والسود. أليس هذا هو السيناريو الذي تعودنا عليه؟

خرج مانديلَّا من سجنه والعالم كلُه يرجو منه خيرًا. وبدأت البلاد تغلي. ستكون هناك انتخابات يشارك فيها السودُ لأول مرة، وسيفقد البيض امتيازاتِهم، وسيحيق بهم الخطر.

اجتمع خمسةَ عشرَ ألفًا من البيض في ستاد رياضي، وهم يحملون الرشاشات والبنادق، وتعاهدوا على خوض القتال حتى النهاية. كانوا بلا قيادة، فقد تجمعوا على غير موعد، مانديلَّا خرج، والتحضير جار لانتخابات ستُفقد البيض السلطة. وكان بين المجتمعين الجنرال كونستاند ڤيلجووين. فقدموه للقيادة فتقدم. وجمع حول الحركة الجديدة مئة وخمسين ألفًا معظمهم مدرَّب على السلاح، وباتت الحركة الجديدة متأهبة لخوض حرب أهلية دامية.

وتشاء الأقدار أن يكون أبراهام ڤيلجووين في الطرف الآخر. وأبراهام هذا ليس أخًا للجنرال كونستاند ڤيلجووين فحسب، وليس شقيقًا فحسب، بل هو شِقٌّ التوأم المتشابه.

أبراهام معادٍ للعنصرية وفي صف مانديلَّا، وأخوه الجنرال -الذي لا يكلمه منذ ثلاثين عامًا- في صف البيض العنصريين. أدرك أبراهام أن البلاد تغرق بالتدريج في الدم. فذهب إلى أخيه وكلمه.

وكان الجنرال كونستاند قد رفض عدة وساطات للقاء مانديلَّا. فأخذه أخوه إلى مانديلَّا. صافحه مانديلَّا وخاطبه بلغته الأفريكانية وبلقبه: أيها الجنرال. صب له الشاي، وعليه الحليب، ثم السكر. وبكل بساطه.. سحره.

ورجع كونستاند ڤيلجووين إلى جماعته وهدَّأ من رَوعهم. لقد عرف أن مانديلَّا يريد بالبلاد كلِها خيرًا.

وجرت الانتخابات بسلام، ونُصِّب مانديلَّا رئيسًا. وحمل جنوب إفريقيا من قاع الجحيم العنصري درجة درجة لكي تتصالح مع نفسها. وبانتهاء عُهدة السنوات الخمس تنحى بسلام. وعاش بعدها حتى بلغ الخامسة والتسعين.

مات مانديلَّا راضيًا باسمًا ناسيًا أكثر من ربع قرن هي زهرةُ عمره قضاها في السجن، قانعًا بأنه حقق لشعبه بداية الطريق نحو المساواة، وحقق لبلده السلام. قَلَّ رجلٌ بكاه العالم كلُه، مثلما بكى نيلسون مانديلَّا.

غيورغ دوكڤيتس

العام ١٩٤٣. المكان الدنمارك. البلد تحت حكومة موالية لألمانيا النازية، والجيش الألماني يرابط في الدنمارك. لم تتعرض الحكومة لليهود الدنماركيين، تركتهم يعيشون حياتهم الطبيعية.

وذات ليلة كان أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي يعقدون اجتماعًا لهم، وفجأة طرق الباب رجل يرتدي بزة عسكرية ألمانية. دخل، كان مرتبكًا. قال للمجتمعين: «غدًا في الثامنة صباحًا، سيطرق الجنود أبواب المنازل اليهودية، وهناك سفن في الميناء تنتظرهم، وهي مهيئة لحمل سبعة آلافٍ منهم إلى

معسكرات الاعتقال». قال ذلك ودار على عقبيه وانصرف. فوجم الحاضرون لحظة. لكنهم هبوا للعمل. ساعدتهم الشرطة الدنماركية، وساعدهم الناس. وفي ساعات الليل، تم تهريب اليهود إلى القرى الساحلية، وإلى منازلَ غيرِ منازلهم في المدن. كانت عمليةً شارك فيها الآلاف، في تلك الليلة وفيما تلاها.

لم يجد النازيون أحدًا يسوقونه لحتفه. وبالتدريج تم تهريب يهود الدنمارك إلى السويد.

أقر النازي المعروف أدولف آيخمان بعد سنوات بأن الدنمارك كانت صعبة جدًّا لأن الناس لم يتعاونوا. كل الناس كانوا يصرون على أن كل مواطن له حق دستوري كغيره.

حتى ذلك النازي الألماني غيورغ فرديناند دوكڤيتس، ذلك الرجل الذي حذر الدنماركيين مما يراد باليهود في بلادهم، تعاطف مع ما في عقيدة المواطنة في الدنمارك، فبلَّغ الوطنيين عن الخطة النازية. كان دوكڤيتس مسؤولًا ألمانيًّا ضمن جيش الاحتلال في الدنمارك. وتجاوز مجرد التحذير فركب الخطر وسافر إلى السويد ليرتب نقل اليهود الدنماركيين إليها. نجا خمسة وتسعون بالمئة من يهود الدنمارك بسبب مبادرة من هذا الرجل، والرقم من الويكيبيديا. وقد عاش دوكڤيتس حتى عام سبعة وسبعين، ولم ينكشف أمره إلا بعد سقوط النازية، وعمل في وزارة الخارجية الألمانية وترقَّى إلى وظيفة وزير مساعد.

دوق ولينغتون

كانت أمه تقول: «لا والله ما أدري ما أصنع بآرثر؟» كان فتى طويلًا فيه حمق وعجرفية. هذا هو الذي سيصبح يومًا دوق ولنغتون، الذي هزم نابليون في واترلو.

كان جنوده يسخرون من قائدهم ويسمونه الأنفَ العتيق، لضخامة أنفه. وجاء له أنفه الطويل بعبارة من أبلغ عبارات المدح. كتب أحد جنوده: «لَأن نرى أنفه الكبير معنا في الميدان أحبُّ إلينا من رؤية تعزيز بعشَرة آلاف جندي».

تكبر أنوفنا كلمنا كبرنا، ولكننا تحت المثل العربي القديم: أنفك منك وإن كان أجدع. ولعل الشاعر ابنَ الرومي كان صغير الأنف، وإلا لما هجا فقال:

إن كان أنفُكَ هكذا

فالفيلُ عندكَ أَفْطَسُ

وإذا جلستَ على الطَّريـ

ـقِ، ولا أرى لك تجلسُ

قيلَ: السلامُ عليكُما

فتُجِيبُ أنتَ، ويَخْرَسُ

ونسب إلى ابن الرومي قولُه في رجل كبير الأنف اسمه ابن حرب:

لك أنف يا ابنَ حربٍ

أنِفت منه الأنوفُ

أنت في القدس تصلي

وهو في البيت يطوفُ

نقول هذا ونستغفر الله. ومن كان بيته من زجاج لا يرشق بيوت الناس بالحجارة.

سينيكا ونيرون

أدرك الفيلسوف والمسرحي الروماني المولود في قرطبة لوسيوس سينيكا أن الحروف صارت غائمة أمام عينيه عندما أسنَّ فكان يستعين بزجاجة يضع فوقها قطرة ماء، فتصبح عدسة مكبِّرة. هذا الأديب الفيلسوف كان مستشارًا للإمبراطور نيرون. ثم اشتبه نيرون بأن لسينيكا ضلعًا في مؤامرة عليه، فأمره بالانتحار. فقطع شريانه، فلم ينزف كثيرًا لنحوله، فتناول سمًّا فلم يمُت، فأمر بحوض فيه ماءٌ مغلي حتى يتحرك الدم في جوفه وينزف. ومات بين تلاميذه. وحاولت زوجته أن تنتحر، لكنهم عاجلوها فعالجوها، وضمدوا جراحها فعاشت.

مات سينيكا والدخان ما زال يتصاعد من روما التي قيل إن نيرون أحرقها. قيل أحرقها لتوسيع قصوره. وقيل أحرقها ليتهم بها معتنقي المسيحية. وقيل كان حادثًا.

الجنرال المجرم

كان إنجاز الإيطاليين في ليبيا أن شنقوا المجاهد عمر المختار. لم يراعوا ذلك المبدأ الذي يقضي بنفي القائد بعد انجلاء غبار المعارك، والقبض عليه. الذي ارتكب هذه الفظيعة هو الذي يسمونه بالإيطالية «جزَّارَ فزَّان». هو المارشال رودولفو غراتسياني.

في الحرب العالمية الثانية: عندما هجم الإنجليز انهزم غراتسياني واندحر، ولولا تدخلُ روما ثعلب الصحراء الألماني لكانت نهاية الجنرال وجنوده مؤلمة. كان غراتسياني القائدَ العام للجيش الإيطالي، ولكن عندما قرر بنيتو موسوليني غزو اليونان لم يكلف نفسه إبلاغَه، سمع غراتسياني بإعلان الحرب على اليونان من الراديو. وظل مواليًا لموسوليني. وهُزم الإيطاليون في اليونان شرَّ هزيمة، وكان لا بد من التدخل الألماني. وأصبح موسوليني لعبة بيد هتلر الألماني.

وفي الحبشة، أثيوبيا، كان غراتسياني في صدارة الحملة الإيطالية. كان يقف في حفل وبجانبه رجلُ دين حبشي، ورجال الدين يقفون في الغالب.. مع الغالب. وفي الحفل أُطلق الرصاص على غراتسياني، ونجا. وبعد أن نجا، أمر جنوده بذبح الناس في أديس أبابا: بقروا بطون الحوامل، وقطّعوا أوصال الرضع، وحفروا حُفرًا وكانوا يوقفون الرجل على شفير الحفرة ويقتلونه ليهوي في حفرته دون أن يكلفوا أنفسهم عناء حمل جثته.

كان الجنود الإيطاليون، من الحثالة الاستعمارية، يحتفلون فوق جماجم الأحباش. قتلوا في ثلاثة أيام خُمس سكان العاصمة. قتلوا تسعة عشر ألفًا ومئتين، بحسب الدراسات التاريخية الغربية الموثقة. والرقم الأثيوبي أعلى بكثير.

فعل الجنرالات ما كادت البشرية تنساه من قطع الرؤوس والاحتفال بقطعها. وانهزمت إيطاليا شر هزيمة في الحرب العالمية الثانية. وشنق الناس موسوليني. لكن لعبة اللعبة غراتسياني لم يحاكم. أعطى تشرشل لإيطاليا صك البراءة، فالاستعماري الكبير لا يهمه ما فعلته إيطاليا بأهل المستعمرات.

كان رودولفو غراتسياني صاحب قلم، وله عدة كتب. لكن هذا القلب الميت لم يخرج منه سوى الافتخار التافه بأمجاد الآباء والأجداد.

بعد محاولات عديدة لمحاكمته كمجرم حرب حبسوا غراتسياني، لكنه خرج بعد أربعة أشهر. وبعد عشر سنوات من انتهاء الحرب مات على فراشه. وأقاموا فوق قبره ضريحًا، ما زال يُزار.

على دول أوروبا أن تعتذر لشعوب كثيرة. وهي في الغالب ستعتذر، لكن بعد أن تمر سنوات كثيرة تحيل هذا الاعتذار إلى مجرد كلام. وأوروبا ليست مستعدة لتعويض الشعوب. فأما أن ألمانيا قد عوضت اليهود عن الجرائم التي ارتكبتها بحقهم فهذا ليس من باب الكرم الأوروبي، لكن لتعزيز كيان استعماري جديد هو دولة إسرائيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أهل الله

عمر بن الخطاب

أعزَّ الله الإسلام بعمرَ بن الخطاب. كان ثالثًا بعد النبي ﷺ وبعد أبي بكر في قيادة العصبة المؤمنة. وكان ذا رأي حصيف، على ما فيه من حدَّة. وبعد وفاة النبي ﷺ عرف عمرُ كيف يكونُ وزيرًا ناصحًا، ولم يطمح ببصره إلى منافسة أبي بكر، بل ساعده، فكان الرجلان بهذا الالتحام قوة عظيمة. وتولى عمرُ الخلافة، وفي السنينَ العشرِ التي قضاها في الخلافة أسَّس التاريخ الهجري، وأرسل البعوث ففُتحت للمسلمين بلاد كثيرة: شرقًا فارسُ وما بعد فارس، وغربًا مصرُ، وشَمالًا بلادُ الشام. ما يثير خيالَ الشباب في شخصية عمرَ على مدى القرون أمران: ثباته على المعتقد، وتعفُّفه عن متاع الدنيا. هذا الرجل الشامخ جاهر قريشًا بهجرته ووقف على فرسه في ناديهم وقال: «شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس (أي الأنوف). من أراد أن تثكُلَه أمه أو يرمِّلَ زوجتَه فليلقني وراء هذا الوادي». وكان عمرُ لا يأكل اللحم مع اللبن، ويقول لا آكل إدامين في آن واحد. نحر مرةً بعيرًا فأطعم الناس، وجيءَ إليه بأطايب اللحم، فرفضه قائلًا: «بخٍ بخ! بئس الوالي أنا إن أكلت أطايبها، وأطعمتُ الناس كراديشها». ارفعْ هذه يا غلام، وهات لنا طعامًا غيرَ هذا الطعام. فجيء بخبز وزيت، فجعل يكسرُ ويثرُد.

أبو ذر الغفاري

كان فارسًا مغيرًا يركب فرسَه ويقطع الطريق، ويعود بالغنيمة الجاهلية إلى أهله من قبيلة غِفار بين المدينة والشام، وكانت فيه حِدَّةٌ وقسوة. لكنه لم يعبد صنمًا. جاءه خبر دعوة النبي ﷺ، فأرسل أخاه يستطلع له خبرَ هذا الرجل الذي ظهر بمكة. فعاد أخوه وقال له: «رأيتُه يدعو إلى مكارم الأخلاق». قال أبو ذر الغفاري: «ما جئتَ بشيء». وركب إلى مكة، وليس بها ممن أسلمَ إلا أربعةُ نفر أو خمسة. ولبث فيها لا يسأل أحدًا حتى جنَّه الليل، فرآه عليُّ بن أبي طالب، فأخذه إلى النبي ﷺ. فما سمع أبو ذرٍّ قول النبي ﷺ حتى أسلم لوقته. فأمره النبي ﷺ أن يكتمَ أمرَه وأن يأتيَ قومه غِفارًا، فيدعوَهم. غير أن أبا ذر أبى قائلًا: «والذي نفسي بيده لأصرُخن بها بين ظهرانيهم»، وجهر بإسلامه في مكة، فأخذه رجال قريش وضربوه حتى أضجعوه، وما خلَّصه منهم إلا العباسُ عمُّ النبي ﷺ، قال لهم: «ويحكم هذا من غِفار، وهم على طريق تجارتكم إلى الشام». فتركوه. وذهب أبو ذرٍّ إلى قومه فدعاهم فأسلم منهم خلق كثير. وانقلبت حياة أبي ذر من قطع الطريق إلى الزهد. لحق أبو ذر بالنبي ﷺ إلى المدينة بعد الهجرة. وذات غَزاة تخلف أبو ذرٍّ فقال الناس:

«قد تخلّف أبو ذر»، وأرجفوا به. وكان بعيرُه قد خذله. فحمل أبو ذر متاعه على ظهره ولحق بالقوم ماشيًا. فظهر للناس من بعيدٍ شبحُ رجل يمشي متثاقلًا. قال النبي ﷺ: «كن أبا ذر!» وكان. ولما التحق بالقوم قال النبي ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده». وعاش أبو ذر طويلًا، وأدرك خلافة عثمان. وكان حادًّا لا يقبل في الله لومة لائم. ورأى ما لم يوافقه، فنفى نفسه إلى الرَّبَذة في الصحراء. وأوصى أهله أن يكفِّنوه إذا مات ويتركوه على قارعة الطريق. فلما مات فعلوا ذلك. فمر عبد الله بنُ مسعود، فسأل: «من الميت؟» فقيل: «هو أبو ذر». فتذكر حديثَ النبي ﷺ، فدفنه بنفسه.

عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أقلَّتِ الغبراء ولا أظلَّتِ الخضراء، أصدقَ لهجةً من أبي ذر».

عمر بن عبد العزيز

ثمة قصة يرويها الأقدمون عن ملك الروم: استقبل ملكُ الروم وفدًا من المسلمين وهو على سرير المُلك وعليه تاجُه وبيده صولجانُه، وحوله وزراؤه في أبَّهة المُلك، وقضى الوفدُ مصلحته وأدى سِفارته وانصرف. وفي اليوم التالي استدعى قيصر الروم الوفد، فدخلوا عليه فإذا هو قد اقتعدَ الأرض وخلع التاج، ورمى بالصولجانِ، فعجبوا. قال لهم: «قد أتانيَ الليلةَ البارحة أن صاحبَ أمرِكم قد مات». فبكى أفراد الوفد وبكى قيصرُ لبكائهم. لقد أبلغهم بأن خليفتَهم عمر بن عبد العزيز قد مات. وقال لهم قيصر: «إني لا أعجب لراهب ترك الدنيا وعبَدَ ربه على رأس صومعته، ولكني عجبتُ من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثلَ الراهب. إن أهل الخير لا يبقَون مع أهل الشر إلا قليلًا». فإذا كانت هذه القصة مما وضعه أهلُ القَصص، فإنها مع ذلك تعبر عن شخصية عمرَ بن عبد العزيز.

وفي هذا الباب الذي وسمناه برجال الله قصص موضوعة كثيرة. هي تمثل مشاعر العرب والمسلمين في عصور قديمة. هي جزء من تراثنا. ووجدان كل أمة يقوم على حقائق تاريخها.. وعلى خرافات تاريخها أيضًا.

تولى عمر بن عبد العزيز تولى الخلافة ثامنًا في خلفاء بني أمية، عام تسعة وتسعين للهجرة، فنزع الدنيا من قلبه، وردَّ المظالم ومنع شتمَ عليٍّ على المنابر، وعدل بين الناس حتى لقد لُقِّب بخامس الراشدين. بعد سنينَ طويلةً سنجد نقيب الطالبيين الشيعة، الشريفَ الرضي، يرثي عمر ابن عبد العزيز، رغم كلِّ ما يكنُّه الشيعة من بغض لبني أمية. قال الشريف الرضي:

يا ابنَ عبد العزيزِ لو بكتِ

العينُ فتىً من أمية لبكيتُكْ

غيرَ أَنِّي أقولُ إنَّك قد طِبْتَ

وإن لم يَطِبْ ولم يَزْكُ بيتُكْ

أنت نزَّهْتَنا عن السبِّ والقذفِ

فلو أمكن الجزاءُ جزيتُكْ

ولو انّي رأيت قبرَك لاستحييتُ

من أن أُرى وما حيَّيتُكْ

ديرَ سَمعانَ لا أغبَّكَ غادٍ

خيرُ ميْتٍ من آلِ مروانَ ميتُكْ

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنتين ونصفَ السنة، وقيل إنه مات مسمومًا. جدُّه لأبيه عبد الملك بنُ مروانَ، وجده لأمه عمرُ بنُ الخطاب، وتربَّى عند أخواله. فهذا من ذاك.

ابن حنبل

إمام جليل لا يختلف اثنان على تقواهُ وصبرِه وزهدِه، لكنه خلَّف أتباعًا تشدد بعضهم فأسرف، واعتدل بعضهم فتعايش. كان أحمدُ بنُ حنبلٍ ذا كاريزما جذبت الناس إليه في حياته وجذبتهم إلى مذهبه بعد موته. كاريزما تقوم على الزهد والصبر والتمسك بالمعتقد.

كان يعيش على كراء دكانين خلَّفهما له أبوه، وكان ربما استعان على عيشه بالتقاط الثمر أجيرًا عند المزارعين.

ابن حنبل شيباني عربي بغدادي. وهو المحدِّث صاحب المُسند المشهور. في زمن المأمون ثم المعتصم وقف في وجه المعتزلة وعارضهم في مسألة خَلق القرآن، فامتُحن، وتمسك بقوله، وضرب وسجن سنتين وأشهرًا. زاره عمُّه إسحقُ في سجنه، فقال لعمِّه: «لست أبالي السجن فهو مثل بيتي، ولا أبالي السيف، إنما أخاف خفقة بالسوط لا أصبر لها»، فسمعه أحد من بالسجن فقال له: «ما هو إلا سوطان ثم إنك لا تدري أين يقع الباقي»، فَسُرِّيَ عنه. وجاءه بعض محبيه في سجنه بماء مثلوج فسأل: «أنالَ كلُّ من بالسجن هذا الماء؟» فقيل: «لا». فأبى أن يشربه.

ومات المعتصم وتولى الخلافةَ الواثق فاستمر في مناصرة المعتزلة. غير أنه أخرج ابن حنبل من سجنه وأرسل إليه ألَّا تساكِنَني في بلد. فتشرد ابن حنبل

في البلاد، ثم عاد إلى بيته متواريًا لا يخرج، حتى مات الواثق. وتولى المتوكل الخلافة فرفع المحنة عن أهل السنة، وأحسن إلى ابن حنبل. مدح أحدهم ابنَ حنبل بصبره وثباته، فقال له ابن حنبل: «بل ذاك أخي أحمدُ بنُ نصر الخزاعي»، أغلظوا له القول فأغلظ لهم وما خافهم، فضربوا عنقه. عاش ابن حنبل بعد رفع المحنة اثنتين وعشرين سنة. كان يخرج من الصلاة فيتبعه الناس، فيقف حتى ينصرفوا ثم يسير وحده إلى بيته. وكان صديقًا للإمام الشافعي. قال الشافعي:

قالوا يزورُك أحمدٌ وتَزورُهُ

قلت: الفضائلُ لا تفارقُ منزلَهْ

إن زارَني فبفضلِه أو زُرتُهُ

فلِفضلِه، والفضلُ في الحالينِ لَهْ

ومهما طلب الإمام أحمد الخمول راضيًا بالاشتغال بجمع الحديث فقد كان يزداد تعلقُ الناس به. قيل له مرة إن أهل البدع قد كثروا، فقال: «بيننا وبينهم الجنائز». ومات أحمد بن حنبل عن سبع وسبعين سنة. يقول ابن كثير: «ما اجتمع خلق في جاهلية أو في إسلام مثلما اجتمع في جِنازة أحمد بن حنبل».

كان ابن حنبل سريع العفو عمن أساء إليه، بلغه في سجنه أن المعتصم فتح عمُّورية فسامحه ودعا له. على أن حنابلة بغداد أسرفوا في التشدد بعد موت إمامهم، فاعتدوا على المخالفين، وأرهبوهم.

محمد بن جَرير الطبري

بعد أن فرغ من تفسير القرآن الكريم في كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وهو من أكبر التفاسير حجمًا وأوسعِها شهرة، انصرف محمد ابن جرير الطبري إلى التاريخ، فكان أولَ مؤرخ سار على نهج الحوليَّات: يذكرُ الأحداث سنةً سنةً متدرجًا. بدأ بالتاريخ القديم فقصَّ علينا قصصَ الأنبياء والرسل من آدمَ حتى بلغ إلى عصرِ النبي ﷺ. ثم ازدادت التفاصيل. ساق الطبري الرواياتِ المختلفةَ، وكثيرٌ منها كان منقولًا عن كتب لم تصلنا، ومن هنا بعضُ قيمة الكتاب. لم يمتنع الطبريُّ عن إيراد القصص المتضاربة، بل قدَّم لنا في تاريخه الضخم كلَّ ما وصل إليه علمه. وعلى القارئِ والباحث بعدُ أن ينخلا.

وُلد الطبري في آمُل بطبرستان، وهي على بحرِ قَزوين. وجاء إلى بغدادَ يطلُبُ العلم. وعُرف عنه منذ حداثته أنه كان زاهدًا. عمل في بغدادَ في تعليم صبيٍّ لأحد الكبراء. فلما أتقن الصبي الكتابة، طاف الصبي بلوحِه في أرجاء

القصر، فجمعت الجواري للمعلم الشابِّ الدراهمَ والدنانيرَ الكثيرةَ في الصواني، فرفض الطبريُّ الفتى أن يأخذَ إلا الدريهماتِ التي اتَّفق عليها مع والد الصبي، قائلًا إن دراهم الجواري ليست بمالٍ حلالٍ لأنهن غيرُ حرائر. كان الطبريُّ شديد الحساسية لكلِّ مالٍ حرام. وسنراه بعد أن يَذيعَ صيتُه يردُّ أعطيات الوزراء، ويرفض حتى أن يتصدَّق بها. وقد ارتحلَ في طلب العلم إلى مصرَ وإلى مدن العراقِ وعاش ومات عَزَبًا.

يحدثنا في تاريخِه عن بناءِ بغداد، وكيف أن الخليفةَ المنصورَ أمر فخُططت المدينةُ بالرماد، ثم أمرَ فوُضع القطنُ فوق خطوطِ الرماد وصُبَّ عليه النِّفط وأُشعل، وأخذَ المنصورُ ينظرُ من علُ إلى مخططِ مدينته، ثم باشرَ الفَعَلة بالبناء. ويسوقُ رواياتٍ كثيرةً عن تفاصيل بناء بغداد.

لزم الإمام محمد بن جرير الطبري بيته يؤلف. جاع يومًا فأرسل كُمَّ ردائه إلى السوق ليباع بدراهم يُشترى له بها الخبز.

عاش الطبري ستًا وثمانين سنة كتب لنا فيها تاريخنا، وفي آخر حياته كافأه الرعاع في بغداد بأن حاصروا بيته. لقد حرضهم الفقهاء الذين لم يملكوا عشر معشار علم الطبري وتقواه، فهاج الطَّغام، فظل الطبري محاصرًا في بيته حتى مات. ومنع السفلة إخراجه ميتًا، فدُفن في صحن منزله بالأعظمية ببغداد عام ثلاثمئة وعشَرَة هجرية.

ديزموند توتو

في عيد الميلاد من عام ٢٠٢١ أتمَّ ديزموند توتو تسعين سنة وشهرين هي كل عمره. حوَّل ديزموند توتو -أسقفُ جوهانسبرغ الأسود- المسيحية الأنجليكانية من أداة يستعملها المستعمر إلى أداة نضال ضد الفصل العنصري. أيَّد اللاعنف والتسامح، ولكنه أيد نلسون مانديلَّا في نضاله بأشكاله. عاش إفريقيًّا ضاحكًا مازحًا. لم يجعله الفصل العنصري غاضبًا. ولم يجعله مستكينًا، ولا مسكينًا، وظل يسدد إصبع الاتهام إلى العنصريين. فضحهم في العالم.

قصة دحرِ العنصرية في جنوب إفريقيا عملةٌ ذاتُ وجهين: نلسون مانديلَّا، وديزموند توتو. قال ديزموند توتو:

• المحايد في زمن الظلم مؤيد للظالم.

• عندما جاء المبشرون إلى إفريقيا كان معهم الكتابُ المقدس، وكان معنا الأرض. قالوا فلنصلِّ. أغمضنا أعيننا، وعندما فتحناها كان معنا الكتابُ المقدس، وكانت الأرض معهم.

• إذا سعيت إلى السلام فأنت لا تخاطب أصدقاءك، بل أعداءَك.

• لا أريد التقاط فتات التعاطف من موائدِ من يَعدَّون أنفسهم أسيادي. أريد حقوقي، وقائمةَ الطعام كاملة.

• كم وددت لو سكت، لكن لم أستطع، ولا أريد.

• سنتعجب كثيرًا من بعض من سنلاقيهم في الجنة، فالله يحنو على الخاطئين.. متطلباته قليلة.

• زرت المناطق الفلسطينيةَ المحتلة، ورأيت شوارع العزل العنصري، وذكرتني بظروف جنوب إفريقيا تحت نظام الفصل العنصري.

• كن لطيفًا مع البيض، فهم يحتاجونك لإعادة اكتشاف إنسانيتهم.

• الله مبتسم دومًا لأنه، وحده، يعرف ما الذي سيحدث لاحقًا.

عمرو بن عُبيد

كان عمروُ بنُ عبيدٍ معتزليًّا زاهدًا - هذا قبل أن يصبح الاعتزال المعتقدَ الرسميَّ للدولة العباسية - وكان صديقًا لأبي جعفرِ المنصور قبل أن يصبح للعباسيين دولة. فلما تولى المنصور الخلافة طلبه وقال له: «عظني». قال عمرو: «احذر يومًا لا يوم بعده». وتهيأ للقيام. فقال المنصور: «قد أمرنا لك بعشَرة آلاف درهم». قال عمرو: «لا حاجة لي بها». فقال المنصور: «والله لتأخذنها». قال عمرو: «والله لا آخذها». وكان محمد المهدي ابن الخليفة حاضرًا، فقال: «يحلف أميرُ المؤمنين وتحلفُ أنت بضد ما حلف؟» فالتفت عمروٌ إلى المنصور وقال: «من هذا الفتى؟» قال المنصور: «ابني ووليُّ عهدي». فقال عمروٌ للمهدي: «يا ابن أخي، أبوك أقدر على الكفَّارة من عمك». قال المنصور: «فهل إليك حاجة؟» قال عمرو: «لا تبعث إليَّ حتى آتيك». قال المنصور: «إذن لا تلقاني أبدًا». قال عمرو: «هي حاجتي». وولَّى منصرفًا. فأتبعه المنصور بصره وتمثل قائلًا:

كُلُّكُم يمشي رُوَيدْ

كُلُّكُم طالبُ صَيْدْ

غيرَ عمروِ بن عُبَيْدْ

محمد عبده

هذا فلَّاح مصري رفض أن يحفظَ دونَ أن يفهم. فكان عقلًا كبيرًا، ورجلًا من عظماء الرجال.

حفظ محمد عبده القرآنَ في قريته، وأرسله أبوه الفلّاح الموسرُ إلى طنطا القريبة ليتعلمَ التجويدَ في الجامع الأحمدي. وكرهَ النحوَ الذي قضى في تعلُّمِه سنةً ونصفًا ولم يفهمه، وأراد أن يلتحقَ بأخويه ليكون فلّاحًا. ولكن شيخًا متصوفًا فتح في عقله بابَ الفهم، فواصل الفتى السيرَ في طريقِ العلم، وتوجَّه إلى الأزهر. يقول محمد عبده إنه غضبَ على كتاب من الكتب العقيمة في الأزهر فجعله وَقودًا وطبخ عليه العَدَس.

ونال الطالبُ الأزهري الشابُّ درجةَ العالِـمِيَّة بيسر، فقد كان متوقِّدَ الذهن. وعندما كان في نحوِ العشرينَ من العمر حلَّ بمصرَ إعصارٌ فكريٌّ في شخص جمال الدين الأفغاني، فاتصل به الفتى محمد عبده.

عرف محمد عبده من جمال الدين أن هناك كتبًا في العلم والتاريخ والفلسفة غيرَ التي تدرَّس في الأزهر. ثم بدأ محمد عبده يحرِّر جريدةَ الوقائع المصرية نافخًا فيها روحًا جديدة في المضمون والأسلوب، وكان يستمدُّ الدعم من رئيس النُّظَّار مصطفى رياض. ثم سَرعان ما قامت الحركةُ العرابية بقيادة أحمد عرابي. نصح محمد عبده لرجال الحركة أن يتريَّثوا في مطالبهم، ولكنه مع اشتداد الثورة غدا مِن مناصريها. فسُجن أشهرًا ثم نُفي إلى بيروت. أخذ يفسِّرُ آياتِ القرآن في مساجدِ بيروت، وحقَّق وشرحَ هناك نهجَ البلاغة ومقاماتِ بديع الزمان.

وارتحل محمد عبده إلى باريس ليصدرَ مع أستاذه الأفغاني مجلةَ العُروة الوُثقى التي صدرت لأقلَّ من سنة، ولكنها مثَّلت فيما نشرته دستورًا لنهضة الأمة الإسلامية.

ولم يُسمح لمحمد عبده بالعودة إلى مصر إلا بشرط تجنُّب السياسة. ووافق. عادَ بمساعي تلميذِه سعد زغلول، وبضغطٍ مارسه المندوبُ السامي اللورد كرومر على الخديوي توفيق.

لم يكن محمد عبده قد بلغَ الأربعين ولكنه كان ذا حضورٍ طاغ، وأخذ ينفِّذُ مشاريعَه الإصلاحيةَ في التعليم والقضاء بجرأة، مسايرًا الخديوي توفيقًا تارة، ومجاملًا الإنجليز تارة. وأصبح مفتيًا للديار المصرية، وصدرت عنه فتاوى تبلغ الألفَ عددًا: سُئل عن ذبائحِ النصارى فقال: «سَمُّوا عليها وكلوها»، وسُئل عن البُرنيطة فقال: «من شاء فليرتَدِها»، لكنه ظلَّ على عمامتِه وقُفطانه. ومات توفيق وتولى عباس حلمي، وظل محمد عبده يناوئ القصر.

كان محمد عبده رجلًا ذا غَضَبات، يغضب لدينه ولوطنه، ويغضب من سفه السفهاء. ولكنه ظل يقتبس العلم. وجد أنه لا غنى عن لغة أوروبية، فتعلم الفرنسية وقد جاوز الأربعين، وأجادها. واتصل بكبار المستشرقين في أسفاره إلى فرنسا وسويسرا وبريطانيا.

كان يُستقبل استقبالَ الملوك أينما حل. ما كان أصدقَ بصيرةَ جمال الدين الأفغاني عندما قال له: «في جِلدِك مِلِكٌ من الملوك».

وظل الأزهر وإصلاحُه هاجسَ محمد عبده حتى النهاية، وقد قال في مرضِه الأخيرِ:

ولستُ أُبالي أن يقال محمدٌ

أَبَلَّ أم اكتظَّتْ عليه المآتمُ

ولكنَّ دينًا قد أردتُ صلاحَه

أُحاذرُ أن تقضي عليه العمائمُ

توفي الشيخ الإمام محمد عبده وعمرُه ستٌّ وخمسون سنة. عاش مِلِكًا متوجًا بعِمامة، وعندما مات ظلت أفكارُه التي غرسها في عقول كبار مثقفي مصر حية، وظلت تنمو.

ولماذا نظل نتذكر الإمام محمد عبده؟ أولًا: لأن المتشددين الذي هاجموه في حياته ما زالوا موجودين اليوم، ويهاجمونه. ثانيًا: لأنه الشيخ المتمرد. ثالثًا: لأنه المفتي السياسي صاحبُ الرأي، الذي كان يرواغ الخديوي والإنجليز في الوقت نفسه، ومع ذلك، ويا للعجب، يظل صديق المحرومين. كل ما اقترفه الشيخ الإمام في السياسة سياسة، وظل إنسانًا كبيرًا.

ولأنه ظل يقارع الخديوي فإن شاعر الخديوي أحمد شوقي لم يرثه إلا بثلاثة أبيات باردة. منها البيت:

مفسرَ آي الله بالأمس بيننا

قُمِ اليوم فسِّرْ للورى آيةَ الموتِ

ولكن حافظ إبراهيم تلميذَ الإمام رثاه بقصيدة عامرة:

سلامٌ على الإسلامِ بعدَ محمدٍ

سلامٌ على أيامِه النَّضِراتِ

لقد كنتُ أخشى عادِيَ الموتِ قبلَه

فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتي

لقد جَهلُوا قَدْرَ الإمامِ فأوْدَعُوا

تجاليدَه في مُوحِشٍ بِفَلاة

لكن ضريح الإمام لم يعد في مكان موحش، هو في قلب القاهرة الآن. قال الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية:

• من عرف قيمة الحق عز عليه أن يراه مهانًا.

• ما أيسر أن تعارض الأمر الذي تجهله.

• حياة كل أمة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه، ومن غالَبَ الزمان غلبه الزمان.

• إن فكرًا مقيدًا بالعادات واستبد به التقليد فكر لا قيمة له.

• من لا يذوق لذة العمل الاختياري لا يذوق لذة الراحة الحقيقية؛ لأن الله تعالى لا يجعل الراحة بغير عمل.

• من لا يعتقد بما يقول، لا يبقى لمقاله أثر في العقول.

• لا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وُجدت القوة لإقامة الحدود.

• لا صلاح في الاستبداد بالرأي حتى وإن خلصت النيات.

• شر السلاطين من خافه البريء.

• أوروبا تركت الدين وتقدمت، ونحن تركنا الدين وتأخرنا.

• الفساد يهبط من أعلى إلى أدنى، والإصلاح يصعد من أدنى إلى أعلى.

• الباطل لا يصير حقًّا بمرور الزمن.

• الإيمان بالله يرفع النفوس عن الخضوع للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية أو الدنيوية.

الإمام علي

جمع الشريف الرضي خُطَب الإمام عليٍّ كرم الله وجهه وأقواله بين دفتي كتاب سمَّاه نهج البلاغة، وقد يكون شاركه في التأليف أخوه الشريف المرتضى. ويشكك كثيرون في نسبة بعض ما في الكتاب إلى الإمام عليّ، إما لأن العبارةَ لم تكن معهودةً في زمن الإمام علي، وإما لأن طريقة رصف الكلام تشبه ما كان يكتب في العصر العباسي حين تأثرت الكتابة بعلوم الآخرين التي ترجمت إلى اللغة العربية.

وأشهر نسخ الكتاب اليوم ما شرحه الإمام محمد عبده. وهناك شروح أكبر كشرح ابن أبي الحديد، وشرح الميرزا حبيب الله الخوئي.

كثيرون يرون أن هذا الكتاب لا بد أن يكون مما نطق به الإمام علي لما فيه من بلاغة وقوة، فهو دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق كما وصفه بعضهم. وفي رأيي أن الكتاب كله موضوع.

في حديثي عن الشخصيات الكثيرة التي في كتابي هذا أعرض صورة للشخصية ساعيًا إلى أن تكون صورة حقيقية ودقيقة، فإذا كان الناس قد أسبغوا على الشخصية القداسة وجعلوها ضمن ما يتغنون به من التراث، فأنا أسايرهم. فالإنسان يعيش حياته ويموت موته فهذا هو الواقع. وبعد ذلك فسيرته مِلكٌ للناس يزيدون فيها ما يشاؤون، ويصنعون لأنفسهم منه أيقونة. من فرائد الحكمة في نهج البلاغة:

• البخل عار والجبن مَنقَصة، والفقرُ يُخرِس الفَطِن عن حجَّته، والـمُقلُّ غريب في بلدته.

• صدر العاقل صندوق سره، والبشاشة حِبالةُ المودَّة، والاحتمال قبر العيوب.

• وقيل لسيدنا علي: «لو سُدَّ على رجل بابُ بيته، وتُرك فيه، من أين كان يأتيه رزقه»، فقال: «من حيث يأتيه أجله».

• لا تسأل عما لا يكون، ففي الذي قد كان لك شغل.

• يأتي على الناس زمانٌ لا يبقي فيهم من القرآن إلا رسمُه ومن الإسلام إلا اسمُه، ومساجدُهم يومئذ عامرة من البناء خرابٌ من الهدى، سكانُها وعُمَّارُها شرُّ أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة وإليهم تأوي الخطيئة، يردُّون من شذَّ عنها، ويسوقون من تأخر عنها إليها. يقول الله سبحانه: «فَبي حلفتُ لأبعَثَنَّ على أولئك فتنةً تترك الحليمَ فيها حيرانَ»، وقد فعل. ونحن نستقيل الله عثرةَ الغفلة.

وقد سردنا في آخر فصل من هذا الكتاب المزيد مما نُسب إلى علي ابن أبي طالب من أقوال.

عبد الله بن عباس

كان ابن عباس مضرِب المثل في العلم والبيان. قال ابن عمر: «ابن عباس فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول». وقيل: «ما وجدنا أحدًا أعلمَ بالسُّنة وأثبتَ في النظر من ابن عباس». وكان عمرُ بنُ الخطاب يُعِدُّه للمعضلات. وقال ابن مسعود: «ابن عباس تَرجمانُ القرآن». ولُقِّب بالحَبر وبالبَحر. ونظر معاوية يومًا إلى ابن عباس فتمثَّل قائلًا:

إذا قالَ لم يتركْ مقالًا لقائلٍ

مصيبٍ، ولم يَثنِ اللسانَ على هُجْرِ

يصرِّفُ بالقول اللسانَ إذا انْتَحى

وينظرُ في أعطافِه نَظَرَ الصَّقْرِ

أبو الدرداء وابن سيرين

قال أبو الدرداء: «أُحبُّ ثلاثةً لا يحبُّهم غيري: أحب المرض تكفيرًا عن خطيئتي، وأحب الفقر تواضعًا لربي، وأحب الموت اشتياقًا إليه». فذُكر ذلك لابن سيرين فقال: «ولكني لا أحب أيًّا من هذه الثلاثة. أما الفقر فوالله للغنى أحب إليَّ منه؛ لأن الغنيَّ يصل الرحم ويحج البيت ويُعتق الرقاب، ويبسُط يده للصدقة، وأما المرض فوالله لأن أُعافى فأشكرَ أحبُّ إلي من أن أبتلى فأصبِر، وأما الموتُ فوالله ما يمنعُنا من حبه إلا ما قدمناه من أعمالنا ورغبتنا في تقديم المزيد».

ذو النون المصري

كان ذو النون المصري رجلًا نوبيًّا، ارتفع ذكره وتبعه خلق كثير، فوشى به بعضهم، فحُمل إلى سامراء، وجيء به إلى المتوكل. فوعظ ذو النون الخليفة حتى بكى، وأعاده إلى مصر مكرمًا. وكان المتوكل إذا ذكر ذو النون قال: «إذا ذُكر أهل الورع فحيِّهَلا بذي النون». سئل ذو النون يومًا عن ابتداء أمره فقال للسائل: «هذا عجب لا تُطيق تصديقَه». فألح عليه قائلًا: «بمعبودك إلَّا أخبرتني!» فقال ذو النون: «خرجت إلى قرية أبتغي رزقًا، فأخذتني عيني وأنا في الصحراء، ففتحت عيني على قُبَّرة تصفق بجناحيها عند قدميَّ، فحركت قدمي فلم تطر، فعرفت أنها عمياء. وما هو إلا أن انشقت الأرض وخرج إناء فيه سِمسِم وإناء فيه ماء، فأخذت تلقُط من السِّمسم وتشرب من الماء. فقلت حسبي هذا، يرزقني الذي رزقها، ورجعت ولزمت نفسي أؤدبها». وكان ذو النون يقول: «لا تسكن الحكمة معدة مُلئت طعامًا».

أبو تراب النخشبي

كان أبو تراب النخشبي آية في الزهد. سافر من بلد إلى بلد سبعةَ أيام، وعندما وصل قُدِّمَ إليه طعام فأكل أكلًا خفيفًا، فقيل له: «كأنك أكلت قبل قليل؟» فقال: «أكلتُ في بيتي، وأكلت في خان بالطريق، وهذه ثالثةُ أَكَلاتي». وحدَّث النخشبي قال: «ما اشتهيت الطعام إلا مرة. كنت على مشارف بلد لا أعرفه، فتمنيتُ أن ألقى خبزًا وبيضًا. وندمت على أنني تمنيت ودخلت البلد. فإذا القوم في هياج، فوثب عليَّ رجل وتعلق بأثوابي وقال: كان هذا مع اللصوص. فبطحوني وضربوني سبعين خشبة، وما نجَّاني منهم إلا

رجل صوفي عرفني فصاح بهم فتركوني. وأدخلني منزله، وقدَّم إليَّ خبزًا وبيضًا. فوالله لقد أكلت، غير أنني كنت أقول لنفسي: كُلها بعد سبعينَ خشبة».

السّري السّقَطي

كان السَّريُّ السِّقَطيُّ تاجرًا في السوق، وجاءه يومًا معروفٌ الكرخي المتصوف ومعه يتيم، فقال له: «اكسُ هذا اليتيم». فكساه السَّريُّ، فدعا له معروفٌ قائلًا: «بغَّض الله إليك الدنيا، وأراحك مما أنت فيه». قال السَّري: «فقمت من فوري من الحانوت ولم أعُد إليه، وتركت الدنيا ونشدت الآخرة». ويُحكى عن السَّريِّ أنه لبثَ ثلاثين سنة يستغفرُ الله من كلمة قالها. والكلمة هي «الحمد لله». فكيف يستغفر المرء من كلمة «الحمد لله»؟ ذلك أن السَّري -في أيام اشتغاله بالتجارة- سمع أن حريقًا شبَّ في السوق فهُرع إلى السوق ليطمئن على حانوته، فقال له أحدهم إن حانوتك قد سلِم من الحريق: فقال السقطي: «الحمد لله». ثم -بعد أن تصوف- ظل يستغفر الله على أنه فرحَ بنجاة حانوته، بدل أن يأسى لما أصاب غيرَه. وكان من دعاءُ السِّقَطي: «اللهم مهما عذَّبتني بشيء فلا تعذِّبني بذُلِّ الحجاب». أي أن يحجب عن رؤية الجليل العظيم.

الحارث المحاسِبي

من رجال الله الذين تركوا الدنيا لأهلها الحارثُ المحاسِبي. ترك له أبوه سبعين ألفَ درهم فما أخذ منها شيئًا لأن أباه كان يقولُ بالقَدَر، مخالِفًا الجماعة. قال الحارث: «صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه لا يتوارث أهلُ مِلَّتين شيئًا». وكان الحارث إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عِرق فامتنع من تناوله. ورآه الجُنيد يومًا فقال له: «يا عمِّ، تدخل الدار، ونتناول شيئًا». فقال: «نعم». فقدَّم إليه طعامًا، فما تمكن من التقامه، وقام. ورآه الجُنيد بعد أيام فعاتبه. فقال له الحارث المحاسبي: «فمن أين كان طعامك؟» قال الجنيد: «طبق أُهدي إلي من عُرس». فبحثا في أمر العُرس فإذا هو لقوم في أموالهم شبهة. ودعاه الجنيد مرة أخرى، فدخل الحارث فقدَّم إليه الجنيد كِسَرًا من خبر ناشف. فقال الحارث: «إلى مثل هذا أدعى، ومثلَ هذا آكُل».

أحمد بن يحيى الجلّاء

اشتهى الفتى أحمد بن يحيى الجلَّاء أن يسير في طريق الزهد، فقال لأبويه: «أحب أن تهباني إلى الله عز وجل». فقالا: «قد وهبناك». فخرج من بيته يلتمس المعرفة. وبعد حين من الزمن، مرَّت به ليلة مطيرةٌ اشتدَّ بردها، فرجع إلى البيت ودق الباب، فقال له أبوه: «من ذا؟» فقال: «ولدُك أحمد».

فقال الأب: «كان لي ولد، ووهبته إلى الله، ونحن العربَ لا نسترد ما وهبناه». ولم يفتح له الباب. ومضى أحمدُ بنُ يحيى الجلَّاء في طريق الزهد، وكان يقول: «من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد، ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد، ومن رأى الأفعال كلَّها من الله، فهو موحِّد لا يرى إلا واحدًا».

أبو عمرو الزجّاجي

كان أبو عمرو الزجَّاجيُّ قد أخذ على نفسه عهدًا ألا يقول إلا صدقًا. ماتت أمه وتركت له بيتًا باعه بخمسين دينارًا، ووضعها في نطاقه وانطلق يريد الحج. فما بلغ مرحلةً حتى لقيَه قاطع طريق على فرس، فسدد إليه رمحه وقال: «ما معك؟» فتذكر الزجَّاجي عهده بأن لا يقول إلا صدقًا، فقال: «خمسون دينارًا». فقال: «ناوِلنيها». فأخذ اللصُّ الصرَّة وعدَّ الدنانير، فوجدها خمسين. فرمى بالصرَّة إلى الزجَّاجي، وقال: «قد أخذني صدقك». ثم نزل عن فرسه، وقال: «اركب». فقال الزجَّاجي: «لا أريد». فلم يزل به اللص حتى ركب. وسار الزجَّاجي والرجل يتبعه. ولم يزل له تابعًا تائبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أهل الأدب

بيرم التونسي

بيرم التونسي، ومشكلتي مع الوَتَر

في جسم الإنسان شيء لا هو شحم ولا لحم، ولا هو جلد ولا عصب. في الإنسان أوتار تربط العضلة بالعظم. أنت لا ترى أوتارك، لكنك ترى أوتار الدجاجة، تلك الخيوط البيض المتينة التي تكاد تستعصي على السكين. والآن أحدثك عن وتري، وتوجد في حديثي دجاجة.

لي عادة من غريب العادات، إذا سقط من يدي كوب فأنا أتلقاه بقدمي، فأحميه من السقوط على البلاط، فلا ينكسر. ذات يوم كنت أقطِّع دجاجة في المطبخ، وانزلق الساطور من يدي، وهوى أرضًا، وبالطبع تلقفتُه بقدمي. وانقطع وتر في مشط قدمي. وبسرعة إلى غرفة العمليات، وقالوا لي: «عُدَّ من واحد إلى عشرة»، وعددت حتى السبعة، وذهبت إلى مكان ليس فيه أحلام. صحوت في سرير أبيض. ثم ألبسوني الجبس حتى ما تحت الركبة، وصرفوا لي عكازتين. ولا تسل عن اهتمام النساء بي.

بي صُدوف عن المرأة، أو فلأقُل الحق، بالمرأة صدوف عني. وبالجبس والعكازتين تغيرت الحال. رأيت النساء -الصغيرة والكبيرة- يقبلن عليَّ، ويعرضن المساعدة، ويتحببن، ويتقربن. عشت شهرين من أجمل شهور حياتي. ما أشدَّ وَلَعَ المرأة بالرجل المهيض أو المريض!

ومثلما تحب المرأة العليل تحب القوي الواثق.

الآن ينصرف الحديث إلى بيرم التونسي صاحب «أهل الهوى يا ليل» و«هو صحيح الهوى غلاب». كان بيرم من فرسان الفصحى أيضًا. وله كتاب مقامات بيرم:

كان بعزق بن سعفانَ رجلًا عَزَبًا -هذا بطل المقامة السيكولوجية من مقامات بيرم- كان خجولًا مختلج الحركة تصد عنه النساءُ كل الصدود. ثم إن بعزقَ هذا تزوج، وخرج في صبيحة عرسه يتجول مع صديقه خلَّاف. يقول بعزق: «فوالله لا أدري ماذا جرى للسيدات، وماذا قَلَبَ الكائنات؟» ففي الترام:

على يميني امرأةٌ ضخمةٌ

ساعِدُها يحتَكُّ في ساعدي

ثُمَّتَ قالتْ للتي جَنْبها

يا حُسْنَ هذا الرجلِ القاعدِ

وفي الحديقة:

أبصرتُ سيدةً تُداعِبُ بِنتَها

وتُكَرِّرُ الحركاتِ والتَّنْكيتا

مِنْ بَعدِ هذا أخرجتْ سيجارةً

والبنتُ جاءتْ تَطلبُ الكِبريتا

قلت لخلَّاف: «ما بال الأشياء، تجري على غير ما نشاء؟ بالأمس كنت أنظر إلى المرأة فتنزوي، وأقتربُ منها فتلتوي، وأتبعها فتتركُ الرصيف، وتقول مشمئزَّةً يا لطيف. وها أنت تَراهُنَّ على العموم، يكدن يخلعن لي في الطريق الهدوم. فهل هذا من يُمن العروس، أم هو خَبَلٌ في الرؤوس؟ فقال خلَّاف: «هذه ظاهرة نفسية، شرحها علماء السيكولوجية. المحتاجُ كثيرُ الاختلاج، ومن اختلجَت أعصابُه، قلَّ من يَهابُه. والمرأة لا تُحِبُّ غيرَ الأقوياء».

حسبي الله -وهذا الآن كلامي- على التي تحب المجبَّسينَ الضعفاء، وتحب الأصحَّاءَ الأقوياء، وتنصرف عمن هم بين بين ولو كانوا من الفضلاء.

بيرم وابن منظور

بين مصر وتونس منافسة في ثلاث. في الثورة، وفي ابن منظور، وفي بيرم. فقد سبقت تونس بثورتها 2010، وتبعتها مصر. وحققت ثورة تونس أشياءَ، وأخفقت ثورة مصر في جُل الأشياء.

ابن منظورِ الإفريقي الرويفعي منسوب إلى تونس، وإفريقيَّةُ عند قدمائنا هي تونس. وهو رجل عربي يعود بنسبه إلى الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري الخزرجي. فكيف تنافس مصرُ تونسَ في الرجل؟ ارتحل ابن منظورٍ إلى مصر، وفيها ألَّف معجمه المشهور لسانَ العرب. قال في المقدمة: «جمعت هذا الكتاب في زمان، أهله بغير لغته يفخرون. وصنعتُه كما صنع سيدُنا نوحٌ عليه السلامُ الفلك وكان قومُه منه يسخرون. وسميته لسانَ العرب». ولابن منظور إقامةٌ في طرابلس الغرب، وجعل بعضهم مولدَه فيها. قال ابن منظور، متغزلًا:

توهَّمَ فينا الناسُ أمرًا وصمَّمتْ

على ذاك منهم أَنفُسٌ وقلوبُ

وظنَّوا وبعضُ الظنِّ إثمٌ، وكلُّهُمْ

لِأقوالِه فينا عليه ذنوبُ

تَعالَيْ نحقِّقْ ظنَّهُمْ لِنُريحَهُمْ

مِنَ الإثمِ فينا مرةً، ونَتوبُ

أما بيرم التونسي فتونسي، لا مِراء. أصله من تونس، وكانت تونس أحدَ منفَيَيه. غير أنه إسكندريُّ المولد واللهجة. وكتب أزجالًا كثيرة كلها في أحوال مصر، وبلهجة أهل مصر. ها هو يهجو الملكَ فؤادًا الذي نصَّبه الإنجليز على عرش مصر بعد وفاة أخيه السلطان حسين كامل، ثم جعلوه ملكًا فنودي بـ «ملكِ مصرَ وسيدِ النوبة وكردفانَ ودارفور». قال بيرم:

وِلما عَدِمْنا بمصرِ الملوك

جابوك الانجليز يا فؤاد قعدوك

تمثل على العرش دور الملوك

وفين يلقوا مجرم نظيرك ودون

وخلوك تخالط بنات البلاد

على شرط تقطع رقاب العباد

وتنسى زمان وقفتك يا فؤاد

على البنك تشحت شوية زتون

بذلنا ولسة بنبذل نفوس

وقلنا على الله يزول الكابوس

ما شفنا الا عرشك يا تيس التيوس

لا مصر استقلت ولا يحزنون

ووقوف فؤاد على البنك يشحت زيتونًا إشارةٌ إلى استدانته من المصرف في إيطاليا، وهو أمير متصعلك، يأكل مما يقترض. بيرم التونسي لم يُمنح الجنسية المصرية إلا بعد أن تجاوز الستين. وكم ذا بمصرَ من المضحكات، ولكنه ضحك كالبكا.

بيرم التونسي ومحمد عبد الوهاب

كان محمد عبد الوهاب متساهلًا في كلمات الأغاني. اللحن عنده كلُّ شيء، وخصوصًا في أغاني الأفلام، كان يطلب الكلمات الملائمة للمشهد، ولا يبالي

أن تكون مُسِفَّة. وبعد موجة أغانٍ مليئة بالنوح والعواذل هجاه بيرم التونسي. لم يذكر عبد الوهاب بالاسم، ولكن الإشارات كانت واضحة. قال بيرم:

يا اهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

ده احنا شبعنا كلام ماله معنى يا ليل ويا عين ويا آه

طلعت موضة، غصون وبلابل شابط فيها حزين

شاكي وباكي وقال موش عارف يشكى ويبكى لمين

ردي عليه يا طيور بينادي وارمي له الجناجين

طالع نازل يلقى عوازل واقفة بتستناه

وانتَ كمان يا وابور الوادي قل له رايح على فين

قل له ايَّاك يرتاح يا وابوره، ويريحنا معاه

ومن ذا الذي غنى للوابور، أي القطار، سوى محمد عبد الوهاب؟ وكانت قطيعةَ العمر. أغنية «يا وابور قل لي» تعود لسنة ثمان وثلاثين، وهي من فيلم يحيا الحب، وكلماتها لأحمد رامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سَلاطة اللسان

أحمد زكي (شيخ العروبة)

هذا رجل أتحف اللغة العربية بتعريبات عديدة أشهرها: السيارة، والشطيرة. كان أحمد زكي باشا شامخًا لدودًا في الخصام. وكان يدافع عن اللغة العربية في كل محفِل، وقد أتقن الفرنسية إتقانًا أدهش معاصريه، فكان يقوم مقام المترجم الفوري. شغل المناصب في مصر في العهد الخديوي والملكي، وحضر مؤتمرات المستشرقين، وكانوا يرفعون مقامه لأنه نافسهم في معرفة المخطوطات وفي جمعها. كان يحب الظهور، وجره ذلك إلى الإسفاف في الخصومة. فتراه يذكِّر زكي مبارك بأنه تلميذُه. ولم تكن كلمة «أخطأت يا هذا!» صعبةً عليه، يقولها لكل أحد. وقد طوى حياته على سر. وكانت له عادة من غريب العادات. نذكر السر أولًا: هو من عائلة النجار من عكا بفلسطين. وكان مشغوفًا بفلسطين يُكثر من زيارتها، وفي إحدى زياراته صعِد إلى أعلى قبة الصخرة. يقول أنور الجندي في كتابه عن أحمد زكي باشا: «أحَبَّ الإسكندرية مَسقَطَ رأسه، وهام بفلسطين هيامًا دون أن يذكر صلته بها». وقال خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام إن أحمد زكي ما كان يريد أن يُذكر انتسابه لفلسطين وهو حي. وهذا يشبه حال كثيرين من الفلسطينيين الذين نالوا جنسية عربية فأصبحوا أحرص الناس على إخفاء انتسابهم لفلسطين. لقيت من هؤلاء من لقيت، والتمست لهم العذر. بنى أحمد زكي باشا في الإسكندرية مسجدًّا، ولشدة غرامة بالمخطوطات وضع في مشكاة بجدار خارجي في مسجده حجرًا من بقايا قصر غمدان في اليمن أهداه إليه الإمام يحيى، وعليه كتابة بالقلم الحِميري المسند. والآن إلى ذكر عادته الغريبة:

حفر في مسجده قبرًا أعدَّه لنفسه. لكن أحمد زكي باشا استعجل الأمر، فكان يتمدد في قبره ويقرأ الكتب.

سنتحدث عن إنجاز مهم لأحمد زكي باشا. ونبدأ بعبارة نرجو من القارئ أن يتأملها: «أحمد زكي باشا طليعي كثيرة هي إنجازاته الترقيم اشتهر من بينها يسمى الترقيم أعني ضبط الكلام بالفواصل والنقط وما أشبه التنقيط التنقيط المقصود هنا شيء ووضع النقاط فوق الحروف شيء آخر».

هذا شيء يشبه العربية، وليس بها. فلأكتبه مرة أخرى: «أحمد زكي باشا طليعي. كثيرة هي إنجازاته. الترقيم اشتهر من بينها. يسمى الترقيم -أعني ضبط الكلام بالفواصل والنقط وما أشبه- التنقيط. التنقيط المقصود هنا شيء، ووضع النقاط فوق الحروف شيء آخر».

الكلام الآن مفهوم بسبب الفواصل والنقط، بسبب الترقيم.

كان أحمد زكي باشا رائد الترقيم عند العرب. ربما لما عاناه وهو يقرأ المخطوطات القديمة التي عدمت الترقيم. وقد طاف بلاد العالم يجمع المخطوطات، جمع آلافَ المخطوطات من بلاد الدنيا. وهو من ابتدع كلمة تحقيق، فلا بد قبل نشر المخطوط من تحقيقه.

عاش مصريًّا عربيًّا، كان رجل دولة ورجل علم وأدب وترجمة وفكر. عاش سبعًا وستين سنة وأنجز كثيرًا.

زكي مبارك

قال زكي مبارك: «ليس في أشعاري مديح، فما أعرف رجلًا أعظم مني لأنظم فيه قصائد المديح»، وقال: «الرياء الاجتماعي وسيلة الضعفاء لكسب القوت»، وقال زكي مبارك: «أنا أعرف السر في أن الله أبدعني رجلًا محبوبًا، فقد فطرني الله على الصدق»، وقال: «ستبيد أحجار الجامعة المصرية ويبقى كتاب النثر الفني» وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراه نالها زكي مبارك من السوربون، وترجمه بنفسه إلى العربية. وقال عن ديوانه ألحان الخلود: «لن يستطيع ناقد متحذلق أن يكتب حرفًا في نقد هذا الديوان، فما عرفَت اللغة العربية في تاريخها القديم وتاريخها الحديث قلمًا أمضى من قلمي أو بيانًا أبلغ من بياني». وقال زكي مبارك: «لم تكن الحياة هيِّنة بالنسبة إليَّ في العامين الماضيين، فقد خرجت من عملي بوزارة المعارف بعد معركة عنيفة بيني وبين السنهوري، فقد شويت وجهه على صفحات البلاغ، وصيَّرته أضحوكة يتندَّر بها الناس في الأندية والمجالس والقَهَوات»، وقال: «لا أنا ولا ألوفٌ من أمثالي يصلون إلى منزلة أبي تمَّام الشعرية. وقد حججت إلى قبره بالموصل». وقال زكي مبارك: «لو جاع أولادي لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه». كان زكي مبارك من أمراء البيان، وكان فيه نزق وطيش. يحبه الحمقى للنزق، ويحبه العقلاء للبيان.. وللنزق أيضًا. نحب الجريء المختلف، وطويلَ اللسان.

أحمد فؤاد نجم

هذا صاحب الأشعار التي غنَّاها الشيخ إمام. وكان سليط اللسان، لكننا نعرض له موقفًا كان فيه غير ذلك. ونبدأ بمقدمة قصيرة: قبل بضعة عقود حلَّت بمصر سنة جدب، ووزعت الحكومة على الناس الذُّرَة الصفراء، والذُّرَة الصفراء كانت طعام الدَّواجن في مصر قبل الجدب، ثم لما حلَّ الجوع صارَ الناس يقفون صفوفًا ليحصُلوا عليها.

قرأت في كتاب الفاجومي لأحمد فؤاد نجم أن الكاتب الساخر أحمد رجب جاءه ومعه شاب مهلهل الثياب، وفي رجله صندلٌ مربوط بخيط قِنَّب حتى

يتماسك، ولا يكاد. وهيئته توحي بأنه عامِّيٌّ وأمِّي. عندما وصلا قال الكاتب أحمد رجب، لأحمد الـمُشَعَّث: «قم اعمل لنا الشاي». قال أحمد فؤاد نجم لنفسه: «لا أدري لماذا أحضر أحمد رجب هذا الصعلوكَ معه؟» ثم جلسوا يشربون الشاي.

أحمدُ المسكين جلس على الأرض، والأحمدان الآخران جلسا على كرسيَّين. قال أحمد رجب لأحمد فؤاد نجم: «أحمد ده بيقول شعر». وطلب منه أن يقول شيئًا. فقال أحمد المشعث:

سنينِ العزيزْ رِجْعِتْ بِقَحْطَها المعروفْ

والفَقْرِ عَمِّ البِلادْ، قُومْ يا يُوسِفْ شُوفْ

رُحْنَا نْجِيبِ الدُّرَةْ الصَّفْرَا وَقَّفُونَا صْفُوفْ

عندما سمعَ أحمد فؤاد نجم هذا المقطع، نزَلَ من على كُرسيِّه، وصارَ يزحَفُ على ركبتَيه ويَدَيه، وجَلسَ قربَ الشاعرِ الشابِّ الفلَّاح على الأرض. وقال له: «سامحني».

جورج برنارد شو

كانت في برنارد شو خِفَّة، قال مرة إنه قتل رجلًا. فكيف ذلك؟ كان يعمل صبيًّا في مكتب عقاري بدبلن عاصمة بلده إيرلندة. واشتكى موظف مسن من برودة في قدميه تنغِّص عليه حياته، فانبرى شو وقال له هازئًا: «العلاج بسيط، اغمس قدميك في ماء مثلوج ثلاث دقائق كل صباح وسترى العجب». وفعل الموظف ذلك، ولم ير العجب، بل مات. عرض صاحب الشركة العقارية وظيفةَ الرجل المسن على برنارد شو، ولكن شو رفضها، ليس شعورًا بالذنب بل لأنه شعر بأنه لا يستحقها.

صدر كتاب مايكل هولرويد عن شو بعد أسابيع من حلولي في لندن عام ١٩٨٨. سمعت عرضًا له في الراديو فابتعته. وكنت لشدة شغفي به أصطحب الجزء من أجزائه الثلاثة إلى العمل فأقرأ الصفحتين والثلاث بين شغلة وشغلة. وفي مرة رآنيَ المدير الكبير سام يونغر، فأغلقت الكتاب طبعًا. كان رجلًا ذا ثقافة، فنصحني بحضور عرض يؤدى في مسرح جانبي لمسرحية لبرنارد شو.

فضيلة كتاب هولرويد البحث المستفيض. فالمؤلف يكتب عن رجل عاش أربعًا وتسعين سنة. المهمة ثقيلة. فإذا ما قص قصة صغيرة كقصة ذلك الموظف البائس، رأيتَه يوثقها توثيقًا حسنًا. يعتنى المؤلف بصغار الأمور ككبارها. قال

شو إن الشطيرة التي كانت تُعِدُّها له أمه فيها من الزبد أكثرَ مما في الشطيرة التي تعدها الخادم.

كانت أمه تعلِّم الغناء، والذي علَّمها الغناء موسيقيٌّ معروف في إيرلندة. وانتقلت مع أستاذها إلى لندن. أكان عشيقَها؟ لا يوجد دليل. وهل جورج برنارد شو هو الابن البيولوجي لأستاذ الموسيقى؟ ثمة من أثار هذه النقطة.

عندما بلغ شو العشرين انتقل إلى لندن وسكن مع أمه. أما أبوه فكان سكِّيرًا، لا يفلح في عمل، وبقي في دبلن. تعليق المؤلف عن علاقة شو بوالده طريف، يقول: كان يرى في والده «تحذيرًا». وبالفعل عاش شو عمره لا يشرب ولا يدخن ولا يأكل اللحم.

كتب جورج برنارد شو خمسَ روايات رُفضت جميعًا فتحول إلى المسرح فنجح. ومات في الرابعة والتسعين. هذه جملة من أقواله:

• المهم ليس أن تجد نفسَك، بل أن تصنعها.

• نحن لا نكف عن اللعب بسبب الشيخوخة، نحن نشيخ لأننا كففنا عن اللعب.

• من لا يغير رأيه لن يستطيع تغيير أي شيء.

• تعلمت ألا أصارع الخنزير، فهو سيوسخني، والأدهى أنه سيفرح بالنزال.

• المعرفة الزائفة أخطر من الجهل.

• الوطنية هي اقتناعك بأن هذا البلد أفضلُ بلد في العالم؛ لأنك ولدت فيه.

• الأسرة السعيدة قطعة من الجنة جاءتك باكرًا.

• العقل الرديء يحول الفلسفة إلى حمق، والعلمَ إلى خرافة، والفنَّ إلى تعليمات. ها قد وصفت التعليم الجامعي.

• الصمت أبلغ تعبير عن الازدراء.

• الجميلات الذكيات لا يُردن الحصول على حق الانتخاب، يتركن الحكم للرجال ثم يحكمن الرجال.

• ليس من حقنا أن نستهلك من السعادة أكثرَ مما ننتج.

• كل الحقائق العظيمة بدأت هرطقات.

• من خبرتنا عرفنا أننا لا نتعلم شيئًا من الخبرة.

• المسنُّون خَطِرون؛ إذ لا يهمهم ما الذي يحدث للعالم في المستقبل.

• ما نريده أن نرى الطفل يسعى وراء المعرفة، لا أن نرى المعرفة تلاحق الطفل.

• معظم الناس يفكرون مرتين أو ثلاثًا في السنة. وقد صنعت سمعة عالمية لأنني أفكر مرة أو مرتين في الأسبوع.

• من استطاع فَعل، ومن عَجز أصبح معلمًا.

• الملكية الخاصة سرِقة بالقانون.

• الفقر رأس الرذائل.

• إذا رغبنا في الاقتناع بشيء رأينا فجأة كلَّ الحجج تدعمه، وخفيت عنا كل الحجج المضادة.

• ما أحرانا أن نَمثُل كل خمس سنين أمام محكمة لنبرر وجودَنا، تحت طائلة الإعدام.

• احذر ممن لا يردُّ صفعتك، فلن يغفر لك، ولن يسمح لك بأن تسامح نفسك.

• جهنمُ مليئة بهواة الموسيقى.

• الانتخابات معركة بغير دماء. هي كحمَّام الطين، لكل المشاركين.

• عندما يحِل بي الموت أحب أن أكون قد استعملتُ نفسي بالكامل.

• الموضة وباء مؤقت.

• مِحَكُّ تربيتِك عندما تخوض شجارًا.

• الحياة تسوِّي بين الجميع، والموت يبرز المتفوقين.

• المطالعة جعلت دون كيشوت جنتلمانًا، وتصديقُه كلَّ ما قرأ جعله مجنونًا.

• الحب المطلق هو فقط الذي يتم عبر البريد.

• الجمال سطوة مؤقتة.

• أجسامنا قبورٌ حية لحيوانات قتلناها ونحن نتحدث عن الرحمة.

وقال جورج برنارد شو: «الفضيلة ليست الامتناعَ عن الرذائل، بل أن نكره الرذائل».

المحفوظان وبينهما ميركل

لستَ ذا حصانة. تكبر ويكبر اسمُك، وتقف أمام المرآة ويعجبك رسمُك. وتقول لصورتك: لقد وصلت إلى الغاية. وفي النهاية ستموت. ولكن، إن عشت متزودًا بزاد من القناعة فقد تعيش بدون صدمات.

لقد قنعت أن تكون موظفًا: أكل عيش، ولديك زوجتك وابنتاك: أمُ كلثوم وفاطمة.

بدأنا نتحدث عن نجيب محفوظ.

عشتَ موظفًا سعيدًا بمرتب متواضع. وأنت لا تكتب أثناء الدوام الوظيفي بل تشتغل. وخارجَ الوظيفة تنطلق روحك، وتكتب أدبًا جميلًا. أحيانًا تتأنق، لكنك لا تنسى الشارع وأهله. يصعد نجمك في عالم الرواية، ولا تنسى الكبار. تحترم من علَّمك. توفيق الحكيم، سبقك وكتب، ثم سطع نجمك على نجمه، لكنك تعرف للكبير مقامه. تعيش في قوقعتك الأدبية سعيدًا، ولا تفارقك النكتة. منحوك أكبرَ جائزة في العالم، وترسل ابنتيك لتسلُّمها. القناعة فَرَح الحياة.

وعلى عادتي أستطرد الاستطراد البعيد. أتكلم عن أنغيلا كاسنر.

ميركل

تزوجته بضع سنين، وحدث الطلاق، وظلت تحمل اسمه (ميركل). وحازت أنغيلا ميركل على الدكتوراة في كيمياء الكم، ونشرت أبحاثًا على مدى ثلاث سنين. ثم امَّحت دولتها عن الخريطة، فقد كانت مواطنة في ألمانيا الشرقية الشيوعية. وفي ألمانيا الموحدة اشتغلت بالسياسة. لم تكن قنوعًا، ولكنها لم تغتصب السلطة، صعدت درجة درجة. أدَّت اليمين عام ألفين وخمسة لتحكم ألمانيا الموحدة. وبعد ست عشرة سنة قالت: «اكتفيت». ونزلت عن قمة السُّلطة.

هناك ناس لا يتغيرون على الكرسي: ميركل تمرض سكرتيرتها فتتصل بها لتطمئن عليها. وكما يتسوق الناس تتسوق وتجر عربتها. وظلت تسكن في الشقة التي كانت تسكنها قبل أن تحكم ألمانيا ست عشرة سنة.

ونعود إلى نجيب محفوظ

عاش حتى الخامسة والتسعين فعرفته ثلاثة أجيال من الناس. هو ببساطة أهم روائي عربي في القرن العشرين. كان فنانًا في سرد الحكاية وكان صاحب فكر أيضًا. نعود إلى يوم مولده.

تعسرت ولادة السيدة فاطمة مصطفى، وكاد الطفل يموت. فاستُدعيَ نجيب محفوظ، طبيب النساء، لإنقاذها وإنقاذ المولود. وتكريمًا لهذا الطبيب سُمِّيَ

الطفل باسمٍ مركب «نجيب محفوظ». وهو في البطاقة «نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم». عاش نجيب محفوظ «الطبيب» حتى تعدى التسعين، ورأى كل الناس يخلطون بينه وبين الروائي الكبير الذي أخرجه من بطن أمه. لقد حاز الطبيب نجيب محفوظ شهرة كبيرة ونال لقب بك ثم باشا، وكتب الكتب الطبية، لكنه ظل أسير اسمه المسروق.

وأنا ممن خلطوا بين الطبيب والأديب. رأيت للطبيب نجيب محفوظ كتابًا عن سيرته، فما أدركت إلا متأخرًا أن هذا ليس ذاك. دكتور النساء نجيب محفوظ له ثلاثة وثلاثون كتابًا بالعربية والفرنسية والإنجليزية.

انحرفنا عن الأديب المشهور لكي نتأمل في سيرة هذا الطبيب الذي أنجبته مصر وقدم علمًا لقي تقديرًا على مستوى العالم، فقد حاضر في أكسفورد وإدنبره ولوزان وجنيف.

هذه طائفة من أقوال نجيب محفوظ صاحب الروايات:

• الناس يعبدون القوة، حتى ضحاياها.

• الضعيف هو الغبي الذى لا يعرف سر قوته.

• لا سعادة بلا كرامة.

• كنت موظفًا حكوميًّا في الصباح وكاتبًا في المساء.

• كيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات؟

والنبُّوت هو الهراوة، والفُتوَّة هو القبضاي المتسلط في الحي. وقد جعل نجيب محفوظ الحارة القاهرية دنيا. صور مشاعر الناس في العالم، من خلال تصويره للحارة القاهرية. ولم يكن واعظًا، كتب عن القبضايات المتسلطين في حاراتهم كأنه يراقب المشهد بعين باردة، ولكن القارئ يدرك أن الاستبداد والتسلط آفة اجتماعية، ثم يمد الخط على استقامته فيرى مشكلة الاستبداد السياسي.

• كلنا مدينون بحياتنا لغيرنا.

• الشماتة ليست من شيم السادة.

• زمن المبادئ مضى، وهذا زمن الهجرة.

• إننا نستنشق الفساد مع الهواء فكيف نأمل أن يخرج من المستنقع أمل حقيقي؟

- عندما يأمن الموظف العقاب سيقع في الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب.
- قد يبدو يسيرًا أن تعيش في قُمقم أنانيتك، لكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنسانًا حقًّا.
- إذا ظل التخلف في مجتمعاتنا، فسيأتي السياح ليتفرجوا علينا بدلًا من الآثار.
- أكبر هزيمة في حياتي حرماني من متعة القراءة بعد ضعف نظري.
- أخذت في تحليل أسباب الثراء: من الهبات والانتهازية والاستغلال والعسف واستعمال القوة حتى اقتنعت بأنه لا يوجد ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.
- الثورة ظاهرة غريبة مثل الكوارث الطبيعية.
- لا حقيقة ثابتة في الصحف إلا صفحةَ الوفيات.
- ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله ما دمت لا أستطيعه.
- العادة كفيلة بأن تجعل الألم غير أليم.
- أجد ما لا أبحث عنه، وأبحث عما لا أجد.
- من لم يؤدبه الحب، يؤدبه المزيد من الحب.
- إذا سلِمت منك نفسك فقد أديت حقها، وإذا سلم منك الخلق فقد أديت حقوقهم.
- إذا قُذف بنا الى الجحيم فإننا حتمًا سنعتاد، ونألف الزبانية.
- أصحاب المصالح لا يحبون الثورات.
- أعجِب بهؤلاء الرجال ذوى السلطان! إنهم يأتون الكبائر باستهانة.
- أعطاه الله حظ الفقراء وشهوات الأغنياء، فما ذنبه؟
- كيف نضجر وللسماء هذه الزرقة، وللأرض هذه الخضرة، وللورد هذا الشذا، وللقلب هذه القدرةُ العجيبة على الحب!
- عندما تتكاثر المصائب يمحو بعضها بعضًا.
- الشيطان لا يندس إلا بإذن منا.
- الحقيقة بحث، وليست وصولًا.
- من يحمل الماضي على كتفيه تتعثر خطاه.

• الوحدة في رفقة الكبرياء ليست وحدة.

عمر فَرّوخ

كان وهو فتىً يساعد أمه في العجن والتنظيف. وعمل في العطلة الصيفية في جريدة لاسيري الفرنسية في بيروت، وطُلب إليه أن ينظِّف الحمام وما يتبع الحمام. نترك الكلمة لعمر فَرُّوخ: «في اليوم التالي دخل مدير الإدارة جورج ڤاليري إلى الحمام، وسأل عن الذي نظفه. واستدعاني، واختبرني في اللغة الفرنسية فرآني أُحسن بعض الكلمات، فكلفني إعدادَ لفائف المشتركين».

تعلم عمر فَرُّوخ الفرنسية والإنجليزية، وعمل في التدريس، ثم تهيَّأ للذهاب إلى ألمانيا لنيل الدكتوراة. ونالها. ثم عاش عمر فروخ في مدينته بيروت يعلِّم في «مدارس المقاصد الإسلامية»، وفي الجامعة الأميركية. ويمكن تلخيصُ سيرته بأنه كان من أشد المدافعين عن اللغة العربية والإسلام، وبأنه ظل يعمل بلا كَلال طول عمره، وبأنه كان مؤلفًا مكثرًا.

ختم عمر فروخ حياته بكتاب عملاق هو تاريخ الأدب العربي في ستة أجزاء كبار، أضاف إليها جزأين عن الأدب الحديث. كان شديد التدقيق، ويحمل بين جنبيه روح المعلم، فتراه يكتب كلمة حلقة، ويضع بين قوسين ملاحظة (بسكون اللام)، ويكتب حرَص ويردفها بالقول (بفتح الراء).

لكنه كان أرحبَ أفقًا من مجرد الحرص على سلامة اللغة، كان فارسًا من فرسان الدفاع عن العروبة والإسلام، وكان يكتب الكتب في الفكر العربي، ويقرض الشعر في الغزل، كيف لا وهو الصديقُ المقرب من الشاعر إبراهيم طوقان، زامله في بيروت وفي نابلس بفلسطين التي عمل فروخ فيها مدرسًا سنتين في مدرسة النجاح التي أصبحت، بعدُ، جامعة. توفي عمر فروخ عن إحدى وثمانين سنة، وعن مئة كتاب.

خليل السكاكيني

رجل عاش الحب وعاش الفقد، وعاش عصرين، وتزيا بزيين. أحب سلطانة حبًّا ملك عليه حياته وتزوجا وأنجبت له سلطانة ولدًا، ثم - بعد فترة - بنتين. وكبُر السكاكيني وسلطانةُ معًا في بيتهما الجديد الذي شيداه في حي القَطَمون بالقدس. وماتت سلطانة وقد تجاوز السكاكيني الستين فرثاها بشعر ونثر في كتاب كامل:

لقد كنتُ قبلَ اليومِ أحسَبُ أنني

صِبورٌ على الأرزاءِ يَقْرَعْنَ ساحتي

وأنِّي كبيرُ القلبِ لا تستَخِفَّهُ

حوادثُ هذا الدهرِ إمَّا توالتِ

فلما دَهاني ما دهاني وَجدْتُني

ضعيفًا جزوعًا ذا شجىً وكآبة

وقلتُ: هنا عاشتْ، وهذا مكانُها

وكدتُ أُناديها على مثلِ عادتي

فلم أَلْقَ إلَّا خُدعةً بعد خُدعة

ولم ألقَ إلَّا ما يَشُقُّ مرارتي

وأصبح عمريِ بعد ذلك فضلةً

أروح وأغدو فيه مِن غير غاية

ثم احتلت العصابات الصهيونية الحيَّ وتشرد خليل السكاكيني. واتخذ القاهرة سكنًا؛ لأنه عضو في مجمع اللغة العربية بمصر. وفي مصر جاءه خبرُ وفاة ولدِه فمات كمدًا بعد ثلاثة أشهر.

على مدى خمسين سنة ظل السكاكيني يكتب يومياته التي نشرت حديثًا في ثمانية مجلدات فكانت تاريخًا لحياته ولفلسطين العثمانية والانتدابية.

أسس السكاكيني في شبابه المدرسة الدستورية، وكان يقول للمعلمين: «إياكم أن تقولوا للتلميذ: لا تسرق، فكأنكم تتهمونه. قولوا له: لا تدع أحدًا يسرقك». وكان من منهج المدرسة إلغاءُ العقاب البدني، وإلغاءُ الوظائف البيتية، وإلغاءُ الامتحانات، وعدمُ إذلال الطالب. كان همُّه تعليم الخُلُق الحسن قبل القراءة والكتابة. وكانت اللغة العربية من أكبر همومه. كتب في فقه اللغة وأصولها، وتميز بفكر نقديٍّ يحترم القديم وينظر إلى التجديد. وكتب للتلاميذ كتبًا طَبعت في أكثرَ من بلد عربي، وظلت مناهج مدرسية زمنًا طويلًا بعد وفاته.

ثار السكاكيني مع صحب له على الكنيسة الأرثوذكسية وطالب بتعريب التلاوات والطقوس، فألقت عليه الكنيسة الحِرم، فكتب: «لست أرثوذكسيًّا».

تعلم خليل السكاكيني على نفسه، كان يعيش في الزمن الذي سبق زمن تقديس الشهادات. عُيِّن مفتشًا للغة العربية في فلسطين. وعلم نفسه الإنجليزية التي كان ألمَّ بقليل منها في رحلة عمل قصيرة إلى الولايات المتحدة. تعلمها كي يقرأ كتب التربية والتعليم، فهو معلم بالفطرة.

كان السكاكيني جريئًا على اللغة العربية لأنه يحبها. وتلخصت شهادة عارفيه فيه بأنه كان رجلًا «ذا مروءة».

أبو الفرج الأصفهاني

كلَّف هارون الرشيد لجنةً من ثلاثة مغنِّين اختيارَ أجمل مئة أغنية، وبعد ثلاثين سنة كلَّف حفيدُه، الخليفةُ الواثق، لجنة أخرى تنقيحَ القائمة وترتيبها تنازليًّا. وكان الواثق ملحنًا ومغنيًا. ومضت خمسون سنة، وظفِر بالقائمة شابٌّ أديب يعشق الغناء هو أبو الفرج الأصفهاني. ورغم انتسابه إلى أصفهان فهو عربي من بقية بني أمية. أبو الفرج الأصفهاني رجل غلبت عليه كنيته، فأما اسمه فهو علي بن العباس.

كتب لنا أبو الفرج كلماتِ الأغاني كلِّها، وكتب أوصافَ الألحان، ولكن للأسف لم تكن النوطة الموسيقية قد اخترعت. فنحن نقرأ الأشعار ونفهم، ونقرأ أوصافَ الغناء: فهذا من الثقيل الأول أو من الرمل، إلى آخره، ولا نفهم.

فما الذي وصل بأشعار الأغاني المئة إلى كتاب ضخم؟

كان أبو الفرج يكتب الأبياتَ ذاكرًا اسمَ المغني أو المغنيةِ والشاعر. ثم يغوص بعد ذلك في تفاصيل حياة المغني والشاعر. تراه مثلًا ينفق مئةً وثمانين صفحةً وهو يقصُّ علينا غرامياتِ عمرَ بن أبي ربيعة، وسبعًا وتسعين صفحة يفردها لمجنون ليلى. والطريف هنا أنه يورد روايات تقول إن مجنونَ ليلى شخصية وهمية، هذا رغم الصفحاتِ السبع والتسعين. وأعداد الصفحات التي ذكرناها هي بحسب طبعة دار الكتب التي بلغت أربعة وعشرين مجلدًا.

ولامرئ القيس ذِكر طويل، ولجرير والفرزدق، ولمئات الشعراء. وقد يقف أبو الفرج وَقفة تاريخية فيقصُّ علينا قصة حرب البسوس وما قيل فيها من شعر.

كتاب الأغاني موسوعة أدبية مرتبة بحسب الأغاني المئة المختارة. لقد أنفق أبو الفرج خمسين سنةً وهو يكتب كتابه العظيم. وها قد مضت ألفُ سنة وما زال كتابُ الأغاني من أهم مصادر التاريخ الأدبي.

أحمد الصافي النجفي

قال أحمد الصافي النجفي في دمشق:

أتيتُ جِلَّقَ مجتازًا على عجلٍ

فأعجبتْنيَ حتى اخترتُها وطنا

يكاد ينسى غريبُ الدار موطنَه

في رَبعها، ويعافُ الأهلَ والسكنا

إني امرؤٌ عربي، والعُلا نسبي

في أيِّ أرضٍ أرى عُربًا أرى وطنا

وسكن في دمشق. كان المقهى مجلسَه، فيه يلتقي الناس، ويناقشُ جلساءه في السياسة، وفيه يقرأُ الجرائد، وفيه يتناولُ طعامه، وقد يَقيلُ في المقهى. فإذا جنَّه الليل أوى إلى غرفة ملحقة بمسجد قرب سوق الحميدية. وصف غرفته فقال:

أصارعُ البردَ في سراجٍ

يكادُ مِن ضعفِه يموتُ

في غرفة ملؤها ثقوبٌ

أو شئتَ قلْ ملؤها بيوتُ

يسكنُ فيها بلا كِراء

فأرٌ وبَقٌّ وعنكبوتُ

ورغم أن أحمد الصافي النجفي عاش أكثرَ من نصفِ عمره خارج العراق، فقد حمل العراق في وِجدانه. وُلد في قرية من قرى النجف، وظل طولَ عمره يعتزُّ بنسب أبيه الذي يرفعُه إلى عليٍّ بن أبي طالب، وبنسب أمه اللبنانية التي تنتمي إلى عائلة علم وفقه. ها هو يزعم زعمًا:

نورًا رأى الجيرانُ في

بيتي عشيةَ مولدي

هذي روايةُ أسرتي

آمِنْ بها أو فاجحَدِ

وخاض شاعرنا في السياسة عند احتلال الإنجليزِ العراق. ونفى نفسه إلى إيران، حيث مكث ثماني سنوات، فأتقن الفارسيةَ وكتب في صحف طهران، وترجم رباعيات الخيام.

كان يكتب الشعرَ حاكيًا ناثرًا، كأنه ابن الرومي. ورغم ثقافته العربية العريضة، والتزامِه باللباس العربي فإن الصافي النجفي كان في كل دواوينِه الخمسةَ عشرَ صاحبَ لغة معاصرة، لا يلمحُ القارئ فيها كلمةً عتيقة. ولم يكن يأبه بدقَّة التعبير إن استقام له المعنى:

لا يعي الناسُ ما أقولُ، فذنبي

أنني لا أقولُ إلا جديدا

يطلبون التَّرديدَ منيِ، ونفسي

ليس ترضى حتى الغِنا ترديدا

كانت للصافي النجفي قصةُ حب عابرةٌ وهو دونَ العشرين ولكنها لم تكلَّل بالزواج، فعاش عزبًا طول عمره المديد. كان بوهيميًّا فقيرًا، ولم يُقَم له حفل تكريم في حياته، إلّا مرة، وكانت مريرة.

سكن لبنانَ في السبعينات، وقامت الحربُ الأهليةُ. كان بيتُه على خطوط التماسِّ بين بيروتَ الغربية والشرقية. واخترقت حجرتَه خمسُ رصاصاتٍ لم تُصبه أيٌّ منها. واشتدَّ القتال، واضطُرَّ مرةً إلى المكوث في بيته ثلاثة أيامٍ بلا طعام، ثم إنه نزل يلتمسُ شيئًا يأكلُه. فأصابته رصاصتان من قناص: واحدةٌ في ساقه وأخرى اخترقت صدره. فنقل إلى المستشفى، ثم دبَّرت حكومةُ العراق نقلَه إلى بغداد، وكان قد كُفَّ بصرُه.

وصل بغداد وسط التكريم والحفاوة، وشكر مستقبليه شعرًا، وهو الذي عاش لم يمدح أحدًا. وقال بيتًا حفظه الناس:

يا عودةً للدار ما أقساها

أسمعُ بغدادَ ولا أراها

قال شاعرُنا لمحدِّثه وهو على سرير المستشفى: «جاءني هذا البيت الكاوي صباح اليوم الذي سأعودُ في مسائه إلى العراق بعد غياب ستٍّ وأربعينَ سنة، وسمعَه أحدُ الأدباء فقال لي: هذا بيت يؤلَّف عنه كتاب». فذكَّرتُه ببيت المعرِّي:

وإني رأيتُ الناسَ كالشعرِ: واحدٌ

بألفٍ إذا قيسوا، وبيتٌ بديوانِ

وتذكَّرَ الشاعر بيتين له عن بغداد:

إن البلادِ لَكالحسانِ تفاوتَت

حُسنًا، وإن عروسَها بغدادُ

فيها الليالي كالنهار نضارةً

وكأنما أيامُها أعيادُ

ولم تمض عليه السنة. توفي أحمد الصافي النجفي في موطنه عن ثمانينَ عامًا، ودُفن في النجف عام ١٩٧٧.

خليفة محمد التَّلّيسي

عندما نشر أدونيس في عام ٢٠١٠ كتابًا باسم ديوان البيت الواحد، لم يغِب عن النقاد أن الفكرة مأخوذة من الأديب الليبي خليفة التليسي الذي نشر كتابًا باسم قصيدة البيت الواحد قبل أدونيس بثلاثين سنة. ولم يُشر إليه أدونيس بكلمة.

وقد صدرت للتليسي مختارات شعرية في خمسة أجزاء. وكانت له طريقةٌ طريفة وجديدة في الاختيار.

كان التليسي شاعرًا ولغويًّا.

عندما تقع اللغة في حضن شاعر فإنها تَفرح.

لقد أحب خليفة محمد التلِّيسي حسناواتٍ ثلاثًا إضافةً إلى حسناء ليس لها مثيل هي اللغة العربية. كان يسمي اللغات: الإيطالية والفرنسية والإنجليزية، الحسناواتِ الثلاث، وكان يستقي ثقافته بهن، وترجم عن الإيطالية كتبًا عديدة في الأدب والتاريخ. ووضع معجمًا إيطاليًّا عربيًّا.

وُلِد خليفة التليسي، وليبيا تحت الاستعمار الإيطالي، في عائلة أمازيغية من بطون وِرفَلَّة، وتعلم في المدرسة العربية والإيطالية، ونال شهادة من إيطاليا، ثم دكتوراة فخرية.

ووضع وترجم في تاريخ ليبيا ونضال شعبها كتبًا ستظل مرجعًا للدارسين. وله رأي طريف في الترجمة، يقول: «الترجمة عندي عملية إبداعية. وهذا خطير جدًّا. هذا يمتصُّ عواطفك ويوظفُها لصالح الآخرين، إنها تجربةٌ قاسية، وتضحيةٌ بالذات. وأنصح بأن تكون الترجمة مرحلةً من مراحل العمر لا غير. فهي تساعدُك على اكتشاف ذاتك».

خليفة التليسي واحد من رجال ليبيا الذين تألقوا قبل عهد القذافي. فقَبلَ القذافي كان سفيرًا ووزيرَ إعلام، وشَغل مناصبَ كبيرة. ولكنه لم ينشغل عن كتابة تاريخ ليبيا، ولا عن خدمة اللغة العربية، فقد اختصر معجم تاج العروس للزَّبيدي المكونَ من أربعين جزءًا في أربعة أجزاءٍ كبيرة. وهذا جهد كبير، قدَّرناه أم لم نقدره.

كان واحدًا في الرجال، كان قامة ثقافية سامقة. تعامل مع اللغة العربية بحب وأرادها حية نضرة. ويذكر له الكثيرون ممن عرفوه أنه كان جمَّ التواضع، حسن العشرة. وأنه صدق عندما وصف نفسه بالقول:

لا، لست جبارًا ولا من شِرعتي

كسبُ النفوسِ بزائف الإبهارِ

هذا الليبي الكبير عرف اللغة العربية في أضخم معاجمها، ولكنه استعملها بحب وشغف، وجعلها - في مجموعاته القصصية، وفي ترجماته، وفي شعره - سهلة قوية مفعمة بالحيوية.

يحب كتَّابُ السيرة أن يعددوا المناصب والوظائف التي شغلها الأديب. وقد فعلنا بعض ذلك. ولكن خليفة محمد التليسي كان دائمًا أكبرَ من المناصب. كان يعرف كيف يخلق وقتًا يخدم فيه الأدب والعلم واللغة.

منه عرفنا طاغور ولوركا وموارفيا، وستصبح لغة العرب أغنى وأسلم وأحسنَ مجاراة للعصر عندما نلتفت إلى جهود ابن ليبيا الكبير.

عبد الحق فاضل

تبعد المَوصل عن مُرَّاكُش خمسةَ آلاف كيلومتر «طَيَرانَ الغُراب» (وهذا تعبير إنجليزي معناه المسافة في خط مستقيم)، ولكن عبد الحق فاضل لم يجد بينهما كبير فرق، فعاش هنا وهناك. كانت اللغة العربية قصة حياته الكبرى.

ولد لأب صيدلاني في الموصل ومارس المحاماة ثم انخرط في السلك الدبلوماسي، فعمل في قنصليات العراق في القاهرة وطهران وإيطاليا، وكان سفير العراق في الصين ثلاث سنين في أول عهدٍ جمهوري بالعراق.

في طهران تعلم الفارسية ووضع اسمه بقوة على قائمة مترجمي رباعيات الخيام، وقدَّمَ لترجمته بدراسة للخيام ورباعياته استولت على نصف الكتاب.

وقد تعرض عبد الحق فاضل لشكسبير في دراسة مفصلة لمسرحية يوليوس قيصر أتبعها بترجمة للمسرحية. وقد نال كتابه عن شكسبير ومسرحيته ثناء عريضًا من الدارس الشكسبيري المهم جبرا إبراهيم جبرا. قال جبرا: «جاءت دراسته الأخيرة لمسرحية وشخصيات يوليوس قيصر استمرارًا رائعًا لنظرته النافذة، وغير المتوقعة دائمًا في مسائل الخلق الأدبي. عبد الحق فاضل يجمع بين الإحاطة المعرفية والاندفاع الإبداعي».

لقد أتقن عبد الحق فاضل الفارسية والتركية والكردية، والفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وألمَّ بغيرها إلمامًا. ولكنه أصر على أن العربية هي –بتعبيره- «ملِكة اللغات». لم يكن يتناول لفظة أجنبية إلا كان شعاره «فتِّش عن العربية». يقول مثلًا إن أصل اسم قرطبة كنعاني وهو «قرية طيبة». ويستطرد قائلًا إن الفراعنة كانوا ساميين فسمُّوا عاصمتهم في زمن الأسرة السادسة «طيبة». ومع الفتح الإسلامي رِأى العرب في طيبة الصروح

الشامخة فسموا المدينة: «القُصور». وكان أهل الصعيد ينطقونها: «لِقصور»، ومنهم أخذها الأوروبيون فسموها: «لُكسر» وأخذناها منهم فكانت «الأُقصر».

عبد الحق فاضل هو أبو علم التأثيل والترسيس عند العرب في العصر الحديث. والتأثيل هو إرجاع الكلمة إلى اللغة التي أخذت منها، وأما الترسيس فهو محاولة الوصول إلى أول من نطق بالكلمة.

هذا العراقي الذي قضى آخر ثلاثين سنة من عمره في مُرَّاكُش بالمغرب، فتَن الناس بكتاب له سمَّاه -متواضعًا- مغامرات لغوية. لم يكن عبد الحق فاضل يفرض رأيه حقيقةً مسلمًا بها. بل كان يداعب اللغة، بل اللغات، ويترك الباب مفتوحًا للنقاش. وفي كتابه هذا أسس للتأثيل والترسيس في العربية بمئات الأمثلة.

بعد الثمانين تعرض عبد الحق فاضل لحادث طرق، فعاد إلى موطنه العراق، وهناك توفي عام ١٩٩٢. لماذا لم ينل هذا اللغوي الفذ ما يستحق من الشهرة؟ ربما كان السبب أنه ترفع عن خوض المعارك النقدية والمناظرات، وأنه كان جمَّ التواضع.

عبد الله الطيب

عاشت غريزيلدا وليم الطيب أرملة عبد الله الطيب في السودان وكانت تتكلم اللهجة السودانية بطلاقة. وحفرت لنفسها قبرًا بجانب قبر زوجها، قالت: «أريد أن أدفن بجانبه كي يتعلم الذين غمطوه حقه الوفاء». توفيت غريزيلدا عام ٢٠٢٢.

كان عبد الله الطيب يدرس في جامعة لندن، والتقى بغريزيلدا الإنجليزية التي أصبحت زوجةَ وحبيبةَ العمر. أحبت فيه أنه يدافع عن العرب، ويهاجم الاستعمار البريطاني لبلده. لم تعش على هامشه، بل كان لها نشاط في الفن، وألفت عدة كتب، منها كتاب عن الأزياء الشعبية السودانية. غير أنها ظلت تلاحق الناشرين ليطبعوا ما نفِدَت طبعاته من كتب زوجها الراحل. وكانت في حياته تدفعه إلى التأليف، وتهيئ له المناخ الملائم.

هي التي أشارت عليه بأن يتوجه إلى طه حسين ليكتب مقدمة لكتابه المشهور المرشد لفهم أشعار العرب وصناعتها. كتب طه حسين: «هذا الكتاب ممتع إلى أبعد غايات الإمتاع، ولا أعرف أن مثله أتيح لنا في هذا العصر الحديث». وطبع الكتاب بأجزائه الخمسة مرارًا، ومنه اطَّلع الكثيرون على أسرارَ النظم العربي.

لكن عبد الله الطيب كان شاعرًا له سبعةُ دواوين، ومجموعةٌ من المسرحيات الشعرية، وكتب الكتب في الشعر وفي تفسير أجزاء من القرآن الكريم. وهو

في خضم هذا النشاط يتولى المناصب الأكاديمية في السودان ونيجيريا والمغرب، ولا يكفُّ عن التدريس. سألوه عن اللقب الذي التصق به، لقب البروفسور، فقال: «زهدت في اللقب يوم رأيت أحد الساسة يطلبه زورًا». ولا يرضى عبد الله الطيب بلقب شيخ لأنه لم يصل في الفقه إلى درجة تؤهله لهذا اللقب، كان يحب لقب (أستاذ) لأنه كان معلمًا. نال جائزة الملك فيصل، وأصيب بعدها بسكتة دماغية، قالت زوجته: «سقط فرحًا؛ لأنه لم يجد في بلده التقدير». كان عظيمًا في علمه وفي حبه للغة العربية والإسلام. وكانت وراءه دائمًا امرأة عظيمة.

كامل كيلاني

كان أحمد شوقي يسمي كامل كيلاني عقربَ الثواني لأنه كان ينشر في كل أسبوع كتابًا، وأحيانًا كتابين. كان رائد قصص الأطفال في العالم العربي. على قصصه تربى جيلان أو ثلاثةُ أجيال. ومن قصصه اكتسب الكثيرون اللغة الصحيحة والخيال المجنَّح. وما زالت كتبه تطبع بأغلفة جديدة.

نشأ في بيت علم ودين، ودرس في الأزهر، وأحب العربية حبًّا جعله يرفع الصوت عاليًا مطالبًا بعدم تدريس الأطفال النحوَ والصرف، وعدم التطرق إلى الإعراب. فما يحتاجه الطفل هو أن يقرأ القصص، وأن يكتبها. وبهذا فقط تستقيم لغته، ويستقيم فكره أيضًا.

في الجامعة المصرية درس كامل كيلاني الإنجليزية. ففتح بهذا لنفسه نافذة عريضة استنشق منها ثقافات الشعوب وقصصَهم، وحمل إلى الطفل العربي أعاجيبَ القصص، من شكسبير إلى الهند والصين.

ثم لا ينسى كامل كيلاني قصصَ العرب وخرافاتِهم، ولا القصصَ التي استمدها من ريف مصر ومدنها.

وبخلاف قصص الأطفال، كتب كامل كيلاني عن المعرِّي في أكثرَ من موضع، ونشر قراءتَه الخاصة لـ رسالة الغفران في كتاب كبير قدَّم له طه حسين. وترجم فصولًا متفرقة كتبها المستشرقون عن الحضارة الإسلامية، وكان يذيِّل ترجماته بتعليقات وأبحاث.

في الصين وبَّخ الأستاذ الجامعي الصيني طالبًا عربيًّا عندما سأله عن كامل كيلاني فلم يعرفه، قال له: «نحن في الصين نعرفُه». فقد ترجم ماتسون وو، الذي سمى نفسه موسى، عددًا من قصص كامل كيلاني إلى الصينية. قيل إن كامل كيلاني كتب ألفَ قصة، وكي نتجنب المبالغة نقول إن قصصه أكثرُ من أن تحصى.

شهاب الدين الأبشيهي

قبل ستِّمئة سنة ولد في بلدة أَبشِواي على ضفاف بحيرة قارونَ في الفيوم بمصر شهابُ الدين بن أحمد. وبعد أن شبَّ في قريته وخطب في مسجدِها انتقل إلى المحلَّة قرب القاهرة، وخلَّد اسم قريته في لقبه فهو شهاب الدين الأبشيهي صاحبُ أحد أظرف كتب الأدب: المستطرَف في كل فن مستظرَف.

جمع شهابُ الدين مادةَ كتابه من الكتب. ولم يكن له فيه سوى حسن الاختيار، وبراعة الاختصار. فجاء كتابُه في مجلد واحد. غير أنه ظل يُنسخُ، ثم يُطبع. هو كتابٌ لا يُمل، ولنأخذ منه طرفةً واحدة: «نزل رجلٌ بصومعة راهب، فقدَّم إليه الراهبُ أربعةَ أرغِفة، وذهب ليحضرَ العدَس، فحمله وجاء فوجد الرجلَ قد أكلَ الخبز، فذهب فأتى بخبز جديد، فوجده قد أكل العدس. ففعل ذلك معه عشر مرات. ثم سأله الراهب: أين مقصِدُك؟ قال: الأردن، فقد بلغني أن بها طبيبًا حاذقًا، وأريد أن أسألَه عما يصلحُ معدتي، فإنِّي قليلُ الاشتهاءِ للطعام. قال له الراهب: إن لي إليك حاجةً، وهي إذا ذهبت وأصلحتَ معدتَك ألَّا تجعل رجوعَك من الطريق نفسِه».

مصطفى لطفي المنفلوطي

يقول المنفلوطي، وهو يقدم لنا كتابه النظرات الذي كان ينشره مقالاتٍ في صحيفة المؤيد: «كنت أحدِّثُ الناس بقلمي كما أحدِّثُهم بلساني، فإذا جلستُ إلى منضدتي خُيِّلَ إليَّ أن بين يديَّ رجلًا من عامة الناس مقبلًا عليَّ بوجهه، وأن من ألذِّ الأشياء وأشهاها إلى نفسي ألا أترك صغيرًا ولا كبيرًا مما يجول بخاطري حتى أفضيَ به إليه، فلا أزالُ أتلمَّسُ الحيلةَ إلى ذلك، حتى أظنَّ أنني بلغت ما أريد. وما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملًا، بل كنت أرى فأفكرُ فأكتبُ فأنشر، فأُرضي الناس مرة وأُسخِطُهم أخرى».

وقد طارت شهرة كتاب النظرات عند أهل الفصاحة من الخاصة، وعند عامة الناس على السواء. فقد كان المنفلوطي ناثرًا فصيحًا رقيقًا، شعارُه الحب والرحمة يطلبهما لكل الخلق، لا يفرِّقُ بين عِرقٍ وعِرقٍ ولا بين دين ودين. تحت عنوان «الأربعون» كتب المنفلوطي في إحدى نظراته: «الآنَ وصلتُ إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيعُ أن أهبِط بهدوء وسكون حتى أصلَ إلى السَّفح بسلام، أو أنني سأعثرُ في الطريق عثرةً تَهوي بي إلى المصرع الأخير هُوِيًّا. سلام عليك أيها الشباب الذاهب، سلامٌ على دوحتِك الفَينانة الغنَّاء. لم أتمتع فيك بمتعة من المتع، ولا بلذَّة من الملاذِّ، ولكنني كنت أؤمل وأرجو، وبذلك الأمل كنت أعيش، أما اليوم! فم يبق

إلا أن أعِدَّ عُدَّتي لتلك الساعة الرهيبة التي أنحدرُ فيها إلى قبري. وداعًا يا عهد الشباب، فقد ودَّعتُ بوداعك الحياة».

ولم يُمتَّع المنفلوطي بالكهولة، فقد مات وهو في الثامنة والأربعين. مات المنفلوطي عام ١٩٢٤. ما زال كتابُ النظرات حيًّا، يُطبعُ ويقرأ.

جبران خليل جبران

تُرجم عددٌ من كتب جبران خليل جبران إلى أكثرَ من مئة لغة. وربما كان هذا من أسباب تقديس ضَعَفة المتعلمين له. غير أنه كان ناثرًا رقيقًا ذا شخصية متطلعة طموحة، وصاحبَ اتجاه في النثر يعلو عن الجغرافية والتاريخ، ويحتفي بالإنسان بما هو إنسان.

في بْشَرِّي بجبل لبنان ولد جبران لعائلة فقيرة، ولم يدخل مدرسة بل تعلم على يد خوريّ (قسِّ) الضيعة. ووجد في الكتاب أنيسَهُ منذ أن فك الحرف. قرأ جبرانُ بالعربية وامتلأ بها وجدانُه. ومن هنا عبارتُه التي كتبها في مقال نشر في كتاب فتاوى كبار الكتاب والأدباء بمصر قبل وفاته بثماني سنوات: «ألا تعلمون أن الغربيين يضحكون منكم عندما تحلَمون الليل طولَه بالأُلفة المعنوية والجامعة الجنسية والرابطة اللغوية، حتى إذا ما جاء الصباح سيَّرتم أبناءكم وبناتكم إلى معاهدهم ليدرسوا على أساتذتهم الغربيين ما في كتبهم؟ الصورة الإيجابية تنحصر في أمرين أساسيين، أولهما تثقيف الناشئة في مدارس وطنية بحتة وتلقينُها العلومَ والفنون باللغة العربية، فينتجُ عن ذلك الألفةُ المعنوية والاستقلالُ النفسي. وثانيهما استثمارُ الأرض واستخراج خيراتها».

ما بلغ جبرانُ الثانية عشرة حتى أخذته أمُّه إلى أميركا، ربما فِرارًا به من والده السكِّير المقامر. وهناك تعلم الإنجليزية في مدرسة للأجانب وتعلق بالرسم. وعادت به أمه إلى لبنان بعد ثلاث سنوات. فدرس في مدرسة الحكمة. ثم إلى أميركا مرة أخرى بعد أربع سنوات.

عاش جبران في كنف صديقة هي ماري هاسكِل التي تكبره بعشر سنين. شجعته في الكتابة والرسم وحررت له نصوصه الإنجليزية، وأمدته بالمال. وستظل هذه الصداقة قائمة بينهما حتى موت جبران، غير أنه عرف نساء غيرها. وربما كان حبُّه الحقيقي خالصًا لمي زيادة التي لم يرها ولم تره، لكنهما تراسلا طويلًا. استقر جبران في بوسطن ثم في نيويورك حيث أنشأ مع صحب له «الرابطةَ القلمية»، ونشر الكتب الصغيرة بالعربية وبالإنجليزية، ولكن الكتاب الذي أذاع ذكره في الخافقين كان بالإنجليزية، وهو كتاب النبي، وترجم إلى العربية أكثر من مرة. الكتاب استلهام للإنجيل ولتعاليم السيد

المسيح. يقول جبران: «أحبوا بعضكم، غنُّوا وارقصوا معًا، وكونوا فرِحين أبدًا، ولكن فليكن كلٌّ منكم وحدَه.كما أن أوتار القيثارة يقوم كلٌّ واحد منها وحدَه ولكنها جميعا تُخرج نغمًا واحدًا. قفوا معًا، ولكن، لا يَقرُب أحدُكم من الآخر كثيرًا؛ لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلَين. إن فرحَكم هو ترحُكم ساخرًا، كلما أعمَلَ وحشُ الحزن أنيابَه في أجسادكم تضاعَفَ الفرح في أعماق قلوبكم. أليست القيثارة التي تزيد في طمأنينة أرواحِكم هي نفسَ الخشب الذي قُطِع بالفؤوس؟ الفرح والتَّرَح توأمان لا ينفصلان، فإذا جلس أحدهما إلى مائدتكم، فلا يغِب عن أذهانكم أن رفيقَه يكون حينئذ مضطجعًا على أسِرَّتكم. إنكم بالحقيقة معلَّقون ككِفَّتي الميزان بين ترحكم وفرحكم، وأنتم بينهما متحركون أبدًا، ولا تقف حركتكم إلا إذا كنتم فارغين في أعماقكم».

لا يكاد يشبهُ جبرانَ في كتَّاب العرب في تلك الحقبة أحدٌ أكثرَ من المنفلوطي، على ما بينَهما منَ اختلاف في النشأة وفي التعامل مع اللغة.

هما صنوان في الرقة ومخاطبة الإنسان أينما كان. غير أن جبران كان يكتب كما يتكلم، وكان المنفلوطي يكتب كما كان القدماء يتكلمون.

توفي جبران في أميركا ونقل جثمانه إلى بشَرِّي بلبنان في عام ألف وتسعمئة وواحد وثلاثين.

ميخائيل نعيمة

يهاجر الأديب ثم يعود إلى الوطن، ويعيش في وطنه ستًّا وخمسين سنة بعد عودته، ولكن صفة الأديب المهجري تلازمه ما عاش، وبعد الممات. هذه حال ميخائيل نعيمة.

ولد في بَسْكِنْتا بلبنان، ودرس في الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية في الناصرة، وكانت تهتم باللغة العربية وبالروسية. وأُرسل في بعثة إلى أوكرانيا في زمن كان فيه قيصر روسيا يحكم تلك البلاد، كان هذا في عام الثورة الروسية الصغرى، عام ١٩٠٥، وقضى الفتى ذو الستةَ عشرَ ربيعًا ستَّ سنوات في روسيا تغلغل فيها الأدبُ الروسي في أعماقه، ونظم بالروسية شعرًا.

ومن روسيا إلى الولايات المتحدة حيث قضى عشرين عامًا درس فيها دراسة جامعية، وكان ذراعَ جبران خليل جبرانَ اليمنى في «الرابطة القلمية». وعاد إلى لبنان بعد وفاة جبران. ومكث في قريته الجبلية ستًّا وخمسين سنة معتزلًا يكتب.

عندما بلغ السبعين من العمر كتب نعيمة قصة حياته في ثلاثة أجزاء، اسم الكتاب سبعون. لم يعرف نعيمة أنه سيعيش حتى يبلغَ التاسعة والتسعين.

في أميركا كتب ميخائيل نعيمة كتاب الغربال في النقد الأدبي فأحدث ضجة، كان ذلك في عام ثلاثة وعشرين، بعد أشهُرٍ من إصدار العقاد والمازني كتاب الديوان. وكتب العقاد مقدمة الغربال، كتب العقاد: «رأيت قلمًا جاهدًا في طلب الشعر الصحيح، شعرِ الحياة لا شعرِ الزّحافات والعلل. وأنصار الجديد قليلٌ في كل جيل. ههنا صفاءٌ في الذهن، واستقامة في النقد، وفهم لوظيفة الأدب».

ويشير العقاد إلى التقارب الفكري بينه وبين نعيمة -وهما في تلك السنة شابان في الخامسة والثلاثين من العمر، فقد وُلد الرجلان في سنة واحدة- يقول: «أيُّ شيء أدلُّ على قرابة الفكر من كِتاب تصاغ عباراته في نيويورك ثم تُكتبُ مقدمته في أسوان. هذا ما ليس يصنعه إلا الفكر، ذلك الجوهر الخالد الذي لا قرابة أقربُ منه بين إنسان وإنسان».

وتمضي العقود ويصبح العقاد من أشد معارضي شعر التفعيلة، ويصدر كتبه الإسلامية المشهورة، ويمضي ميخائيل نعيمة إلى معتزَله ليستوحي روحَ المسيحية ويكتبَ كتابَ مِرداد. قيل إنه أراده نِدًّا لكتاب جبران المشهور النبي، لا سيما أنه كتبه بالإنجليزية، غير أنه لم يجد له ناشرًا إنجليزيًّا فترجمه بقلمه إلى العربية.

يقول نعيمة في مرداد: «من كان له عدو واحد كان بلا صديق واحد؛ إذ كيف للقلب الذي تسكنه العداوة أن يكون ميناء أمينًا للصداقة؟ كيف لمن في قلبه بغضاء أن يعرف نشوة المحبة؟ ما أحببتم إنسانًا أو شيئًا إلا وأحببتم فيه ذواتِكم، ولا كرهتم إنسانًا أو شيئًا إلا وكرهتم فيه ذواتِكم».

هذا أسلوب قريب فعلًا من طريقة جبران. وكتب نعيمة عن جبران كتابًا انتقده الناس لأنهم ربما أرادوا من نعيمة أن يجاريَهم في تقديس ذكرى جبران، ولم يفعل.

ولئن ذكر نعيمة العداوة التي تسكن القلب فإنه كانت له عداوةٌ غريبة مع الشاعر القروي. عاش الرجلان عقودًا في لبنان، وهو بلد صغير بعضه قريب من بعض، ومات القَروي عن سبعٍ وتسعينَ سنة، قبل نعيمة ببضع سنين، ولكن كلّ محاولات الجمع بينهما باءت بالفشل ولم يلتقيا قطُّ.

كان ميخائيل نعيمة كاتبًا إنسانيًّا أثرى المكتبة العربية بعشرات الكتب. لم يقل من الشعر إلا القليل، ولكنه كان من دهاقنة النثر العربي.

فريدريش روكارت

هذا ابن قرية ألمانية في شمال باڤاريا اسمها معبرُ الخنازير «شڤاين فورت». كان فريدريش روكارِت شاعرَ قومه. رأى وهو يافعٌ نابليونَ يحتل بلادَه، ورآه

في شبابه يُهزم، ورأى دويلات الألمان تحاول التوحُّد ولا تجد الطريق. وكتب الشعرَ الوطني فألهب خيال أبناءِ قومه. ثم كتب أشعارًا في الأسرة والمرأة والطبيعة.

وكثيرون منهم يعُدُّونه الآن رابعَ العظام في تاريخ الشعر الألماني كله بعد غوته وهايني وريلكِه. وأقاموا له النُّصُب في كل مكان.

يقول عبد الرحمن بدوي الذي عرف اللغة الألمانية حقَّ المعرفة إن الرجل «أوتي قدرةً هائلة على التحكم في اللغة الألمانية». ونقرأ أن روكارت كان يتقن ثلاثين لغة. وهنا تبدأ أعاجيب الرجل. لكنها لا تنتهي هنا.

ويكيبيديا الألمانية تصر على أنه كان يُحسن أربعًا وأربعين لغة، وتشفع زعمها بقائمة اللغات التي اشتغل بها صاحبُنا. وتذكر الموسوعة ترجماتِه البديعةَ عن الفارسية وعن اللغات الهندية، وتذكر ما صنعه روكارت مع اللغة العربية في أسطرٍ قلائل، ولكن ما صنعه مع العربية في الواقع ليس بقليل.

هذا الرجل المثابرُ استدعاه الملكُ البروسي فريدريش ڤلهلم الرابع إلى برلين كي يكون أستاذًا ومستشارًا، وبعد بضع سنينَ استأذن في الرحيل فزوَّده الملك زادَه فانصرف إلى ضيعة ورثتها امرأته، وقعد فيها يؤلف. ترجم روكارت مقاماتِ الحريري بما فيها من الألاعيب اللغوية التي لا يظن عاقل أنه يمكن نقلها إلى لغة أخرى.

ولكن روكارت لم يكن عاقلًا بالمعنى المألوف، أو أنه كان مجنونًا بمعنىً غيرِ مألوف. فقد نقل الألاعيب إلى لغته، وجعل ترجمتَه الألمانية للمقامات مسجوعة من أولها إلى آخرها. وجعلها قطعةَ أدبٍ ألمانيةً ليس يشبهُها شيء. وترجم صاحبُنا أشعار امرئِ القيس. وبعد موته نشروا له ترجمةً لثلاثة أرباع القرآن الكريم.

وترجمَ الحماسة.

فَتنته الحماسة، وهي كتاب عربي عتيق جمع فيه أبو تمام أكثرَ من ثمانِمئة قطعة من أشعار القدماء المغمورين. وفي الحماسة كانت لروكارت بدَاةٌ أخرى تضاف إلى بَدَواته. فقد قرر أن يحاكيَ النظم العربي في بحورِه وتفعيلاته وقوافيه. تراه في القصيدة بعد القصيدة يصنع حاشية عَروضية يحلِّل فيها الوزن العربي مستعملًا إشارات العروض كما نعرفها في العربية، ويشرح اجتهاده في نقل الوزن العربي إلى الكلم الألماني، على ما بين اللغتين من اختلاف جارف في توالي الصوامت والصوائت، وعلى ما بينهما من افتراق في كيفية وزن الشعر. كان صاحبُنا مولعًا بالأوزان، وله في أوزان الشعر عند الجرمان والإغريق بحوث رائدة.

شقِيَ روكارت وهو يبحث لـ الحماسة عن ناشر، وأخيرًا -وبعد خمسَ عشرةَ سنة- نشرها في شتوتغارت، ١٨٤٦، في مجلدين. وطُبعت بعد ذلك مرات. صارت قطعة من الأدب الألماني لما نفث فيها من زفَرات قلمه. وقد كتب روكارت قصيدة عن ترجمته للحماسة، نترجمها إلى العربية:

في فيافيهم يجوعون

وهيهاتَ الأمانْ

غير أنْ قد أَكرَموا الضيـ

ف على مَرِّ الزمانْ

يقطَعون البيِدَ ليلًا

فوق ظهرِ الرَّاحِلَةْ

فإذا قالوا بماءٍ

نَعِموا بالقائِلَةْ

روَّضوا بالعزمِ والحز

م الخيولَ الشامِسَةْ

وسروْا بالعِيس في قلـ

ـب الفيافي الطامِسَةْ

غُصْتُ، واستخرجتُ هذا الدُّ

ـرَّ من قلب الحماسَةْ

وحواشِيَّ بليغا

تٌ تضاهيها نَفاسَةْ

كان هناك شعراءُ ألمانٌ آخرون فتنهم الشعر العربي القديم، وأشهرهم غوتِه. غير أن روكارت، الذي عاصر غوته ولقي منه مديحًا، كان القلمَ الذي أدخل شعرنا القديم في جسم الثقافة الألمانية.

يوهان ڤولفغانغ غوتِه

مسرحية فاوست ليوهان ڤولفغانغ غوتة هي أعلى قمة في الأدب الألماني، لا يكاد يختلف في ذلك اثنان. ورغم أنها عمل أدبي عابر للعصور، فهي ابنة عصرها.

خرجت أوروبا من ظلام العصور الوسطى إلى عصر النهضة، ثم إلى عصر التنوير، ثم إذا هي سيدةُ العالم في العلوم والصناعات والحرب. في مثل هذا العصر الذهبي ينشأ أناس يشتهون العلم لذاته، يكون لديهم نهمٌ للعلم والأدب والدين ولكل لون من ألوان المعرفة. نسمع فاوست في بداية المسرحية (والترجمة لعبد الرحمن بدوي): «هأنذا استبحرت بسعي محموم في دراسة الفلسفة والقانون والطب، وفي دراسة اللَّاهوت أيضًا. واأسفاه! أقف الآن كالأحمق المسكين، ولا نصيبَ لي من الفطنة إلا ما كان عندي قبل. نعم، أنا أُدعى بالأستاذ وبالدكتور، وأقتاد تلاميذي من أنوفهم، لكنني أُبصر أننا لا نستطيع أن نعرف شيئًا. أمر يوشك أن يُحرق قلبي. لا مالَ عندي، وأعيش عيشة الكلاب. لذا أسلمت نفسي للسحر ابتغاء الحصول على قوة الروح».

ويمضي فاوست فيخاطب القمر، ويأسى على ما فاته في ماضيه. ويأتيه الشيطان (مفيستوفيليس) ويعرض عليه أن يزوده بالمعرفة وأن يلبيَ له كلَّ طلباته، شرطَ أن يكون فاوست خادمًا له في الجحيم. ويوافق فاوست ويوقِّع بقطرة من دمه على الاتفاقية مع الشيطان. ويُغوي الشيطان الفتاةَ غريتشين فتقع في غرام فاوست، ثم تقتلُ أمها لتخلوَ بحبيبها، ويثور أخاها على العلاقة فيقتلُه فاوست، بمساعدة الشيطان طبعًا. ويُحكَم على غريتشين بالسجن لأنها قتلت وليدها. ويحاول فاوست إنقاذها بمساعدة الشيطان فتأبى.

العبرة من المسرحية أن الحياة متاع الغرور، وأن الإنسان محدود.

ثم إن فاوست يصعد إلى السماء، فتستقبله الملائكة وهي تُنشد: «المجتهد الساعي يستحق الجنة».

تُرجمت فاوست إلى العربية أكثرَ من مرة. ولكنها مسرحية يغلب عليها الشعر، والشعر يفقد الكثير عندما يُترجم.

بَيْدَبا

كليلةُ ودمنةُ أختان، وهما من بنات آوى. وتخوضان صراعات الغابة بين شتى الحيوانات المفترسة. واسمُهما السنسكريتي كاراتاكا وداماناكا.

الكتاب يضم قصصًا عن حيوانات أخرى كثيرة. والحيوانات في كليلة ودمنة حيوانات ناطقة بأمر ربها. توجد من هذا الكتاب نسخ كثيرة بالأصل السنسكريتي الهندي، وبالفهلوية لغة فارس القديمة، وبالعربية والسريانية. وليست هناك نسخةٌ متفقٌ عليها.

والنسخة العربية التي بين أيدينا اليوم ترجمها ابن المقفع. فأما المؤلف فهو الحكيم الهندي بَيدَبا. أَلَّف هذا الكتاب لسلطانه دَبشَليم. النسخة العربية مترجمة في الغالب عِن الفهلوية، الفارسية القديمة، وهي تحفة نثرية عربية

فابن المقفع صاحب أسلوب عابر للعصور، وقد عاش في زمن قيام دولة من أعظم الدول، هي الدولة العباسية، وشهد الدسائس والغدر والاغتيالات، وعاش في حكم أبي جعفر المنصور الخليفة المحنك. وكتاب كليلة ودمنة إنما وُضع للملوك، وفيه وصف للمكايد والحيل. ها هي قصة اللقلق الذي سمَّاه ابن المقفع «مالكَ الحزين»: «كانت الحمامة تضع بيضها في عُشٍّ بأعلى الشجرة، ويفقس البيض عن فراخ، فيأتي الثعلب ويقولُ لها ارمي إليَّ بفراخك وإلا صعِدت وأكلتُها وأكلتك. فترمي له المسكينة فراخها. فجاءها يومًا مالك الحزين وقال لها: يا حمقاء! الثعلب لا يستطيع تسلق الشجرة، فلا ترمي إليه بفراخك. وجاء الثعلب بعد حين وطلب من الحمامة أن تلقيَ إليه فراخَها فامتنعت، وقالت: اصعد إليَّ إن كنت تستطيع! فقال لها: من علَّمك هذا العلم؟ قالت: مالكُ الحزين. فأتى الثعلب إلى مالك الحزين وقال له: ماذا تفعل لو جاءتك الريح عن يمينك؟ قال أضع رأسي تحت جناحي الأيسر هكذا، فقال فإن جاءتك عن شمالك؟ قال أضع رأسي تحت جناحي الأيمن هكذا. قال فإن جاءتك الريح من كل جهة. قال: أخفي رأسي بين الجناحين هكذا. وأخفى مالك الحزين رأسه. فهجم عليه الثعلب وافترسه».

فدوى طوقان

هذه شاعرة فلسطين فدوى طوقان، أختُ شاعر فلسطين إبراهيم طوقان.

كانت بنتًا خجولة لم تنل إلا بعض التعليم المدرسي، وسوى ذلك فهي قعيدةُ بيت العائلة الكبير في مدينة نابلس المحافظة، ولا يُسمح لها بالخروج إلا قليلًا. وكلما عاد أخوها -الذي يكبرُها باثنتي عشرة سنة- من بيروت حيث يدرس في الجامعة أعطاها أبياتًا من الشعر القديم لتحفظها. وتوفي إبراهيم وهي في أواسط العشرين، ومضت وحدها تقرأ الشعر وتقرِضُه.

أطلق إبراهيم طوقان في أشعاره النذيرَ إثر النذير بأن نكبةً ستنزل بفلسطين، وشهدت فدوى تلك النكبة، ثم شهدت النكسة.

عرفت في صباها الحرمانَ من الحب. وهي تروي -في كتابها رحلةٌ جبلية، رحلةٌ صعبة- قصةَ لقاء عابر في الشارع مع فتىً، وكيف أن الأهل علموا بهذا اللقاء وحجروا على ابنتهم. من شعر فدوى طوقان:

هذي فتاتُكِ يا مروجُ

فهل عرفتِ صدى خطاها

عادت إليكِ مع الربيعِ

الحلوِ يا مثْوى صِباها

عادت إليكِ ولا رفيقَ

على الدروبِ سوى رُؤاها

كالأمسِ، كالغدِ ثَرَّةَ

الأشواقِ، مَشبوبًا هواها

ومع التقدم في السن، وخصوصًا بعد موت أبيها المتشدد تحررت فدوى من الأسر المنزلي، وإن ظلت محافظة في سلوكها بحكم المدينة، وبحكم ما ترسَّب في النفس. شعرها مليء بالتوق إلى الحب:

ماذا أُحِسُّ هنا بأعماقي

ترتجُّ أهوائي وأشواقي

بي ألفُ إحساسٍ يُحرِّقُني

متدافعِ التيارِ دفَّاقِ

ماذا أُحِسُّ؟ أُحِسُّ بي لَهَفًا

حيرانَ يغمُرُ كلَّ آفاقي

نفسي موزعةٌ معذبةٌ

بحنينها، بغموضِ لهفتِها

شوقٌ إلى المجهول يدفعُها

متقحِّمًا جدرانَ عُزلتِها

أَهي الطبيعةُ صاح هاتفُها

أهي الحياة تُهيبُ بابنتِها؟

وبالتدريج أخذ الهم الوطني يسيطر على شعرها، وقد أخذت تنظم على طريقة التفعيلة. تصور الشاعرة امرأة تودع ابنَها الفدائي:

يا يومَ أسلَمَتهُ للحياة

عجينةً صغيرة مطيَّبةْ

بكل ما في أرضنا من طيب

يا يوم ألقمَتْه ثديها الخصيب

وعانقتْ نشوتَها، واكتشفت معنى وجودِها

من أجل هذا اليوم

من أجله ولدتُكْ

من أجله أرضعتُك

دمي وكلُّ النبض

وكلُّ ما يمكن أن تمنحَه أمومة

يا ولدي! يا غرسةً كريمة

اذهب فما أعزُّ منك يا بُنَيَّ إلا الأرض

حلَّت النكبة بمعظم فلسطين في عام ثمانية وأربعين، واحتل اليهود الأرض وأقاموا دولة، ثم بعد عشرين سنة أتوا على البقية، ووقعت نابلس مدينةُ الشاعرة تحت الاحتلال.

طلب وزيرُ حرب الدولة المحتلة لقاءَ الشاعرة، التي أصبحت مشهورة في بلاد العرب. وقابلت فدوى طوقان موشي ديان، وحمَّلها رسالةً إلى جمال عبد الناصر. والتقت بالرئيس المصري الذي رحب بها كل ترحيب، لكنه أدرك بسرعة أنها بريئة إلى حد أنها لا تصلح لحمل الرسائل السياسية.

ورغم أن الهمَّ الوطني ظل يشغلها، فإن فدوى طوقان، التي لم تتزوج قط، ظلت حتى الرمق الأخير تحس بلوعة الحرمان من الحب ومن الأمومة. تقول في آخر دواوينها اللحن الأخير، الذي صدر وهي تعالج أوجاع الثمانين:

ما الذي يملكُ أن يفعلَه قلبٌ يظل الشعر والحب لصيقين به لا يبرحانِه

ما الذي يملك أن يفعله قلبٌ على طول المدى

هو طفل الحب يمضي سادرًا في غَيِّه لا ينثني عن عُنفوانِه

توفيت فدوى طوقان عام ألفين وثلاثة بعد أن نالت من الشهرة والتكريم الكثير، لكنها ماتت وشعور الحرمان حي في أعماقها.

الجاحظ

هل يمكن لمثقف في الدنيا أن يقرأ كتابًا عمره ألفٌ ومئتا سنة، ويضحكُ ملء شدقيه ويفهمُ كل ما فيه؟ هذا ممكن في العربية، في كتاب البخلاء للجاحظ مثلًا. كتاب البخلاء كتبه الجاحظ عن الناس في بيوتهم وأسواقهم، عن الحياة اليومية. الجاحظ يكتب كأنه يتكلم، ويقصُّ قصص ناس عرفهم في البصرة.

خير نسخة لكتاب الجاحظ هي نسخة طه الحاجري المحققة تحقيقًا ممتازًا، وفيها شروح وهوامش كثيرة، وفيها الكتاب كاملًا. ومع أن عبد السلام هارون حقق معظم كتب الجاحظ فإنه ترك البخلاء لأن هذا الكتاب لقي ما يكفي من العناية على يد الحاجري.

وضع الجاحظ للشرِهين مصطلحات، فـ «النشَّال» هو الذي يتناول من فمِّ القِدر ويأكل قبل النضج وقبل أن تنزل القِدر ويتتامَّ القوم. و«الـمِرسال» يضع في فيه لقمة هريسة أو ثريدة فيرسلها في حلقه إرسالًا كي يُتبعها بأخرى سريعًا. و«اللكَّام» الذي في فيه اللقمة ثم يلكُمُها بأخرى قبل إجادة المضغ. و«المقوِّر» الذي يقور الرغيف فيأخذ وسطه ويدع لأصحابه الأطراف. و«الملغِّم» الذي يغمز التمرة ويجوفها لكي تحمل من الزبد والسمن أكثر. و«اللطَّاع» يلطع أصابعه أي يلعقها ثم يعيد يده في قصعة القوم. و«الدفَّاع» يدفع العظم نحو أصحابه بخبزة في يده، يريهم أنه يريد تشريب الخبزة بالمرق، لكنه يستأثر باللحم. و«المحوِّل» يأكل التمر مع صاحبه فيحول النوى إلى جانب صاحبه كيلا يُعرف مقدارُ ما أكل.

وسوى ما في الكتاب من الفكاهة هناك شعر وقصص يرويها الجاحظ. وهناك عبارات فيها مقايسات منطقية على أسلوب أصحاب الكلام، وكان أبو عثمان من رؤوسهم.

ابن المعتز

ابن المعتز خليفة عباسي، فلماذا ننسبه إلى أبيه فنقولُ ابنَ المعتز ولا نلحق به لقبًا. ذلك أنه تولى الخلافة يومًا وليلة. عُزل الخليفة المقتدر وجيء بابن المعتز خليفة، وبعد يوم وليلة قتلوا ابن المعتز، وعاد المقتدر إلى الخلافة. فابن المعتز هو الخليفة الذي لا يعُدُّونه بين خلفاء بني العباس السبعة والثلاثين.

لقد عاش حتى ناهز الخمسين وهو شاعر وأمير، وكان شاعرًا مُجيدًا. وجاءته الخلافة فجأة وقضت عليه فجأة. في زمنه كان بين بني العباس والعلويين حربٌ باردة، تشتعل حينًا ثم تخمد. والعلويون -وهم من نسل علي بن أبي طالب- ذوو مكانة في الدولة ولهم نقيب وله عطاء من بيت المال. العباسيون يقولون نحن من نسل عم النبي ، والعلويون يقولون نحن من نسل فاطمة ابنة النبي . وفي مناوشة بين ابن المعتز وأحد العلويين قال ابن المعتز بيتًا يعدُّ بحق قصفَ جبهة. قال:

فأنتُم بني بنتِه دونَنا

ونحنُ بنو عمِّه المسلمِ

يسلَمُ للعلويين بأنهم من نسل بنت النبي ﷺ. ويقول نحن من نسل عم النبي المسلم. وكلمة «المسلم» هي العقدة في البيت. فهي إشارة إلى أن جدَّ العلويين أبا طالب عمَّ النبي ﷺ مات ولم يُسلم. فكأنه يقول للعلويين جدكم مات على شركه وجدنا «العباس» مسلم.

هنري ثورو

هذا كاتب لم أقرأ له كتابًا. لكن اهتمامي به قديم. منذ سنوات كثيرة قرأت أن هنري ثورو رجل ذو أخلاق. هذا كل ما أتذكره. وتمضي السنين، ولا أجد وقتًا لقراءة شيء لهنري ثورو. ولكن ذاكرتي تأبى نسيانه. هذا الأميركي عاش في القرن التاسع عشر ورفض العبودية والرأسمالية، ورفض الحكومة. عاش في كوخ سنتين في عزلة، وقرر أنه لا يريد حتى أن يعمل. قال إن ما يكفي الإنسان هو أن يعمل يومًا واحدًا في الأسبوع، ويعيش على الكفاف. وسجنوه ليلة واحدة لمشاغباته. وظل يدعو إلى العصيان المدني. العصيان المدني هو أن تجد الشجاعة لتعصي الحكومة دون أن تصنع شيئًا. فقط أن تكون عاصيًا. لم يصبح ثورو مشهورًا في سنيه الأربع والأربعينَ التي عاشها.

لكن غاندي تذكَّره، ومن وحيه أعلن العصيان المدني، فحرر الهندَ من المستعمِر البريطاني. قال غاندي: «ثورو من أعظم من أنجبت أميركا، ومن أكملهم خُلقًا».

وقرأ القس مارتن لوثر كينغ، وهو في الخامسة عشرة من العمر، ما كتبه ثورو قبل ثمانين سنة، وعصى النظام الأميركي لنيل الحقوق للسود.

قال هنري ديڤيد ثورو:

• نبدد حياتنا بالتفاصيل، ما أحوجنا إلى البساطة!

• تجلسُ لتكتب قبل أن تقف لتعيش، يا للعبث!

• العبرة ليست بما تنظر إليه، بل بما تراه.

• الأحلام محك الشخصية.

• لم أجد لي صحبة خيرًا من العزلة.

• إذا بنيت قصورًا في الهواء فعملك لم يذهب سدى، الآن ابن لها أساسًا تحتها.

• الكتب ثروة العالم، وهي الثروة الوحيدة التي تورَّث للأجيال وللأمم.

• سرير الحيوان مكان يدفئه بجسمه، وأما الإنسان فقد اتخذ صناديق يسمونها المنازل وحبس فيها هواء يدفئه بالنار، فهو يصنعُ صيفًا وسط الشتاء، والإنسان

يضيئُ المنازل بالمصابيح فيصنعُ نهارًا في وسط الليل. قد أتعب الإنسان نفسه.

• ابدأ بالكتب الجيدة، وإلا لن تجد وقتًا لقراءتها.

• عرفت من تجربتي أنك لو مشيت في اتجاه أحلامك بثقة لتعيش الحياة التي تريد، فسوف تصل.

• التمرد أساس الحرية، والمطيعون عبيد.

• أحسن ثناء توجهه إليَّ أن تسألني عن رأيي ثم تسمعَني للنهاية.

• المنقِّب عن السيئات سيجدها حتى في الجنة.

• مهما وجدت حياتك سيئة فأنت أسوأ منها.

• عندما تقتل الوقت فأنت تجرح الأبدية.

• لم أُخلق لكي أُجبر على شيء، سأتنفس بطريقتي.

• الأشياء لا تتغير، بل نحن نتغير.

• مثلما أن الجنة فوق رؤوسنا، فهي تحت أقدامنا أيضًا.

• ما فائدةُ البيت إن لم تجد كوكبًا مناسبًا تضعه فيه.

• مَشية الصباح بركة لليوم كله.

• مهارتي الكبيرة أنني قليل الاحتياجات.

أوسكار وايلد

كان كاتبَ قصة ورواية ومسرحية، وكان شاعرًا. كان حديثَ لندنَ كلِّها.

أوسكار وايلد صورة مجسَّمة للعلم الغزير والأناقة، ولفلسفة اللذَّة. ملأ كتبه بالعبارات اللاذعة. ثم وقعت الكارثة. انكشف أمر علاقة له بابن لورد. وكانت محاكمةٌ ثم محاكمةٌ أخرى. ثم حُكم عليه بالسَّجن سنتين مع الأشغال الشاقة. وقضاهما كاملتين، ثم رحل إلى فرنسا. ومات بعد قليل بالتهاب السحايا عام ١٩٠٠. كان في السادسة والأربعين من العمر. ما زالت أعمال أوسكار وايلد تُطبع وتُقرأ وتُمثَّل. قال أوسكار وايلد:

• عندما تحب امرأة فهي تعطيك القليل. وعندما تحبك امرأة تعطيك نفسها.

• معظم الناس مجردُ صورٍ لغيرهم: أفكارهم آراء الآخرين، حياتهم محاكاة، وعواطفهم اقتباسات.

• الصديق الجيد يطعنك من الصدر.

• إنما النساء لكي نحبَّهن لا لكي نفهمَهن.

• لست يافعًا بما فيه الكفاية لأعرف كلَّ شيء.

• القضية لا تكون عادلةً بالضرورة لأن أحدًا مات من أجلها.

• الطريقة الوحيدة للتخلص من الغواية أن تستسلم لها.

• مضيعة للوقت أن تصنف الناس بين جيد ورديء. الناس قسمان ثقلاء وظرفاء.

ما أصدق ذلك! فالإنسان الجيد في موقف رديء في آخر. ولكن ثقيل الدم ثقيل في كل موقف.

• أسوأ شيء ليس أن يستغيبَك الناس، بل ألا يستغيبوك.

• في الأزمات العاطفية: النساء العاديات يبكين. الجميلات يذهبن للتسوق.

• الورد يفتِّح من أجل سعادته الخاصة.

• عملت طول النهار على تنقيح قصيدتي، وأزلت فاصلة. في المساء أرجعتها.

• الخبرة هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن الحصول عليه مجانًا.

• مع الشيخوخة تأتي الحكمة، لكن أحيانًا تأتي الشيخوخة وحدها.

• عندما يجتمع مدراء المصارف يتحدثون عن الفن. وعندما يجتمع الفنانون يتحدثون عن المال.

• خفة الدم عند المرأة تقتل الرومنسية.

• الفنانون الرديئون يعجبون بأعمال بعضهم بعضًا.

• العصبية الوطنية فضيلة الأجلاف.

وقال أوسكار وايلد: «في صغري ظننت المالَ أهمَّ شيء في الحياة، والآن وقد كبرت، تأكدت من ذلك».

وليم هازلت

وليم هازلت: كاتب إنجليزي مات قبل نحو ١٩٠سنة. وقد خلَّف مقالات بالمئات، فشهرته أنه كاتب مقالات. فأما أنه رسام فهذا شيء حاول أن يكونه.

حياة هازلت التي امتدت اثنتين وخمسين سنة مثال ناصع على أن النقد فيما بين المتعاصرين يحطم القلوب. كان هازلت ناقدًا، ولقي موجات من النقد والتجريح طول حياته.

بعد فشل زواجه تعرف على فتاة تصغره بعشرين عامًا. كانت لعوبًا مليئة بالحيوية، وكانت تتصل بغيره. حاول أن يستميلها. أصيب بحالة شغف مؤلمة، وأكلت قلبَه الشكوك. طلب من أحد أصدقائه أن يستميل الفتاة ليعرف أهي لعوب حقًّا، وقام صديقه بالمهمة وكان يواليه بالتقارير عما يجري بينه وبينها من حديث.

وأخيرًا كتب هازلت روايته الوحيدة عن هذه الفتاة. ولم يَخفَ على أحد أن الرواية هي ما جرى معه بالتفصيل. وكان اسم فتاته تلك سارة.

الكاتب المصري عباس العقاد، كتب رواية وحيدة. هي سارة. وفيها شغف وغرام وشكوك. وفيها أنه كلف صديقه بمراقبة المحبوبة، وكان يرفع إليه التقارير عن روحاتها وغدواتها. الشبه يوحي بأن العقاد تأثر برواية هازلت، ونسج قصة خيالية مشابهة. هذا والعقاد قد عرف كتابات هازلت جيدًا وكتب عنه. قال وليم هازلت:

- فن العيش أن تعرف كيف تستمتعُ بالقليل وتتحمل الكثير.
- حب الحرية هو حب الآخرين، وحب السيطرة هو حب الذات.
- الحب يتحول إلى لامبالاة أو اشمئزاز، أما الكراهية فتبقى على حالها.
- الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك ويبكي، ذلك أنه يفاجأ من الفارق بين الواقع وبين ما يجب أن يكون.
- الشريف صريح رغم ما يسبِّبُ من أذى، والخسيس صريح لكي يسبِّبَ الأذى.
- العظيم حقًّا يبقى عظيمًا بعد موته.
- المنافق يحتقر الذين يخدعهم بنفاقه، لكنه أيضًا لا يحترم نفسه.
- الأحكام الجاهزة وليدة الجهل.
- مكافأة العلم: العلم نفسه.
- الرغبة تنجز أكثر من الكفاءة.
- الكياسة انعكاس لانسجام روحي.
- اللقب أثقل حجر يلقيه الشيطان على إنسان.

بالفعل قد تكون إنسانًا طيبًا يخدم الآخرين، سخيًّا كريمًا. ويأتي صاحب من أصحابك العابثين وفي مجلس من المجالس يلقبك «ثور الساقية». وتضحك ويضحك الناس. ويلتصق بك اللقب، فلا يشير إليك الناس بعد ذلك إلا بثور الساقية. اللقب ثقيل حقًّا. نمضي مع وليم هازلت:

• الشاب يعتقد أنه لن يموت.

• أقل ألم يصيبنا يقلقنا أكثر من مقتل الملايين البعيدين.

• من يعتبرون لباسهم جزءًا من شخصيتهم تصبح قيمتهم لا تتعدى قيمة ملابسهم.

• الجمهور لا يملك الوفاء، ولا الحياء.

• قد نملُّ من كل شيء إلا من الوقوع في الناس، والفرح بالتنقير عن معايبهم.

• تكريمنا بعد الموت تعويض هزيل عن تجاهلنا في حياتنا.

• طول التأني مجبنة.

• من استطاع قيادة نفسه استطاع قيادة الآخرين.

• أكثر الناس ثقافة هم في الغالب الأضيق أفقًا.

• كي نكون سعداء لا بد أن نعمل شيئًا.

• لنقنع الناس بطريقة تفكيرنا يجب أن نفهم طريقة تفكيرهم، يجب أن تكون تابعًا كي تكون متبوعًا.

• الإنجليز بذيئون.

• من بخس قيمة نفسه بخس الآخرون قيمته.

• الثناء على شخص مقرب منا محبب إلينا ضرب من الأثرة. تواضعنا وغيرتنا يجعلاننا حذرين في هذا الموضوع.

• الرذيلة طبع الإنسان، والفضيلة عادة، أو قناع.

• الصعود إلى القمة أصعب من البقاء عليها.

• لا صديق حقيقيًّا لمن يخشى أن يكون له أعداء.

• من أمارات الضعف البالغ أن ننفتح على من يعاملنا بتحفظ.

• بساطة الشخصية نتيجة طبيعية للعمق الفكري.

• نحن نندم على ما أحسنَّا فيه بقدر ما نندم على ما أسأنا فيه.

• الهامشيون عنصر اجتماعي يبثُّ الراحة. ما أروع هؤلاء الناس شرط أن يكونوا راضين بالدور الذي يقومون به.

وقال وليم هازلت: «النفاق رأس الرذائل، حتى توبة المنافق نفاق».

العقاد

أُحدِّثكم عن رجل يحبه الشباب المراهقون ثم ينصرفون عنه. وبما أنني كنت كذلك، فسوف أُحدِّثكم عن ذلك.

كان عباس العقاد شديدًا في الخصومة، يتجاوز الحد. والمراهق يحب البطل المحارب. شن العقاد حربًا هوجاء على أكبر شاعر عرفته اللغة العربية في جيله وفي أجيال كثيرة سابقة هو أحمد شوقي. ونقد العقاد الأب أنِسطاس الكِرملي فكان نقده تصغيرًا للرجل. وسبَّ العقاد الرافعي بادئًا مقالة له عنه بعبارة: «مصطفى أفندي الرافعي رجل أحمق». فناله من الرافعي كتابٌ كلُّه سباب. كان نقده لمن يَصغُرونه سنًّا وشهرة مجرد استصغار لا تجوز عليه كلمةُ نقد. كذا كان نقدُه لمحمد مندور. خاض معاركَ أدبيةً صنعت له صيتًا. كان يقدح في معاصريه فينال صيتًا، ويُقدحُ فيه فينال صيتًا.

وكانت للعقاد شلة. كان يعقد مجلسه الأسبوعي فيتحلَّق حوله مُريدوه. ونغفر له كثيرًا من سلاطته لسببين وسبب: الأول أنه انتقد الملكَ أحمد فؤاد فسُجن، ولم يتزلَّف لعبد الناصر واعتزل. والثاني أنه كتب مئة كتاب، والسبب الثالث: أنه الأديب العربي الذي قرأ كثيرًا وأعلى من قيمة الكتاب في نظر الناس. هذه جُملة من أقوال عباس محمود العقاد:

• كن شريفًا أمينًا، لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانة، بل لأنك أنت لا تستحق الضِّعة والخيانة.

• لا يهمني كم من الناس أرضيت، لكن يهمني أيُّ نوع من الناس أقنعت.

• نقرأ لنبتعد عن نقطة الجهل، لا لنصل إلى نقطة العلم.

• إذا ميز الرجل امرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب.

هذه العبارة الأخيرة نجد فحواها عند برنارد شو. والعقاد نفسه في كتابه عن برنارد شو ينقل قوله في مسرحية ميجر باربارة: «إنك كجميع الفتيان تبالغ في تقدير الفرق بين فتاة وفتاة». الفكرة واحدة. ونمضي مع أقوال العقاد:

• أكثر المحامين صراخًا أبعدهم عن الحق.

• لا نحب حين نختار، ولا نختار حين نحب.

• الندرة في الكتب أيام التلمذة علمتني دستور المطالعة الذي أدين به إلى الآن وخلاصته: أن كتابًا تقرأُه ثلاث مرات خير من قراءة ثلاثة كتب.

• الأسلوب الذي يخرج من فطرة سليمة أسلوب عصري.. في جميع العصور.

• لا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع إلا التنفيذ.

• الإنسان يقضي العمر كلَّه يحاول ألا يكون مجنونًا.

• ربما تَلخصت المسيحيةُ كلُّها في كلمة هي الحب، وربما تلخص الإسلام في كلمة هي الحق.

• لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة، ولكن لأن حياة واحدة لا تكفيني.

• لا عذابَ للنفس أنكأُ من شعورها بالنقص، ولا نعيم لها أنعمُ من شعورها بالرضوان.

• في طبع الإنسان جوع إلى الاعتقاد كجوع معدته إلى الطعام.

• ليس الحاسد من يطمع في أن يساويك في المكانة بأن يرقى إليك، بل هو الذي يريد أن تساويه بأن تنزل إليه.

• ما رأيت مرائيًا إلا وجدتُه مغتابًا نمَّامًا. والجرأة على الناس في غَيبتهم كالتزلُّف إليهم في حضرتهم: كلاهما علامة الجُبن والصغار.

• الأمة التي تُحسن أن تجهر بالحق وتجترئ على الباطل تمتنع فيها أسباب الفساد.

رحم الله العقاد، قد انتقدته كثيرًا في البداية. كان رجلًا حرًّا، وكان مثالًا للمرء الذي يعرف قدر نفسه ويأبى أن يبخسها أحدٌ قدرها.

سومرست موم

أُحدِّثك عن شخص لا تعرفه، وقريبًا ستعرفه. هو ليس بشخص بل نمطٌ من الناس. وقد تريد معرفة التسمية التي تطلق على هذا النمط من الناس؟ هذا لن يفيدك. لكن ها هي التسمية: «سينيك»، هل تعني لك شيئًا؟ وها هي التسمية العربية: «الكلبي». هل تعني لك شيئًا؟ وقد ابتدعت تسمية سوى هاتين، لكن حنانيك حتى أحدثك عن شخص بعينه. هو أحد أقربائي.

تعود من السوق وتقول له: «وجدت متجرًا يبيع العطور الباريسية الأصلية بنصف سعرها. ليست تقليدًا، بل عنده تصفية». فيقول لك: «لا يا شيخ!»

وتقول له: «الحزب الفلاني مبادئه واضحة، وغالبًا سيفوز». فيقول لك: «لا يا شيخ؟» وتصف له ممثلًا جديدًا أدى دورًا صعبًا. فيعلِّق قائلًا: «لا يا شيخ». قريبي هذا ليس عدميًّا. ولا هو متشائم. هو لا يصدق بسرعة. ولا يهتمُّ بما تريده أن يهتم به». تقول له: «واضح أن هذا البرد سيجلب الثلج؟» فيقول..! طبعًا عرفت ما سيقول. هذا الشخص أسميه الـ «لاياشيخ». تحدثه عن الوطنية وحب الوطن ووجوب الدفاع عنه، فيقول: «لا يا شيخ». لكنك تفاجَأ به وقد سجل اسمه متطوعًا ليدافع عن الوطن. يا للغرابة! تسأله: «لماذا؟» فيقول: «لا أستطيع العيش وأنا أشعر أنني جبان».

الـ «لاياشيخ» نوع من الناس. يحبون ويكرهون ويُضَحُّون، ولكنهم باردون، ولا يصدقون بسهولة. ويخترقون ببصر حاد غلاف النفاق البشري. أكبر «لاياشيخ» عرفته -بعد قريبي المذكور- الكاتب البريطاني سومرست موم.

قد وصفته لك بما يكفي. هو روائي وقاص، مات عام خمسة وستين وقد تجاوز التسعين. وهذه بعض أقواله:

• أكثر حب دوامًا يكون في العادة من طرف واحد.

• المال حاسة سادسة، وبدونها لا تعمل جيدًا الحواس الخمس الأخرى.

• نحن اليوم لسنا إيانا في السنة الماضية، وكذا من نحب. وإنها لمصادفة سعيدة أن نتغير كلانا ويبقى الحب بيننا.

• الشعر تاج الأدب.

• الأمة التي تقدِّر المال والراحةَ أكثر من الحرية ستفقد حريتها، وبالمناسبة ستفقد المال والراحة أيضًا.

• لكتابة الرواية ثلاثُ قواعد فقط، وللآن لم يكتشفها أحد.

• للأسف لم أتعلم قولَ «لا أدري» إلا بعد أن تقدمت بي السن.

• الكتابة أعظم تسلية.

• الشباب يطلبون منك أن تنقدهم، وما يريدونه إنما هو المديح.

• للأسف فإن تركَ العادات الحسنة أسهلُ بكثير من ترك العادات السيئة.

• لا تسعَ في استعادة صداقات قديمة، هذا مؤلم للطرفين.

• الأمر كان سهلًا على الروائيين القدامى: الأخيار أخيار دائمًا، والأشرار أشرار دائمًا.

• منذ زمنٍ بعيد قررت ألا أعمل شيئًا بنفسي يمكنني أن أدفع للآخرين ليعملوه لي.

• أفضِّل قراءةَ جدول مواعيد القطار على أن أبقى بلا كتاب، عمومًا معظم الروايات أسوأ من هذا الجدول.

• كل النساء في هوليوود حباتُ خوخ، المرء يشتاق أحيانًا إلى تفاحة.

• لا جدوى من معرفة سر الحياة إلا إذا اكتشفته بنفسك.

• القراءة ملجأ نلتجئ إليه من بؤس الحياة.

• ما يثقل كاهل الشيخ ليس المرضَ ولا الخرف، بل حمولةُ الذكريات.

• المستبد الحقيقي يخدع كل الناس كل الوقت، شرط أن يخدعَ نفسَه أيضًا.

• إذا أحبتك امرأة فلا يرضيها أقلُّ من أن تمتص روحك.

• القلق الدائم على الرزق ذل دائم.

• المسنُّون بارعون في إقناع الشاب بحكمتهم، وما إن يصلُ الشاب إلى اقتناع بأن هذا هراء حتى يكونَ قد أسنَّ، وحتى يصبحَ من مصلحته أن يستمر في هذا الزعم.

مصطفى صادق الرافعي

مصطفى صادق الرافعي رجل يقدِّسه بعض الناس. كان صاحب قلم، وكتب الكتب. وخاض المعارك الأدبية. وكتب عن الدين وعن الحب. قال الرافعي:

• في قلب الرجل ألف باب يدخل منها كلَّ يوم ألف شيء، ولكن حين تدخل المرأة من أحدها لا ترضى إلا أن تقفلها كلها.

• إن الله لا يمسك عنا فضله إلا حين نطلب ما ليس لنا، أو ما لسنا له.

• النصر لمن يحتمل الضربات لا لمن يضربها.

• في جوف كل إنسان تعرفه إنسانٌ لا تعرفه.

• ليس شيء أقوى من الحق. لكن الشريعة في يد ظالم تجعل الباطل أقوى من الحق.

• الأمة لا تحيا إن ماتت لغتها.

• كم من امرأة جميلة تراها أصفى من السماء، ثم تثور يومًا فكأنها المستنقع أبدى الوحل الذي في قاعه. أغضِب المرأة تعرفها.

• أفتدري ما السعادة؟ طفولة القلب.

• كان عمرها طاقة أزهار تسمى أيامًا.

• الشعب الذي لا يجد أعمالًا كبيرة يتمجَّد بها تُخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهَّى بها.

• البلاغة هي القوة على ضبط النسبة بين الخيال والحقيقة.

• فكرة واحدة ظلت تأكل قلبي: كيف وضعت بيني وبين الله حمقي؟

• إن لم تزد في الدنيا، كنت زائدًا عليها.

• كان في عينيها بكاءٌ لا تستطيع أن تزيله مع الدمع، وسيقتلها هذا البكاء الذي لا يُبكَى.

• المرأة تأبى أن تقر بالضعف إلا إذا وجدت الرجل الكامل، رجلَها الذي يكون معها بقوته وعقله وفتنته وحبها له.

• ما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربية إلا بكأس وامرأة ووتر، وخيال شعري يفتن في هذه الثلاث ويزينها.

• الذي أراه أنه لا ينهض الشرق العربي إلا على أساس وطيد من الدين الإسلامي واللغة العربية.

وقال مصطفى صادق الرافعي: «لقد وضعك حُسنك في طريقي موضع البدر، يُرى ويُحَب، ولا تناله يد».

جورج أورويل

في الأدب توجد روايةٌ طوباوية، تصورُ مجتمعًا فاضلًا سعيدًا، ورواية تشاؤمية تصور مجتمعًا ظالمًا تعِسًا. وروايةُ جورج أورويل المسماةُ بالرقم ١٩٨٤ هي المثالُ الأبرز على الرواية التشاؤمية.

إنها رواية عن مجتمع يسوده القهر والظلم المطلق. وقد وضعَت بعضُ الطبَعات العربية صورةَ ستالين على غلاف الرواية، وهذا تضليل، فالمجتمع الظالم الذي يصفُه أورويل هو مجتمع بريطانيا والولايات المتحدة.

اسم الرواية وراءه طُرفة، فقد أتمَّ أورويل روايتَه عام ١٩٤٨، وخالف بين الأربعة والثمانية فحصل عنده العامُ ١٩٨٤. فجعل أحداث الرواية تقع في هذا العام. ينقسم العالم في الرواية إلى ثلاثِ إمبراطوريات: الأميركية البريطانية، والسوڤييتية، والشرق آسيوية. لكن المجتمعَ الموصوف في الرواية هو بريطانيا.

هذه الدولة الجائرة فيها وزيرٌ للحب ومهمته غسل الأدمغة والتعذيب، ووزير للسلام ومهمته الحرب، ووزير للوفرة ومهمته تقنين الطعام، ووزير للحقيقة ومهمته الدعاية والبروباغندا.

تلتقط أجهزة الدولة المواطنَ ونستون سميث، وتعرِّضُه لأنواع العذاب الجسدي والروحي. يتفنَّن الكاتب في ابتداع أساليب العذاب، والنتيجة لا تنتهي بقتل المواطن ونستون، بل بقتل ضميره وروحه.

مع انتشار الصحافة الاستقصائية عرف العالَم أن جورج أورويل لم يكن مبالغًا. ونحن العرب عرفنا أن بعض أنظمتنا تملك من الإبداع في التعذيب ما لم يخطر ببال أورويل.

أدخلت هذه الرواية إلى جسم اللغة الإنجليزية كلماتٍ عدة منها «بيغ براذر» الأخُ الأكبر وهو الدكتاتور، ومنها شرطةُ الأفكار، ومنها «نيوسبيك» بمعنى اللغة الجديدة وهي اللغة التي تَسمح بها النخبة الحاكمة. ولو نظر المرءُ في جريدة تابعة لنظام قمعي لرأى بوضوح هذه اللغةَ الجديدة: لغةٌ خشبية لا تعبر عن شيء، وكلها رواسمُ مكرورة كأنها تُكتب بغرض التنويم المغناطيسي.

مات أورويل بعد نشر روايته بسنة، فلا شهد نجاحها ولا رأى ما حلَّ بالعالم من كوارث. يقرأ الناس الرواية ويقولون لا نريد أن نؤول إلى هذا. ويقرأها ناس آخرون -في دول القهر- فيقولون: «كأنَّ المؤلف كان يصف حالنا».

من مواطن قصور جائزة نوبل للآداب أن جورج أورويل لم ينلها.

هذا الإنجليزي حارب مع الجمهوريين اليساريين في إسبانيا ضد فرانكو، وظل اشتراكي النزعة، لكنه كان ضد الاستبداد. وعندما كانت الحرب العالمية الثانية على أشُدِّها، وبريطانيا وأميركا والاتحاد السوڤييتي تقف جميعا في خندق واحد ضد ألمانيا النازية، كتب أورويل كتابًا صغيرًا عن تاريخ الاتحاد السوڤييتي. الكتاب كان قصةً أبطالها الخنازير والكلاب والحصان. هذا الكتاب، مزرعة الحيوان، صوَّر لينين وستالين وتروتسكي، رجال الحكم السوڤييتي، بصورة خنازير، وصوَّر زبانية الحاكم بصورة كلاب، والشعبَ بصورة حصان. هي قصة عن حيوانات في مزرعة، لكنها على صغرها صورت تاريخًا من القمع والسيطرة.

مات جورج أورويل عن ستٍّ وأربعين سنة. كان رجلًا حرًّا عادى الاستعمار، وسخر من تعالي قومه الإنجليز. ولكنه وقف مع وطنه عندما شن هتلر الحرب على بريطانيا وكل أوروبا.

كان السِّل يحول دون انخراطه في الخدمة العسكرية فعمل كاتبًا ومذيعًا في البي بي سي، هيئة الإذاعة البريطانية. قال جورج أورويل:

• ينام الناس في أسِرَّتهم بهدوء وسكينة لأن رجالًا خشنين يقفون على أهبة الاستعداد لارتكاب العنف بالنيابة عنهم.

• الحرية هي حقك في إعلام الناس بما لا يريدون سماعه.

• أخَذَ مفهوم الحقيقة الموضوعية يتبدَّد، وأخذت الأكاذيب تتحول إلى تاريخ.

• كل جيل يظن نفسه أذكى من الجيل السابق، وأحكمَ من الجيل اللاحق.

• كثير من الفكر اليساري لَعِبٌ بالنار بأيدي أناس لا يعرفون حتى أن النار حارة.

• هبطنا إلى مستوى أصبح فيه احتقار ما هو واضح الغايةَ الأولى للمثقفين.

• أسرع طريقة لإنهاء الحرب خسارتها.

• خلاصة التجربة الإنسانية عدم السعي إلى الكمال.

• في داخل كل إنسان بدين هناك إنسان نحيل.

• من وقت طويل أدركت أن الأحداث المهمة لا تُنقل بصورة صحيحة في الصحف.

• الفكر يفسد اللغة، والعكس صحيح.

• لن تستطيع البشرية إنقاذ الحضارة إلا إذا طورت نظامًا للخير والشر مستقلًا عن الجنة والنار.

• السعادة لا تكون إلا مع الرضا.

• نحن لا ننشئ نظام استبداد للحفاظ على مكاسب الثورة؛ نحن نثور لننشئ نظام استبداد.

• الدعاية الحربية والصراخ والأكاذيب، كلها تأتي ممن لا يحاربون.

• هناك أفكار خطأ بشكل كبير حتى أنها في حاجة إلى شخص ذكي جدًّا للإيمان بها.

• الرياضة ليست فيها روح رياضية، بل فيها كراهية وغيرة وتفاخر وسادية، ورغبة من المشاهدين في رؤية العنف. ببساطة الرياضة حرب لا ينقصها إلا إطلاق الرصاص.

• الحرب تحدث عندما يظن أغنياء البلد الذي يشنها أنهم سيربحون من ورائها.

وقال جورج أورويل: «المعتز بقوميته لا يعترف بالفظائع التي يرتكبها بلده، لا بل إنه لا يستطيع رؤيتها».

محمود درويش

كان لاجئًا أربع مرات، وأصبح صوتَ فلسطين الشعري. ظل محمود درويش يحاول أن يحب الحياة. في سن السابعة لجأ مع عائلته إلى لبنان مع نكبة فلسطين. وعادوا متسللين إلى وطنهم فكان اللجوء الثاني؛ إذ إنهم وجدوا قريتهم البروة، عندما عادوا، قد دُمِّرت ومُسحت عن وجه الأرض. فتشردوا داخل فلسطين. وسجن الكيان الغاصب محمود درويش الشاب مرارًا، وبعد حين كان اللجوء الثالث. فعاش محمود درويش بين موسكو والقاهرة وبيروت.

اتصل محمود درويش بمنظمة التحرير الفلسطينية. كان قد أصبح شاعرًا مشهورًا فكان له دائمًا موقفُه الخاص، وتقبلته المنظمة. ورغم أنه رفض اتفاق أوسلو، فقد عاد مع من عاد إلى رام الله ليكون اللجوءُ الرابع. فهو في رام الله، التي ظلت محتلة، لاجئ أيضًا.

بدأ محمود درويش حياته الأدبية شاعرَ فلسطينَ المباشر، ثم تحول إلى شاعر العرب، ثم إلى شاعرٍ بالمعنى الإنساني الواسع. لم يكن شاعرًا سياسيًّا، كان شاعر القضية.

قال محمود درويش، وبعض ما نورده من شعره وبعضه من نثره:

• الخطابة هي الكفاءة العالية في رفع الكذب إلى مرتبة الطرب، وفي الخطابة يكون الصدق زلة لسان.

• ما أشد براءتنا حين نظن أن القانون وعاء للعدل والحق. القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم، أو بدلة يفصلها على قياسه.

• أجمل ما في الصدفة أنها خالية من الانتظار.

• الغجر شعب يخيم في الأغاني والدخان، شعب يفتش عن مكان، بين الشظايا والمطر.

• لا بأس بأن يكون ماضينا أفضلَ من حاضرنا. ولكن الشقاء الكامل أن يكون حاضرُنا أفضلَ من غدنا.

• إن أطلت التأمل في وردة، لن تزحزحك العاصفة.

• كرة القدم فسحة تنفسٍ تتيح للوطن المتفتت أن يلتئم حول مشترك ما.

• أن نكون ودودين مع من يكرهوننا وقساة مع من يحبوننا، تلك هي دونية المتعالي وغطرسة الوضيع.

• فيروز هي الأغنية التي تنسى دائمًا أن تكبر، هي التي تجعل الصحراء أصغر، والقمر أكبر.

• جاءك الفرح فجأة، وقد علَّمتك الأيام أن تحذر الفرح لأن خيانته قاسية.

• نحن ضد المفجرين الانتحاريين ولا نلومهم، يجب علينا أن نفهم ما الذي يدفع هؤلاء الشباب للقيام بتلك الأفعال، إنهم يريدون تحرير أنفسهم من هذه الحياة المظلمة، إنها ليست الأيديولوجيا، بل اليأس.

• لو يذكر الزيتون غارسهُ لصار الزيت دمعًا.

• سأبقى بانتظار يومٍ جميل صنعته في مخيلتي.

• قالت: حتمًا سأنساك، قلت لها: سأفقد الذاكرة ولن أنساك، سأحدِّث المجانين عنكِ.

• الهوية هي ما نُورِّث لا ما نَرِث. ما نخترع لا ما نتذكر.

• إن من سلبك كل شيء لن يعطيك أي شيء، ولو أعطاك أهانك.

• لا أكره شاعرًا يكرهني، لكنني أعتذر عما سبَّبت له من ألم.

وقد أخمل درويش شعراء كثرًا في حياته وبعد موته. داسهم بموهبته.

• رغم كل شيء نقوله أو نكتبه، تبقى في القلب أشياءُ أكبرُ من أن تقال.

• سمائي فكرةٌ والأرض منفاي المفضل، كلُّ ما في الأمر أَني لا أصدق غير حدسي.

• ظلُّ الغريب على الغريب عباءة.

• أكبر تنازل تقدمه في حياتك هو أن تتأقلم.

• القهوة لمن أدمنها مثلي هي مفتاح النهار.

• أبي قال مرة: الذي ما له وطن ما له في الثرى ضريح، ونهاني عن السفر.

• شهادة جامعية، وأربعة كتب، ومئات المقالات، وما زلت أخطئ في القراءة. تكتبين لي: «صباح الخير» وأقرأُها: «أحبكَ».

• إذا ما أردتَ الوصول إلى نفسك الجامحة، فلا تسلك الطرق الواضحة.

وقال محمود درويش: «لا تكثروا من الفضفضة فإنكم لا تدرون، متى يخون المنصتون».

ممدوح عَدوان

لم يشهد ممدوح عَدوان تحول بلده سوريا إلى مسلخ بشري، لكنه استطاع أن يرى ببصيرة الأديب ما يخفيه المستقبل. قال ممدوح عدوان: «حين تتفاقم الأمور فإن السلطات تتراجع، يصبح رجل السلطة أمام خيارين إما الاستسلام للإرادة الشعبية، وإما محاولة قتل الشعب كله».

كتب ممدوح عدوان المسلسلات، والمسرحيات، والروايات، وله شعر في ثمانية دواوين. لكنه وجد الوقت ليترجم بعضَ الكتب المهمة. وفي مقابلة تلفزية سُئل عن ترجمة الشعر فقال عبارة لا أدري إن كانت له أم أنه نقلها. قال: «الشاعر يأخذ الكلمة من القاموس وينفخ فيها روحًا جديدة، ومترجم الشعر يعيد الكلمة إلى القاموس». وقد علَّم ممدوح عدوان فنون المسرح للطلبة نحو عشر سنين، ويقول إن هذا أفاده وضرَّه، فالمثل الإنجليزي يقول إذا أردت أن تتعلم شيئًا فعلِّمه. ومن جهة أخرى فالمعلم يحبس الطلبة في الأسس والقوانين ويطلب إليهم ألا يخرجوا عنها في تمريناتهم، ثم يقول لهم: إذا تخرجتم فاكسروا القوانين كما تشاؤون. الأستاذ يُقَونِن طلبته، لكنه أيضًا يتقونن معهم.

قال ممدوح عدوان:

• قد يرتمي الفنان في الوحل، لكنه لا يفقد القدرة على رؤية عكر العالم.

• إذا حجبت المعلومات الصحيحة عن الإنسان أو قدمتها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف، دمرت جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما دون مستوى الإنسان.

• لم يكن صاحبي مؤمنًا، لكنه قال لي مرة: «الذين يموتون يجب أن يذهبوا إلى الجنة»، وفسَّر الأمر: «لأننا نعيش في جهنم».

وعلى هذا فمعظم العرب موعودون بالجنة. صحيح أن الكثير من أقوال ممدوح عدوان جاءت ضمن سياق روائي، لكنه كتب ما يراه ويحس به. وأحيانًا يكون مباشرًا، إذ يقول:

• الإعلام السوري يكذب حتى في درجات الحرارة.

• حين تسكت عن حقك الواضح، بسبب الخوف غالبًا، فإنك لن تتوقع من الآخر أن يحترم لك هذا الحق، سيتصرف في المرة القادمة وكأن التطاول على حقك من المسلَّمات.

• دلَّت التجارب والأبحاث على أن ما نصفه بالوحشية، هو سلوك خاص بالإنسان.

• نحن لا نتعوَّد إلا إذا مات شيء فينا.

• اجعلوا الحياة من حولنا معقولة لكي نظل بشرًا.

• لا أعرف كيف أميز بين القاتل والمقتول، الكل ضحايا خصم معروف مجهول.

• أخطر ما يتهددنا الآن هو أن نتعود على أنباء المجازر بحيث لا تعود تثيرنا.

• لم تعد بلداننا جميلة، ولم تعد علاقاتنا حميمية، ولم تعد قرانا موجودة، لم يبق حولنا إلا صحراء من الإسمنت والدمار. نركض في ذلك الهجير باحثين عن ظل أغنية أو قطرة شِعر أو نسمة طفولة.

• نحن أمة خالية من المجانين الحقيقيين وهذا أكبر عيوبنا، كل منا يريد أن يظهر قويًّا وعاقلًا وحكيمًا ومتفهمًا. يدخل الجميع حالة من الافتعال والبلادة وانعدام الحسِّ تحت تلك الأقنعة. يتحول الجميع إلى نسخ متشابهة مكررة ومملة.

مات ممدوح عدوان عام ألفين وأربعة.

أبو العلاء المعرّي

نعرض لأبي العلاء المعرِّي من خلال كتابه رسالة الغفران. والكتاب رسالةٌ فعلًا، وقد كتبها المعرِّي ردًا على رسالة تلقاها من أديب اسمه ابن القارح. أرسل هذا الأديب الحلبي إلى أبي العلاء، المقيم بالمعرَّة على بعد نحوِ ستين كيلومترًا، رسالةً يُظهر فيها مدى علمِه وتقواه. فردَّ عليه المعرِّي برسالة من خمسِمئة صفحة، بحسب تحقيق بنت الشاطئ المميز.

تخيل المعرِّي في رسالته الجوابية ابنَ القارح وقد قامت القيامة: تخيل كيف يعاني الرجل في المحشر وكيف يعبر الصراط، ثم كيف يدخلُ الجنة. وقد جعل أبو العلاء صاحبَه يعبر الصراط (زَقَفُونَة)، ومعنى زقفونة أن جاريةً حملته على ظهرها فطوق بذراعيه عنقَها، ولفَّ رجليه على خاصرتيها، وانطلقت به الجارية فعبرت به الصراط. ويمضي أبو العلاءِ ويصفُ ما في الجنة من اللذائذ، هذه اللذائذ التي حَرَم أبو العلاء نفسَه منها في دنياه.

ويستعرضُ أبو العلاء في رسالة الغفران مسائلَ كثيرةً في النحو واللغة. فهو يجعل بطلَ قصتِه يلاقي النحاة واللغويين في الجنة، ويجعلُه أيضًا يزور الجحيمَ فيلقى الشعراء.

في الجنة لقيَ بطلُ القصة أبا هدرش، وهو من الجن الذين آمنوا. فسأله عن الشعر الذي نُسب إلى الجن. وهنا تخطر لأبي العلاء فكرة، فلماذا لا ينظِمُ شعرًا على لسان الجن؟ ويقول أبو هدرش قصيدةً مطلعها:

مكةُ أقوت من بني الدردبيس

فما لِجِنيٍّ بها من حسيس

وتمضى القصيدةُ ستةً وستين بيتًا يزعُم فيها أبو هدرش أنه حارب في بدرٍ ونصَر النبي ﷺ، وحاربَ في اليرموكِ ونصَر المسلمين، وفي صفِّين أيضًا وفي وقعة الجمل. كلُّ هذا مجردُ عبث من أبي العلاء المعرِّي. والعبث الأكبر وصفُه للجنة والنار ومن بِهما من الخلق. لكن المجتمعَ الإسلامي كان في زمن أبي العلاء قادرًا على استيعاب هذا اللون من الأدب. رسالة الغفران تحفةٌ أدبية أوحَت إلى الناس في الشرق والغرب بكتبٍ مثلِها، ولا شيءَ مثلَها.

أبو حيَّان التوحيدي

أبو حيَّان التوحيدي رجل مسكين، خجول وفيه غضب، وانصراف عن الخَلق. لكنه آيةٌ من آيات البيان العربي.

كان أبو الوفاء المهندس صديقًا لأبي حيَّان، ووعده بأن يقرِّبه من الوزير أبي عبد الله العارِض. أعجب الوزير بذكاء أبي حيَّان وسَعة معرفته، فأخذ يطلبُه للمؤانسة المنفردة في الليالي الطويلة. وأخذ أبو حيَّان يسرد على الوزير طرائف العرب، وحكمةَ اليونان، ودقائق الأفكار. مضى في ذلك أربعين ليلة.

غير أن الصديقَ المهندس، اشترط على أبي حيَّانَ شرطًا. قال له: «تكتبُ لي كل ما تحدِّثُ به الوزير». وأخذ أبو حيَّانَ يكتب كل شيء. هذا هو منشأ كتاب الإمتاع والمؤانسة.

ولقد غلبتِ السوداء على أبي حيَّانَ في آخر عمره فأحرق كلَّ كتبه إلا ما كان خرج إلى أيدي الورَّاقين. وسلِمَ لنا مما سلم كتابُ الإمتاع والمؤانسة.

ومما حفظه لنا هذا الكتاب مناظرة من أشهر المناظرات جرت بين أبي سعيدِ السيرافي وأبي بشرِ مَتَّى بن يونس، وتناولت المنطق، والمفاضلةَ بين علوم العرب وعلوم اليونان. وهي تقع في الليلة الثامنة. هذه المناظرة، في رأيي، أفضل مثال على أسوأ مناظرة. فالسيرافي يستطيل على متَّى بفصاحة لسانه، ويوجه إليه التكذيب تلو التكذيب في مجلس كان كل من فيه من أنصار السيرافي. قرأت المناظرة أول مرة وأنا في نحو العشرين من العمر، ولم أزل من يومها أعرف أن من السخف مناظرة صاحب أيديولوجيا.

نمضي إلى الليلة العاشرة لنرى أبا حيَّانَ يكرر ما قاله أرسطو: «أسنان الرجل اثنتان وثلاثون سنًّا، وأسنان المرأة ثلاثون سنًّا». وقد عجب الناس في عصرنا الحاضر من أرسطو، فقد تزوج مرتين، ولكنه لم يكلف نفسه أن يطلبَ من إحدى زوجتيه أن تعد أسنانها ليعرف أنها اثنتان وثلاثون مثلَ الرجل. ولعل في

هذا بعضُ دليل على أن العربَ في العصر العباسي أخذوا أرسطو على عواهنه.

ونمضي إلى الليلة الأربعين. سأل الوزير أبا حيان: «هل يقال عن المرأة رَجُلَة؟» فقال أبو حيان: «حدثنا أبو سعيد السيرافي أنه كان يقال لعائشةَ بنتِ أبي بكر (رجُلة العرب)». فأيد الوزير كلامه وأضاف من عندِه: «سمعت من يقول: والله لو كان لأبيها ذكرٌ مثلُها لما خرج الأمر من يده».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آهل اللغة

حمَلة العربية في مصر

السيوطي

لُقِّب جلالُ الدين السَّيوطيُّ عند ولادته بابن الكتب. ذلك أن أمه ذهبت وهي حامل به لتحضر كتابًا من مكتبة والده فوقعت بين الكتب وجاءها المخاض، ومكثت بين الكتب حتى وضعت، فلقب السيوطي ابنَ الكتب. وكبر جلال الدين السيوطي ووضع ستَّمئة كتاب، فجدير بلقبه أن يصبح «أبا الكتب».

الـمَرصفيَّان في «جريمة أكل»

إذا يممت قريةَ مَرصَفا، قرب بنها في الوجه البحري بمصر، وكنت جائعًا نائعًا فلك أن تتناول شطيرة في مطعم (حكاية وحدوتة). فإن كانت أخذتك لَعوَةُ الجوع، فنقَّت ضفادع بطنك، وقرقرت أمعاؤك، وغرِثتَ وسَغِبت، فاعبر الشارع تلقَ مطعم (جريمة أكل) وفيه تَستَرِطُ من البيتزا والمكرونات والشاورما ما يُقهيك ويُكِظُّك.

وأيَّما مطعمٍ من المطعمين اخترت، فلا بد من أن تبلِّغ أهل مَرصَفا أن لقريتهم أياديَ بيضًا على الأدب العربي.

من مَرصَفا، خرج الشيخ سيد بن علي المَرصَفي (ت ١٩٣١) أستاذُ طه حسين والمنفلوطي والزيات ومحمد محيي الدين عبد الحميد، وزكي مبارك والجارم والبشري ومحمود شاكر. قال عنه محمود شاكر: «وكان الشيخ سيد، حَسَن التقسيم للشعر حين يقرأه، فيقفُ حيث ينبغي الوقوف، ويمضي حيث تتصل المعاني، فإذا سمعت الشعر وهو يقرأه فهمتَه -على ما فيه من غريب، أو تقديم وتأخير، واعتراض- فكأنه يمثله لك تمثيلًا».

ويُرجع طه حسين نموه العقلي إلى رجلين: الشيخ سيد بن علي المرصفي الذي كان يلقاه في الأزهر صباحًا، والمستشرق نلِّينو الذي كان يحضر دروسه في الجامعة في المساء.

كان الشيخ سيد يدرِّس في الأزهر، وعندما أسن لزم بيته، وكسرت رجله وهو يداعب حفيده، فأخذ مريدوه يغشونه في بيته يأخذون من علمه. الشيخ سيد شارح كتاب الكامل للمبرِّد. ويا له من شرح زادت فيه الهوامش عن الأصل زيادة كبيرة.. ومهمة.

ومن مَرصَفا خرج -قبل جيل من زمن الشيخ سيد- رجل آخر ربما كان أثره على الأدب العربي أعمق. أوَهُناك أكثرُ وأبلغُ ممن علَّم كلَّ أولئك النوابغ الذين ذكرناهم؟ صبرًا.

الشيخ حسين الـمَرصفي رجل ضرير عاش قبل ابن بلدته بجيل. مات في السنة التي ولد فيها طه حسين (١٨٨٩).

إن سألت عمن أقام الشعر العربي من رقدته قيل لك البارودي، وإن سألت عن أعظم شعراء العربية في العصر الحديث قيل لك شوقي. وهذان تلميذا الشيخ حسين المرصَفي.

ويشترك الشيخ حسين المرصفي مع بلديِّه سيد بن علي في صفة لا تخفى على من عرف اليسير من سيرتهما العلمية والأدبية. كانا كلاهما يتذوقان الشعر بما هو شعر. يحبان في الشعرِ المعنى والإيقاع. كانا ينفعلان بالشعر الجميل، والأدب الذي ارتقى عن التلاعب بالألفاظ. ومن هنا أثرُهما الكبير في جيلين. هذان الرجلان -ابنا قرية (جريمة أكل) - أنهضا الشعر العربي والنثر العربي في العصر الحديث بمصر، والوطن العربي.

أحمد تيمور

منذ سيبويه وبشار وابن الرومي واللغة العربية تحظى برجال ونساء كثر من غير العرب، برعوا فيها وتمسكوا بها شغفًا أو تدينًا. وهذا أحمد تيمور الباشا ابن الباشا يولد لأب كردي وأم تركية، وهذه أختُه الكبرى لأبيه عائشةُ التيمورية -وأمُّها شركسية- تنظِم الشعر بالعربية وبالفارسية وبالتركية، وتتصدرُ الدعوةَ إلى حقوق المرأة.

كانت عائشة في الثلاثين من العمر عندما توفي والدُها، وأما أخوها أحمد فكان عمرُه ثلاثة أشهر. فكانت عائشة له أختًا وأمًا.

نشأ أحمد تيمور وفي فمه ملعقة من ذهب، ولكن البريق لم يخطَف بصره. فأختُه الكبرى امرأة تعرف أن للعلم والأدب بريقًا يفوق بريقَ الذهب. فنشأ أحمد تيمور وملءَ سمعه وبصره الكتب. أتقن الفرنسية التي درَسها خمسَ سنين في مدرسة خاصة بأبناء الأعيان، ولكنه قبلها كان قد درس العربية والتركية والفارسية في بيته. ولازم كبار العلماء يأخذ عنهم، فصحب العلّامة طاهر الجزائري طويلًا. وكانت له بالشيخ محمد عبده صلةٌ وثيقة، حتى إنه اشترى دارًا في عين شمس ليكون قريبًا من دار الشيخ الإمام. وعندما توفي محمد عبده عرض أحمد تيمور بيت عين شمس للبيع.

وكانت له عزبة جعل فيها كتبه، ولما خشيَ على كتبه من الحريق والرطوبة ابتاع أرضًا في الزمالك وبنى بيتًا ليكون بمثابة حافظة لكتبه. كانت خِزانةُ أحمد

تيمور تنمو بسرعة، وكان جلّها من المخطوطات. وتزوج وأنجب ثلاثة أبناء، ثم توفيت زوجته، فآثر أن يصحب كتبه ولا يتزوج حتى لا تقسوَ زوجةٌ جديدة على أبنائه.

صحب مخطوطاتٍ تعسُر قراءتُها على غير المتخصص، وغدا أحمد تيمور في طليعة المتخصصين في المخطوطات القديمة، أفنى سنواته في جمع المخطوطات وفهرستِها وقراءتها. ويقول محمد كُرد علي إنَّ عددًا عديدًا من تلك المخطوطات كان يحمل في الهوامش تعليقات تيمور، وعلى الغلاف كلمة «قرأناه». لكن مكتبته كانت مفتوحة للمحققين، ولم يكن يبخل على أيِّهم بإعارة مخطوط، ولم يكن ليطلبَ المخطوط إذا احتاج إليه في أمر عارض، بل كان يذهب إلى بيت المستعير للتأكد من مسألة، وذلك خَشية أن يقطع عمل المستعير.

لم يترفَّع أحمد باشا تيمور -عضوُ مجمع القاهرة ومجمع دمشق وعضو مجلس الشيوخ بمصر- عن الناس، وآية ذلك كتابان له في الأمثال العامية وفي الألفاظ العامية بمصر.

أنجب أحمد تيمور للأدب العربي ابنه محمدًا الذي كتب المسرحيات وطار له صيت في عالم الأدب، واختطفه الموت في حياة أبيه.

وأنجب رائد القصة القصيرة محمود تيمور الذي عاش وأسنَّ وأنجز للأدب واللغة كتبًا كثيرة، ونال شهرة عريضة.

وأحمد تيمور نفسَه كتب كثيرًا، لكنه نشر قليلًا. وبعد وفاته نُشرت له كتب كثيرة كان قد فرغ من وضعها. أوصى أحمد تيمور بخزانته الغنية لدار الكتب. كأنه لم يشأ أن يقتصر الانتفاعُ بها على أبنائه. وفهارس هذه الخزانة موجودة على الإنترنت في أربعة أجزاء. غير أن أحمد تيمور هو من فهرَسَ كل مخطوط على حدة بخطه.

مات أحمد تيمور قبل أن يبلغ الستين، ولكن مكتبته بقيت حتى اليوم -وبعد مرور تسعين سنة- من أهم مصادر محققي التراث العربي.

أحمد مختار عمر

هذا رجل درعمي قَمبَريجي بحسب تعبير بعض المستشرقين. أي أنه درس في دار العلوم بمصر، ونال الدكتوراة من كامبريدج البريطانية، فأخذ يرى اللغة والدنيا بعينين. أحمد مختار عمر راسخ القدم في القرآن، درسه صغيرًا، وكتب في علومه أكثر من كتاب. وهو صاحب منهج متين في الصناعة المعجمية. وقد انتقد بلا هوادة التراخي والإهمال من جانب مجمع اللغة

العربية المصري. صنع ذلك في كتاب سمَّاه: أنا واللغة والمجمع. قال أحمد مختار عمر:

«سأحكي لكم قصتي مع المؤتمر الأخير، والجلسة التي نوقش فيها إنجاز لجنة المعجم الكبير. فقد تمت مناقشة ثلاثمئة صفحة من حرف الخاء بعد رحلة ترفيهية إلى الإسكندرية، واعتذرتُ عن عدم المشاركة في الرحلة»، ويمضي فيشرح كيف أنه راجع المواد، ووجد في المناقشة أنه كان الوحيد الذي قام بالمراجعة. ويذكر أمثلة عديدة من الأخطاء التي وجدها في خمسين صفحةً فقط.

لو أن أحدًا قال للدكتور أحمد مختار عمر: «تفضل أنت واصنع معجمًا!» فسوف يأتيه الجواب سريعًا. لقد صنع صاحبنا هذا وأكثر. وترك لنا معجمين كبيرين ذوي مجلدات كثيرات: معجم الصواب اللغوي، ومعجم اللغة العربية المعاصرة وهما من أهم المعاجم الحديثة. وله معجم في ألفاظ القرآن الكريم.

وزاد فكتب في الصناعة المعجمية الحديثة. ولا ننسَ أنه عرف ما آلت إليه هذه الصناعة في الغرب.

وحقَّق أحمد مختار عمر معجمًا عربيًّا فريدًا في طريقته هو ديوان الأدب لإسحقَ بن إبراهيمَ الفارابي، فهذا المعجم ذو الأجزاء الخمسة يصنِّف الكلمات حسب أبنيتها، بحيث إنك تجد الكلماتِ ذوات الوزن الصرفي الواحد في موضع واحد.

وتعمق الرجل في دراسة اللغة العربية ما شاء له، فدرس المستوى الصوابي للغة، وتاريخَها ودَلالات ألفاظها، ودرس أصوات اللغة، وصنع معجمًا للمترادفات والأضداد، وهذا باب معجمي أهمله العرب في العصر الحديث، وبرع فيه الغرب.

تنقل الدكتور أحمد مختار عمر وراء الرزق فعمل في ليبيا والكويت سنوات طوالًا، ولكنه حمل في قلبه الشغف باللغة العربية والسعيَ الحثيث لخدمتها. وعاد إلى مصر، ووضع أذنه إلى الراديو والتلفاز يتسقط أخطاء المذيعات والمذيعين. وكتب كتابًا جليلًا في تصحيح الأخطاء الشائعة، بناه على ما سمعته أذناه أو قرأته عيناه في الصحف.

كان أحمد مختار عمر يناقش اللغويين القدامى ويحاسبهم حسابًا عسيرًا، موازِنًا فيما بين أقوالهم. فمن زعم أن كلمتي «الكل» و«البعض» لا تقبلان أل التعريف رماه برأي للمعرِّي يجيز ذلك، وزاد أن القياس يجيزه. ومن زعم أن

همزة (إن) واجبةُ الكسر في كل حالٍ بعد فعل القول وجَّهه إلى قراءات قرآنية تجيز غير ذلك.

توفي أحمد مختار عمر عن سبعين، في عام ألفين وثلاثة. مضى وترك لنا ثروة كبيرة ولم يقصِّر. فإن لم يكن أصاب من الشهرة ما يستحق، فهذا تقصيرنا نحن.

عبد السلام هارون

هناك شيء يعرفه دارسو التراث، وقد لا يعرفه عامة الناس: عندما تجد اسم عبد السلام هارون محقِّقًا لكتاب فهذه علامة الجُودة. اسمه يعني أن الكتاب محقَّق على النسخ المتوفرة، ومدقَّق، وأنَّ المحقق قد تبع الكتاب إلى المطبعة حتى يخرج مقتربًا من الكمال. عبد السلام هارون شيخ محققي كتب الأدب واللغة.

ولد في الإسكندرية في أسرة علم وفقه وقضاء. وحفظ القرآن في بيته، ثم تعلم في الأزهر وفي دار العلوم. وعمل مدرسًا في التعليم الابتدائي. لكنه بدأ يحقق كتب القدماء وهو في السابعة عشرة من العمر، فلم يكن مستغربًا أن يقفز من التعليم الابتدائي إلى الجامعي طفرةً.

عبد السلام هارون شيخ المفهرسين أيضًا، فهو يذيل الكتاب الذي يحققه بالفهارس الفنية. وله في تحقيق الكتب وصنع الفهارس كتاب برأسه.

عمل في التعليم الجامعي في مصر وفي الكويت. ولكنه كان يسهر الليل في محراب العلم قارئًا كاتبًا محققًا. اشتغل بأمهات كتب النحو فحقق كتاب سيبويه، في خمسة أجزاء، وخزانة البغدادي في ثلاثة عشر جزءًا، خصص جزأين منها للفارس الفنية. وتراه في تقديمه لفهارس خزانة الأدب يتحدث عن الفهرسة وأهميتها، وبدل أن ينسب لنفسه الفضل كله -وهو خير من صنع الفهارس- راح يذكر من سبقوه من مستشرقين وعرب منوِّهًا بفضلهم وبسبقهم.

ولا يكتفي بالتحقيق، بل إن هوامشه تكتظ بالشرح، وبالتعليقات على ما في النسخ المختلفة من قراءات. يدرك شيخُنا أن قارئ التراث محتاج إلى المعجم مهما علت رتبته في العربية، فتراه بروح المعلِّم- يشرح الكلمة الصعبة، ويفك العبارة الملتوية، ويُقرُّ بما استعصى عليه فهمه. هو في التحقيق معلِّم وعالِم في آن معًا.

وحقق عبد السلام هارون الدواوين وكتب المختارات الشعرية، والمعاجم. وفي معجم مقاييس اللغة التأثيلي الفريد كانت الفهرسة ضرورية بسبب

طريقة هذا المعجم الملتوية في ترتيب الأبواب والفصول. ولم يصرف كل هذا العطاء الغزير عبد السلام هارون عن هدف عزيز.

والهدف: الجاحظ.

أصبح الجاحظ في متناول يد القارئ العربي المعاصر بتحقيق مميز وشرح غير مسبوق. ولم يكتف عبد السلام هارون بكتابي الجاحظ الكبيرين: الحيوان، والبيان والتبيين. بل ابتدع ما سماه مكتبة الجاحظ، وحقق العديد من كتبه الأخرى.

يخطر للمرء أن يسأل نفسه: ماذا لو وفر هذا الجهدُ العلمي الكبير للرجل ما يكفي معاشه فلم يُضطر إلى التدريس. أكان ينجز فوق ما أنجز؟ الكتاب العربي لا يعود على صاحبه إلا بدراهم قليلة، كما أن المحقق الذي عاش بين طلبة العلم أقدرُ من صاحب الصومعة على فهم ما يطلبه القارئ المعاصر.

عندما توفي عبد السلام هارون عام ١٩٨٨ ترك فراغًا لم يجد من يسده. توفي عن ثمانين عامًا، وعن مئة كتاب وعشَرة كتب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حمَلة العربية في الشام

عيسى إسكندر المعلوف

خدم عيسى إسكندر المعلوف العربية بنفسه وبأولادٍ له ثلاثة هم: فوزي وشفيق ورياض، وكانوا من الشعراء البارزين. وفارس الخوري، الذي أصبح رئيس وزراء في سوريا أربع مرات، كان أستاذًا في الرياضيات، ولكنه نظم الشعر وكتب الكتب.

الشيخ عبد القادر المغربي

تونسي الأصل لكنه ولد باللاذقية، وله عثرات اللسان. وفي إحدى صفحات هذا الكتاب يقول لنا: «قل المَغربي ولا تقل المُغربي». ونحن نقول لهذا الشيخ -الذي أصله مغاربي وولد في الشام- المثل المصري يقول: «إيش جاب الشامي ع المُغربي يا شيخ».

عبد القادر المبارك

درس على الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ طاهر شامي مغاربي أيضًا. ومن تلاميذ عبد القادر المبارك الشيخ علي الطنطاوي، وأحد أجداد الطنطاوي من طنطا كما قال في مذكراته. قال علي الطنطاوي في أستاذه عبد القادر المبارك: «لم أر فيمن قرأت عليه وكنت تلميذًا له من كان في درسه حياةٌ كحياة درس الشيخ المبارك، كان أصمعيَ زمانه ينشر العربية ويحبِّب بها الطلاب».

اقتصرنا على ذكر بعضِ مؤسِّسي «مجمع دمشق»، ولو مضينا لعددنا من الأعضاء اللاحقين بضع عَشرات لم يعيَّن أيٌّ منهم بالواسطة، لذا أخرجوا إنتاجًا طيبًا. ثم دخلت السياسة والواسطة، والحال اليوم -بتعبير أهل الشام-: «شوفة عينك». نتحدث عن رئيس المجمع الدمشقي.

محمد كُرد علي

من شبه المستحيل أن يعمل المرء في الصِّحافة اليومية والأسبوعية عشرات السنين، ثم يؤسسَ مجمعًا ويتسنَّمَ المناصب المهمة، ثم يكتبَ الكتب الكبيرة ذاتَ الأجزاء الكثيرة، إلا إذا كان هذا الشخص محمد كُرد علي. يقول في سيرته الذاتية التي ألحقها بكتابه خطط الشام إنه وُلد لأب كردي وأم شركسية. فقد قدِم جده من السليمانية بالعراق واستوطن دمشق، وكان لأبيه

أرض في الغوطة خلّفها لأولاده فتمزَّزوا بها -حسب تعبيره- ولم يحتاجوا إلى استجداء الرزق من أيدي أصحاب النفوذ.

كان محمد كُرد علي ينشئ الصحف في دمشق، وفي القاهرة، ويكتب ويحرر في صحف أخرى كـ المقتطَف والمؤيَّد.

وكانت له خصومات ومهادنات مع الوالي العثماني، ثم مع المعتمد الفرنسي في الشام. كان رجل سياسة، لكنه كان عنيدًا. يَذكُر أنه مشى مسيرة أربعة عشر يومًا مع تجار الإبل هربًا من عسف الحاكم. وأفلح محمد كُرد علي في الحفاظ على حريته في قول كلمته.

نشأ في ضيعة والده يتعلم القرآن والعربية، ثم أتقن التركية فالفرنسية، وكتب تاريخ بلاد الشام على طريقة القدماء، لكن، بالاستناد إلى ألف وخمسمئة مرجع بلغات شتى.

في العهد الفيصلي القصير الذي جاء بين الحكم العثماني وبين الاحتلال الفرنسي، ترأس محمد كُرد علي أول مجمع للغة العربية: المجمع العلمي بدمشق، ثم ظل يرأسه ثلاثين سنة. ولم ينقطع سيل المؤلفات التي كانت تشق طريقها إلى النور بأعجوبة بين الأعمال الإدارية والانشغالات الصحفية.

كان محمد كُرد علي معاصرًا في فكره وفي حياته، كان يريد للعرب أن يفوزوا بالحسنيين: الحفاظِ على القديم، وبناءِ ثقافة جديدة. وعاش حتى قارب الثمانين ونال التكريم بعد وفاته. لكنه نال الشهرة العريضة والتكريم في الشام وفي مصر في حياته أيضًا، بل منذ شبابه الباكر.

كانت ثقافة محمد كُرد علي -أفنديِّ الثقافة العربية- صالحة للعهد العثماني والانتدابي، ولعهد الاستقلال، وظلت كتبه وأفكاره تنير الطريق بعد عقود من وفاته. وظل أسلوبه العربي المتين، والمعاصر في آن معًا، خير شاهد على أن الفصحى الصحيحة يمكن أن تعبِّر عن العلم والتاريخ والأدب باقتدار.

سعيد الأفغاني

تُوفيت أمُّه العربية الدمشقية وعمره ثلاثُ سنوات، فنشأ الطفل في حضن والده الكشميري الذي لا يكاد يحسن العربية. ومع ذلك أصبح سعيدُ الأفغاني حاملَ لواء العربية وأستاذَ أساتيذها كما يصفه تلميذُه مازنُ المبارك. كان الطفل سعيدٌ يسكن مع أبيه في حي البزوريَّة المحاذي للجامع الأموي بدمشق، فكان يتخذ من صحن الجامع طريقًا في ذهابه وإيابه. وفي حلقات الدرس بالجامع الأموي، وفي الكتاتيب المنتشرة في الأحياء المجاورة استقى سعيدُ الأفغاني علمَه وغرامَه باللغة العربية، واكتسب صديقَ عمره الشيخ علي الطنطاوي الذي سيصبح عديله.

كان ذلك زمنَ التتريك، فقد ولد سعيد الأفغاني في عام ألف وتسعمئة وتسع. ولكن مدرسته الرسمية الأولى كانت تحرِص على اللغة العربية، فإذا نودي تلميذٌ فقال الكلمة المعهودة: «أفندم» زجره المعلم، وأوجب عليه أن يقول: «لبيك».

لم ينل الأفغاني درجة الماجستير ولا الدكتوراة، فقد زهد فيهما، ومع ذلك أصبح أستاذ كرسيٍّ ثم عميدًا للآداب في الجامعة السورية. كان هذا في زمن يقدر قيمة العلم لا الشهادات. وكان الأفغاني عضوًا في مجامع دمشقَ والقاهرة وبغداد.

كان سعيد الأفغاني أنحى نحاة بلاد الشام، وكان شديدًا على طلبته لا يقبل التوسط. يقول تلميذُه مازنُ المبارك إنه رأى مقالًا في صحيفة يحمل صاحبه على الأفغاني حملة شديدة، فتعجَّب من الأمر وقال لأستاذه: «لا يظهر في المقال أيُّ سبب لمثل هذا العداء». فقال الأستاذ: «بل هناك سبب. لقد أرسبتُ كاتب المقال ثلاث مرات».

ومن طريف ما كان يروي طلبة جامعة دمشق عن سعيد الأفغاني أنهم عندما كانوا يطالعون لوائحَ الناجحين المعلقةَ على الجدار في ختام السنة الدراسية كانوا كثيرًا ما يرون لائحة الأستاذ سعيد في مادة «النحو والصرف»، وعليها تحت كلمة (الناجحون) كلمتان فقط: لا أحد.

كان سعيدُ الأفغاني منقطعًا إلى العلم، وسُئل مرة: «لماذا لا تتخذ من زملائك في التدريس أصدقاءَ تخرج معهم في نزهاتك، وترافقهم في المجالس؟» فقال: «لو فعلت، لكان كلامُنا كلُّه يدور على ما يجري في الجامعة، وعن المرتبات والترقيات، وأيُّ فائدة في هذا؟»

توفي سعيد الأفغاني في جدة، عام سبعة وتسعين، وهو يزور وحيدته المتزوجة هناك. ودُفن في مكةَ.

عبد العزيز الـمَيمني

كان العلَّامة محمود شاكر يجلُّ أستاذًا كبيرًا من أساتذة العربية غير العرب. ومَن أجلَّه شاكرٌ في علم العربية فهو جليل. ذلك هو عبد العزيز الـمَيمَني الراجكوتي.

توفي المَيمني عن تسعين سنة، في عام ١٩٧٨. وهو صاحب جولات في الأدب العربي. الرجل هندي، وقد حفظ ديوان المتنبي وسبعين ألف بيت آخر، هذا بعد أن حفظ القرآن. وطوَّف في بلاد العرب والترك والإفرنج ينقب عن المخطوطات الأدبية العربية القديمة ويحققها.

كان عندنا -في مستوى عبد العزيز المَيمني- محمود شاكر. ومات محمود شاكر عام سبعة وتسعين. والآن يعيش بيننا حَمَلة الشهادات. عندنا مشكلة في الجدية. فهل أُلام على أنني لست محقق كتب؟ لم أحقق في حياتي كتابًا، ولا أستطيع. أنا مذيع حينًا محرِّر حينًا، وقارئ للتراث، فيحق لي أن أنتقد، وأن أقارن. الملوم هو من يتصدى لمثل هذا العمل ويقصِّر تقصيرًا فادحًا. وكلمة أخرى في حلقي لو تركتها لندمت على تركها: هل من الضروري بالله عليكم أن نحقق التراث؟ أما يكفينا ما عندنا من أكوام الكتب العتيقة التي تزخر بها معارض الكتاب؟ لا. لا يكفي ما عندنا، فمعظمه غث. المشكلة ليست في كثرة كتب التراث، بل في قلة الجيد منها. هذه هي المشكلة الصغرى فاستعدوا للكبرى. المصيبة هي أنه ليس عندنا من كتب العلوم ما يكفي. النسبة في رأيي يجب أن تكون مئةَ كتاب في العلوم مقابل كتاب واحد في التراث. والنسبة عندنا معكوسة، والجيد قليل.

أحمد فارس الشدياق

هذا رجل ولد ومات في القرن التاسع عشر، غير أنه عاش معظم سني هذا القرن. قال اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر، ليس بينها بيت واحد يقتبسه الناس. فهو لم يُخلق شاعرًا. بيد أن فارسَ الشدياق كان صاحب تاج وصولجان في مملكة النثر العربي. قال غيرُ ناقد إن كتابه الساق على الساق فيما هو الفارياق أولُ كتاب فيه نثر فني يُعتدُّ به بعد بضع مئات من السنين انحطَّ فيها الأدب العربي كله.

وفي اسم الكتاب تورية لطيفة، فالساق على الساق تعني وضع رِجل على رِجل كما يقال، وتعني أيضًا الساق الذي هو ذكرُ الحمام واقفًا على ساق الشجرة، وأما الفارياق فهي نحت من اسمه فارس الشدياق.

وُلد فارس الشدياق في عشقوت بلبنان، وعلَّمه أخوه أسعد أن يحب العلم. كان أسعد، الذي يكبره بسبع سنين، يتقن عدة لغات، وشاء له سوء طالعه أن ينتقل من المذهب الماروني إلى المذهب الإنجيلي، فحبسه البطريرك، وعذبه، ومات أسعد في محبِسه.

وسنرى الأخ الأصغر فارس ينزح إلى مصر وهو في العشرين، فيعيشُ فيها عَقدًا من الزمن ثم إلى مالطة ليعيش فيها أكثر من عَقد، كلُّ هذا وهو في خدمة الإنجيليين أصحاب أخيه، يصحِّح كتبهم ويعلِّم في مدارسهم. وكتب عن أحوال مالطة وعن لغتها المشتقة من العربية.

ثم بعثه الإنجيليون إلى إنجلترا لضبط لغة الكتاب المقدس، وارتحل إلى باريس وكتب عن أوروبا، ووضع كتابين في تقريب الفرنسية والإنجليزية إلى

المتعلمين العرب. وها هي الأسماءُ الطريفة التي جعلها عنوانات لكتبه: كشفُ الـمُخبَّا عن فنون أورُبَّا، سند الراوي في الصرف الفرنساوي، المحاورة الأنسية في اللغتين الإنجليزية والعربية، الواسِطَة في معرفة أحوال مالِطَة.

ومدح الشدياق بايَ تونس فأرسل إليه سفينةً نقلته إلى تونس، حيث أعلن إسلامه وسمَّى نفسه أحمدَ، وكنَّى نفسه أبا العباس. ولم يلبث أن دُعي إلى إستانبولَ عاصمة الخلافة العثمانية، وهناك أنشأ جريدة الجوائب التي ستكون ذاتَ أثر مهم في الثقافة العربية.

رغم أن أحمد فارس الشدياق عمل ثلاثًا وعشرين سنة في جريدته الجوائب، فإنه دأب على إصدار وتحقيق الكتب التعليمية، والأدبية.

وسيظل كتابُه الجاسوس على القاموس، الذي تعقَّب فيه «معجم الفيروزأبادي» بالنقد والتصحيح، شاهدَ عدلٍ على أن الشدياق فحلٌ من فحول العربية، يُقاوي القدماء ويبزُّهم.

كان في اللغة حافظًا من كبار الحفاظ، وكان في النثر مجددًا لنهج الجاحظ في التفكه والاستطراد.

توفي أحمد فارس الشدياق في إستانبول بعد أن خنق الثمانين، وأوصى أن يدفن في مسقَط رأسه، فنُقل جثمانه في تابوت رصاص داخل تابوت خشب إلى لبنان بعد جِنازة مهيبة في إستانبول.

ما زالت كتب الشدياق تُطبع وتقرأ لطرافتها، وسيظل كتابُ عمره الساقُ على الساق علامة مهمة في مسيرة النثر الفني العربي.

أنطوان الدحداح

سأحدِّثكم عن عسكري قال للغة العربية انضبطي. يرى بعضهم أنه قال لها: «إلى الوراء سِر». ويرى بعضهم أنه ضبطها فأحسن الضبط. سأحدِّثكم بعد قليل عن أنطوان الدحداح. وهذه مقدمة.

في كتابه البرهان في علوم القرآن أحصى الزركشي علومَ القرآن فكانت عنده سبعةً وأربعين علمًا. منها: أسبابُ النزول، ومعرفةُ المكي من المدني، وجمعُ القرآن والحفَظَةُ من الصحابة، وما وقع في القرآن من غير لغة الحجاز، وما في القرآن من غير لغة العرب، وقضيةُ هل في القرآن شيء أفضلُ من شيء، وأمثالُ القرآن، والناسخُ والمنسوخ، والمحكمُ والمتشابه، وإعرابُ القرآن.

ومن أحدث الكتب التي أعربت القرآن الكريم كتابُ أبي فارس أنطوان الدحداح الإعراب المرئي للقرِآن الكريم، ويقع في ستة أجزاء.

صاحبنا هو العقيد الركن أنطوان الدحداح. كان شديدًا وهو في مهنته العسكرية. ثم انصرف إلى وضع الكتب في النحو والصرف بطريقة عسكرية. جعل كل شيء منضبطًا في جداول ولوحات. الفكرة الأساس للدحداح هي أن اللغةُ العربية معادلةٌ رياضية. فماذا لو اختلفت تميمٌ عن قريش؟ نضم هذه إلى تلك وتتسع المعادلة. فماذا لو اختلفت أسدٌ عنهما؟ نضمها، وتتسع المعادلة. المهم ألا يبقى في العربية شذوذ، كل شيء يدخل في المعادلة.

لخص آينشتاين الكون في ثلاثة أحرف ورقم. الطاقة تساوي الكتلة مضروبةً بمربع سرعة الضوء في الفراغ. ولكن العقيد الركن أنطوان الدحداح أراد ألَّا يترك شاردة ولا واردة فتعقَّدت معادلته.

كتابه القديم معجم قواعد اللغة العربية في جداول ولوحات فتح بابًا جميلًا لم يكن فُتح من قبل. وظَّف الدحداح خبرته العسكرية في التنظيم فصنف المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، وأفاد كثيرين. والأهم أنه جعلنا نفكر في اللغة تفكيرًا رياضيًّا، فهو في هذه تلميذُ أبي النحو العربي الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي استنبط ألفاظ العربية استنباطًا رياضيًّا، وكتب معجم العين. واستنبط قواعدها رياضيًّا تاركًا التدوين لتلميذه سيبويه الذي كتب لنا كتابه المشهور.

كُتب أنطوان الدحداح، تشكل معلمة نحوية وصرفية مهمة، وتعبر عن نهج معين في تناول النحو والصرف. هذا النهج لم يشرحه صاحبنا في مقالة أو في كتيب، بل أسسه في بضعة آلاف من الصفحات، فكأنه يقول: «هذه هي طريقتي وهذا تطبيقها على كل اللغة».

أنِسطاس الكرِملي

لم يكن الأب أنِسطاس الكِرِمْلِيُّ زِمِّيتًا رغم اللحية الكثَّة. لكنه كان صاحب مزاج: غضب يومًا على راهب في ديره فضربه بالعصا، فحكمت الرهبنة عليه بالنفي إلى دير الكِرِمْليين في حيفا على ألَّا يكتب هناك ولا يؤلف. وكتب إلى صديقه محمد كُرد علي مستنجدًا، فتوسَّط له عند مكتب الملك فيصل في بغداد فأُعيد إلى وطنه العراق. وكان أنسطاس الكرملي يعابث تلامذته ويضحك ملء شدقيه في مجلس الجمعة الذي يعقده. لقد لازمته براءة الطفل عمرَه.

كان مجلس الجمعة يبدأ في الصباح الباكر وينفضُّ عند الثانيةَ عشرة، كان مجلسَ علم ولغة، ويُمنع فيه الحديث في موضوعين: الدين والسياسة.

ويخوض الكرملي المعركةَ اللغوية تلو المعركة على صفحات المجلات، وقد يتعرض لـمُقذع الكلام، ولكنه كان صاحبَ نظرة عميقة في اللغة. يقول في

مقدمة كتابه نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها: «لسان العرب فوقَ كل لسان، ولا يُدانيه لسانٌ آخر من ألسنة العالم جمالًا، ولا تركيبًا، ولا أصولًا، ولا.. ولا.. ولا..» بحسب تعبيره.

أبوه ميخائيل عواد لبناني، وأمه مريم أُغسطين بغدادية، وولد ونشأ في بغداد. اسمه بطرس، ودرس العربية طفلًا في بغداد، وتتلمذ على السيد محمود شكري الآلوسي وظل يقف منه موقف التلميذ من أستاذه. من هنا، من الطفولة ترسخت هُويته العربية.

ودرس بطرس اللاهوت في بلجيكا، وفيها سيمَ قسًّا. ولكن فرنسيته المتقنة لم تستطع أن تغلب عربيته الأصيلة. وعرف نحوَ عشرِ لغات، ولكن الأساس ظل أساسًا.

تَسمَّى بطرسُ بأَنِسطاس بعد الترسيم، ولزم دير الآباء الكرِمليين ببغداد يبحث ويدرس، ويدبج المقالات، التي أحصاها بعضهم بألف وثلاثمئة. وكانت له مجلته الخاصة لغة العرب.

استطاع الكرملي أن ينظر في العربية نظرة مستقلة، غير متأثرة بالأقدمين. أو هو على الأصح عرف ما قاله الأقدمون خير معرفة، فاختار لنفسه طريقًا في تأصيل اللغة. كيف لا، وقد ترك وراءه مكتبة ضخمة كثير من كتبها من المخطوطات. كان يرى أن الجذر الثلاثي للعربية وهم مُعجمي، وأن الأصلَ حرفان يضاف إليهما ثالث فيتغير المعنى قليلًا أو كثيرًا. وكان جريئًا في نقده الأقدمين، بدا ذلك جليًّا في كتابه أغلاط اللغويين الأقدمين.

وكتبَ في التاريخ العراقي وفي تاريخ بغداد وحكاياتها، وكتب في نوادر اللغة وشواردها. وقد تحسَّر وهو عليل تجاوز الثمانين على معجمه المساعد الذي لم ير النور وبقي مخطوطًا. ولكن المعجم نُشر بعد ربع قرن من وفاة صاحبه.

توفي الأب أنسطاس الكرملي عن اثنتين وثمانين سنة. وما زال فكره اللغوي شبهَ مجهول رغم توفر كتبه وأبحاثه. لكن جهابذة اللغة والتأريخ في العراق تتلمذوا على كتبه ومجلته. ما أشد ما ينطبق عليه القول إنه كان «يفكر خارج الصندوق».

حسن الكَرمي

هذا الرجل كان غوغل قبل غوغل، كان يُسأل عن بيت شعر فيذكُرُ من قاله ولمن قاله، ويعدِّد من نُسب البيت إليهم، ويَفيض علمًا غزيرًا في الأدب القديم. كان حسن الكرمي في برنامجه: قول على قول من إذاعة لندن،

صديقَ شُداة الأدب. ثم إنه طبع مادة البرنامج في موسوعة شعرية كبيرة. وهذا هو الجزءُ الأصغر من إنجاز حسن الكرمي([4]).

ولد حسنُ الكرمي في طولَكرم بفلسطين عام ألفين وخمسة. أبوه القاضي الشاعر سعيدُ الكرمي. ومع اشتداد الحرب العالمية الأولى انتقلت الأسرة إلى دمشق، وفيها حُكم على الأب بالإعدام لمعاداته الدولةَ العثمانية في محنتها، ثم خُفِّف الحكم. وانتهت الحرب، ومعها الدولةُ العثمانية. وعاد الفتى حسن مع الأسرة إلى فلسطين.

كان الاحتلال البريطاني قد ورِث الدولة العثمانية، فدرَس حسن الإنجليزية والعلوم، ودرَّس الرياضيات واللغة الإنجليزية في الرملة بفلسطين، ثم تخصص في التربية بلندن وعاد إلى القدس ليعمل في التدريس، وابتنى له بيتًا في حي القطمون.

تنقل الصحفية سارة الدجاني عن ابنته (غادة) أن والدها رفض نقل مكتبته الثمينة من بيته بالقدس في عام ثمانية وأربعين؛ لأنه لم يصدِّق أن العصابات الصهيونية قد تحتله. واحتلته سريعًا. وعرف حسنُ الكرمي وعائلتُه التشرد. لكنه كان تشردًا لندنيًّا مريحًا.

عمل الكرمي في إذاعة لندن عشرين سنة. ووضع معجم المنار الإنجليزي العربي، على هامش عمله في برنامجه المشهور. في هذه الحقبة كان العرب قد هُزموا هزيمتَهم الثانية عام سبعة وستين. ولكن الأسرة الكرمية سليلةَ القاضي سعيد الكرمي ظلت تنشر العلم والأدب. فكان أخو حسن الكرمي الشاعرُ عبد الكريم الكرمي يلقي قصائدَه الناريةَ من دمشق التي استقر فيها. كان لا يوفِّر من نقده حكومة ولا نظامًا:

أيها الحامِلونَ أَلْوِيَةَ العا

رِ! تَخَلَّوْا عن حَوْمَة الـمَيدانِ

كلُّ جيشٍ يَكونُ حربًا على الشعـ

ـبِ ذَليلٌ إذا التَقى الجَمعانِ

وكان الحفيد زهير محمود الكرمي يطلق البرامج العلمية من التلفزيون الأردني الوليد. واستقر الـمُقام بحسن الكرمي في الأردن بعد لندن. وبقيت ابنتاه في لندن: سهام تنتج البرامج العلمية في إذاعة لندن، وغادة تنشط في السياسة البريطانية ضمن حزب العمال، وتكتب ذكريات التشرد.

كان حسن الكرمي قد جاوز السبعين، ونُسئَ له في الأجل، فوضع معجمه الإنجليزي العربي الضخم المغني الأكبر، الذي افتنَّ فيه في إيجاد مقابل عربي

لم يخطر ببال أحد قبله لكثير من المفردات الإنجليزية.

ثم كان في العمر فسحة، فوضع الكرمي معجمًا عربيًّا عربيًّا باسم الهادي إلى لغة العرب في أربعة أجزاء، فكان تحفة معجمية. كانت فيه لمسات عمليَّة، لمسات رجل عاين مضايق اللغة، وعرف مصاعبها.

عاش حسن الكرمي مئةَ سنة وسنتين. وكان بحرًا لا ساحل له في اللغتين: العربية والإنجليزية. وكان جريئًا على اللغة يتصرف بها ويعرف أسرارها، وأحسب أن دراسته للعلوم والرياضيات في مقتبل العمر أفادته في عمله المعجمي.

المرتضى الزَّبيدي

نتناول آخر المعاجم القديمة، وأكبر المعاجم القديمة والحديثة حجمًا. وهو في طبعة الكويت أربعون جزءًا، في كل جزء خمسمئة صفحة، فبين أيدينا معجم عربي من عشرين ألفَ صفحة، كلُّ صفحة ذاتُ عمودين.

قبل أن يدخل نابليون مصر ويأتيَ معه بالمطبعة بربع قرن انتهى محمد المرتضى الزَّبيدي من وضع معجمِه الكبير تاج العروس في جواهر القاموس، وذلك في سنة ١٧٧٤ للميلاد. وقد بلغ من فرح الزبيدي بمعجمه أن أقام وليمةً عظيمة عندما انتهى من جزئه الأول، والمعجمُ بحسب المخطوط أربعة عشر جزءًا.

رجع الزبيدي إلى كلِّ من سبقه، ولا سيما إلى الفيروزأبادي صاحب القاموس المحيط، فجاء معجمُه شاملًا أعظم الشمول.

ولد المرتضى الزبيدي في الهند ونشأ في زَبيد باليمن، ثم سافر إلى الحجاز واستقر بمصر حيث وضع معجمه. وقد أُحصِيَت جذور المعجم فكانت قرابةَ اثني عشر ألفَ جذر. والجذر يتفرع فروعًا.

لنأخذ الجذر أَمَلَ. هذا في الجزء الثامن والعشرين. سنجد لكلمة الأمَل شقيقتين هما الأَمْل، والإمْل. وهما لغتان ضعيفتان. وسنجد تفريقًا بين الأمَل والرجاء، فالرجاء يكون لما هو قريب محتَمل، والأمل لما هو بعيد مُتمنًّىً. ونمضي إلى التأمل، فهو عند الزبيدي التلبُّث في الأمر والنظر. جذر الأمل يستولي على أربع صفحات من تاج العروس. هو جذر محدود. فأما إذا رجعنا إلى الجزء السادسَ عشرَ ووقعنا على الجذر (ع.ر.ض) فسوف نُبتلى بأربعٍ وخمسين صفحة.

لقد قام الزبيدي بجهد ينوءُ بالعصبةُ من الرجال أولي الاجتهاد، ولا أدلَّ على ذلك من أن الذين تولَّوا تحقيق معجمه وأشرفوا على طبعه رجالٌ كثر، وقد

قضوا في عملهم من السنين ضعفَ ما قضاه الرجل في وضع المعجم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امرأة ورجال بين الفصحى والعامية

نفوسة زكريا سعيد

نعرض لمسألة ونبدأ بإشارة إلى كتاب صنع ضجة هادئة، وظل ذا قيمة كبيرة. كتبت نفوسة زكريا سعيد رسالة دكتوراة. كانت رسالتها مختلفة عن تلك الأوراق الرديئة التي يكتبونها هذه الأيام وينالون عليها شهادة الدكتوراة. كانت رسالتها بحثًا قيمًا. وطبَعتها.

صدر تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر عام أربعة وستين. والضجة التي صحبته كانت لأنه كتاب عميق بُحث جيدًا، ولأن موضوعه كان مطروحًا، ولأن العلَّامة محمود شاكر مدحه.

أحمد صدقي الدجاني

سياسي فلسطيني قضى حياته يتكلم الفصحى. لقيتُه في لندن وسألته إن كان يطلب كوب شاي بالفصحى، قال: «نعم».

أنيس فريحة

لغوي لبناني كان يرى أن العامية لغة والفصحى لغة. وخلَّف كتبًا مهمة وخلافية في موضوع اللغة.

عبد العزيز باشا فهمي

سياسي مصري نصحنا بالتخلي عن الحرف العربي واستبدال الحرف اللاتيني به.

محمود تيمور

القاصُّ والأديب المصري، ابن أحمد باشا تيمور، أرادنا عَلى أن نطبع الكتب بحروف مقطعة، وذلك لتقليل عيون صندوق الأحرف. في زمننا حُلَّت هذه المشكلة جذريًّا بالحاسوب، ولم يعد أحد يصف الحروف المعدنية بالمقلوب من صندوق الحروف.

أنطون سعادة

سياسي ومفكر لبناني، وهو مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، لقد عدَّ اللغة من مقومات القومية. عندما دعاه القاضي باسم (أنطوان) رفض القيام، وقال هذه صيغة فرنسية، اسمي (أنطون). لم يكن عروبيًّا بالمعنى

الشامل، ولكنه عرف للغة قيمتها في جمع الشعوب حولها. وأعدم أنطون سعادة بعد محاكمة سياسية بغيضة.

رأيي في المسألة

أتكلم في المجال العام الفصحى، وأسعى إلى أن تكون أنيقة مع الحركات الصحيحة ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولكنني أتذوق العاميات المختلفة. لا أعدها لغات مستقلة. وإلا فإنني كنت سأَعُدُّ في ألمانيا بضع لغات، هذا والألمان في كل مدينة وقرية يتفرجون على القنوات التلفزية نفسِها ويقرأون الصحف نفسَها، بيد أنهم يتفكَّهون بلهجة باڤاريا وبلهجة هامبورغ، ويجدون متعة في تذوق شتى اللهجات. ليتنا نريح اللغة العربية وأنفسَنا، ونفكرُ بمسائل أخرى. أنا لا أستطيع ذلك. الكلام على اللغة بضاعتي.

أهل العربية منشغلون بلغتهم أكثر من اللازم. كل عربي يتبرع بنصيحة لمعالجة اللغة العربية، وكأنها على سرير الموت.

سيبويه

قيَّض الله لقواعد اللغة العربية رجلًا عربيًّا من الأزد وضعها وأحكمها، ذلك هو الخليلُ بن أحمد، ورجلًا دوَّنها في كتاب هو عمروُ بن عثمانَ بنُ قَنبَر المعروفُ بسيبويه. ولم يكن سيبويه ناسخًا، بل عالمًا جليلًا رغم أنه مات وهو في نحوِ الأربعينَ من عمره.

ذَكَر سيبويه في كتابه أستاذَه الخليل في عشرات الصفحات، وذكر نحاةً آخرين مراتٍ كثيرة.

يقع كتابُ سيبويه -في تحقيقِ عبد السلام هارون- في خمسة مجلدات أحدُها للفهارس. ولكنه طُبع أولَ مرة في باريس مع مقدمة ضافية بالفرنسية، وطُبع بالتزامن في ألمانيا، غير أن الطبعة الألمانية كانت ترجمةً كاملة. ثم جاءت طبعةُ كالكوتا بالهند فطبعة بولاقَ بمصر. ولم يُعرف للكتاب اسمٌ سوى الكتاب.

وقد عدَّ عبد السلام هارون في مقدمته خمسةً وخمسين كتابًا وضعها الأقدمون في شرح كتاب سيبويه أو شرح شواهده. وكتاب سيبويه صعبٌ من عدة نواحٍ: فكثير من مصطلحاته النحوية تختلف عما نعرفه اليوم، وهو يسرد الأوجهَ الإعرابيةَ المختلفة لكل حكم؛ والقارئ يَخرج بنتيجة هي أن كلَّ شيء صحيح، وما عليه إلا أن يحسن التأويل. والمتعة العقلية التي يخرج بها القارئ هي جائزتُه. فالكتاب يعلِّمُ المرء التنقير والفحص العميق. قال أبو عمَر الجَرميَّ: «أنا مذْ ثلاثون سنةً أُفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه». فما

علاقةُ كتاب سيبويه بالفقه؟ ذلك أن الجَرميَّ تعلم من كتاب سيبويه التفتيشَ والنظر.

سيبويه وأستاذُه الخليل من أهل البصرة، والكتابُ يؤسس للنحو البصري. ومع ذلك فإن كبيري نحاة الكوفة، الكسائيَّ والفرَّاء، قرآه بإمعان. هذا الكسائي يدفع للأخفش مئتي دينار ليَقرأ عليه الكتاب، وهذا الفرَّاء يموت وتحت وسادته كتابُ سيبويه. وقد اشترى الجاحظ نسخةَ الفرَّاء من ميراثه، وعلَّق عليها ثم أهداها إلى الوزير ابن الزيات.

فأما أهلُ البصرة فكان الكتاب عمدتَهم. كان كبير نُحاتِهم المبرِّد يقول لمن أراد أن يقرأَ عليه كتابَ سيبويه: «هل ركبت البحر؟» إشارةً إلى صعوبة الكتاب.

جيمس موري

نال معجم أكسفورد الكبير اهتمام الناس -حتى عندنا- بسبب الفيلم السينمائي البرفسور والمجنون، ويحكي الفلم قصة حقيقية. البرفسور في الحقيقة هو جيمس موري محرر المعجم، والمجنون هو وليم ماينور الذي كان سجينًا.

لقد طلب محرر المعجم من الناس أن يُرسلوا بالكلمات مشفوعة بمقتبسات من الكتب تشهد على المعاني. وأخذ الآلاف يرسلون القصاصات. وكان أبرزَ هؤلاء وليم ماينور. ولم يعرف المحرر أن ماينور سجين، وعندما عرف بحالته زاره في سجنه وشفَع له، فأحسنت معاملته ثم أُطلق بعد حين. قال محرر المعجم إن مقتبسات ماينور وحدها تغطي أربعة قرون من عمر اللغة الإنجليزية.

اشتغل موري بهذا المعجم ثلاثين سنة ومات، وخلفه محررون كثر. وكانت أولُ طبعة في عام ١٩٢٨، وجاءت في اثني عشر جزءًا، وبدأت الملاحق تخرج واحدًا بعد الآخر وهي تحاول الإمساك باللغة الإنجليزية التي تتجدد بلا توقف. ولم تصدر طبعة ثانية كاملة إلا في عام ١٩٨٩، وكانت في عشرين جزءًا، واحتوت على أكثرَ من عشرين ألفَ صفحة من كبار الصفحات. كان سعر هذا المعجم في طبعته الثانية ألفًا وخمسمئة جنية إسترليني. ولكن معجم أكسفورد الكبير لم يكن تجارة ناجحة قط، والاشتراك السنوي فيه على الإنترنت اليوم يزيد عن مئتي جنيه إسترليني.

يتم الآن تجديد المعجم باستمرار على الإنترنت، وهو يتضمن ستَّمئة ألفِ كلمة، والكلمات مدعومةٌ بثلاثة ملايين ونصفِ المليون من المقتبسات.

مِن رَحِم هذا المعجم الكبير ما فتئت مطبعة جامعة أكسفورد تستخرج معاجم أصغر، بعضها فيه اقتباسات وإشارات إلى أصول الكلمات، وبعضها لمن يريد تعلم الإنجليزية وهي ليست لغته الأم، وبعضها للجيب.

قد لا يرضى الهولنديون عن القول إن معجمَ أكسفورد هو الأكبر، فمعجمُهم الكبير يقع في ٤٣ جزءًا تضم خمسين ألف صفحة. ولكن فضيلة معجم أكسفورد مشاركةُ الناس فيه، والتحديثُ المستمر له، وتعامله مع لغة تتغير بشكل جنوني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أهل الثقافة

سليم تَماري

أتحدث عن جامعة درَست فيها، ثم فيها درَّست. أنا لا أحمل سوى شهادة صغيرة هي التي يسمونها البكالوريوس، ولكن هذه الجامعة قبلتني معلمًا، قالوا معك خبرة في الإعلام فأنت تدرِّس في قسم الإعلام، ولا نعبأ بالشكليات. ولا أريد أن يجرَّني الكلام فأخرجَ عن الموضوع وأنسى أن أخبركم عن أي جامعة أتحدث، هذه جامعة بيرزيت، وهي تقع في قرية بيرزيت قرب رام الله. هذه قرية مسيحية سكنها مسلمون كثر بعد نكبة ثمانية وأربعين، وتقول القصة إن مطران اللّاتين بنى لهم مسجدًّا. ولا أملك دليلًا. غير أنني أعرف أن الجامعة قامت على مبدأ التساوي والتسامح.

الطالب في جامعة بيرزيت يمكنه أن يقف على مصطبة أمام مكتب رئيس الجامعة ويخطبَ في حشد من زملائه منتقدًا الجامعة ورئيسها، ثم لا يناله أي ضرر([5]). هذه الجامعة فيها مجلسُ طلبة منتخب، وانتخاباته يراقبها الساسة في البلد، ويعدُّونها مقياسًا للرأي العام. وفيه نقابة للعاملين والأساتذة لها وزنها داخل الجامعة. كلما تذكرت جامعة بيرزيت قفز إلى ذهني اسم:

قد يكون سليم تماري ارتدى في حياته ربطة عنق، لكنني لم أشهد ذلك. صورته الثابتة في ذهني صورة رجل يقف في ساحة المبنى القديم للجامعة وهو ينصت إلى طالب أو اثنين. لم أحضر معه درسًا واحدًا. فقط عرفت أنه شخص يُحسن الاستماع. يسمع الطلبة ويناقشهم قليلًا. هذا الرجل يدرِّس على طريقة سقراط: يسأل السؤال الصعب، ويترك أذهان الطلبة تشتغل وحدها، وتتربى على التفكير النقدي.

لكنه إن أمسك بالقلم كان المؤرخَ والدارس الاجتماعي العميق. كتب ونشر الكثير عن تاريخ القدس ويافا. وكانت له في هذه الدنيا مناصب، وهي لا تعنيني. ما يعنيني أنه ربى جيلًا على التفكير النقدي، ورعى شبابًا أنتجوا علمًا وبحثًا.

هذا يفضي بي إلى فكرة قد تراها فلسفية. فأنا تبادلت مع الأستاذ سليم تماري الكلام مرتين أو ثلاثَ مرات فقط، وعلى الواقف. وأعتقد أنني سمعت منه نحو عشر كلمات، أو عشرين. وسمع مني مثلها. فقط. والفكرة الفلسفية هي أن الإنسان يتأثر بالنموذج. أهذه حقًّا فكرة فلسفية؟

الصوارير

ﯩ

نتحدث عمن تزوجوا، وعمن لم يتزوجوا قطّ. ولن نذكر رئيس وزراء بريطانيا الأسبق الصارورة إدوارد هيث، فقد أسرفنا في الحديث عن الإنجليز في أكثر من موضع في هذا الكتاب. وتسألني: لماذا تكثر من الحديث عن الإنجليز؟ هناك سبب ظاهر وسبب خفي. فأما الظاهر فهو أنني عايشتهم، وأما الخفي فهو أنهم قوم اشتهروا بغرابة الأطوار. وكلمة صارورة التي وصفت بها إدوارد هيث لها في العربية معنيان: الأول الرجل الذي لم يتزوج، والثاني الرجل الذي لم يحج. سنذكر رجلًا فرنسيًّا مشهورًا.

العشيق

هذا عشيق السيدة ايميلي دي شاتيليه، واسمه فرانسوا ماري أرو، وهو صاحب أشهر اسم مستعار. إنه ڤولتير. نصح بعضهم لڤولتير أن يقلل من شرب القهوة، فهي سم بطيء. قال ڤولتير: «حقًّا هو بطيء، فأنا منذ خمس وستين سنة أتناول خمسين كوبًا من القهوة كل يوم». مات ڤولتير عن ثلاث وثمانين ولم يتزوج قطّ.

الماكث اللَّابث

نتحدث عن فيلسوف ألماني يكتبون اسمه بالتاء في العربية فنقرأها (كانت)، ويضيع اسمه بين كلمات المقال. وكتبه آخرون بالطاء فميزوه. هو عمانوئيل كانط. وقد عاش حتى ناهز الثمانين ولم يتزوج قطّ ولا عشق. مات كانط صارورة. ومات في بلدته كونيغسبيرغ، مكث فيها طول عمره، وبقي لابثًا لم يخرج من بلدته قطّ. قال كانط: «نحن لسنا أغنياءَ بما نملك من أشياء، بل بما نستطيع الاستغناءَ عنه».

في بلدان المغرب يكتبون التاء في الكلمات الأجنبية طاء، فشركة النفط طوطال، والتاكسي طاكسي، وهناك رولان بارط، وألبرطو إيكو. وهذا تقليد حسن، وهو حسن جدًّا في عمانوئيل كانط.

صاحب التفاحة

حاولنا في هذا الحديث تحاشيَ الإنجليز، ولكن صاحب التفاحة فرض نفسه. هذا إسحق نيوتن. والقصة تقول إن تفاحة سقطت من الشجرة فسأل نيوتن نفسه سؤالًا طفوليًّا: لماذا سقطت؟ لو كنا معه لقلنا: يا إسحق، وهل تريد للتفاحة أن تصعدَ في الجو وتطير؟ هل تظن أن التفاحة عصفور؟ سقطت لأنها سقطت. وسنسمع نيوتن يقول: «بل أريد أن أعرف البيضةُ من باضها والدجاجةُ من جابها». وهكذا ابتدع نيوتن نظرية الجاذبية. قصة التفاحة هي خرافة بالطبع، والذي روَّج لها هو معاصر نيوتن ڤولتير صاحبُ الخمسين كوبًا من القهوة. نيوتن عاش أربعًا وثمانين سنة، ولم يتزوج قطّ. قال بعض الخبثاء:

«بل لقد تزوج برنسيبيا». وهذا اسم كتابه المشهور الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية، وكتبه باللاتينية. فإن كانوا أزعجوك في المدرسة بقوانين الحركة فهنا أصل المشكلة، هنا توجد هذه القوانين، في الكتاب الذي تندَّروا قائلين إن نيوتن تزوَّجه. وهذا يذكرني بقائد ظلوا يقولون إنه تزوَّج القضية.

زوج القضية

هو أشهر فلسطيني -منذ عيسى عليه السلام- ودخل القفص الذهبي متأخرًا. ظلوا يقولون إن ياسر عرفات تزوَّج القضية، ثم تبين أنه رجل من الرجال.

عبد الله كنُّون

عندما كان في الخامسة من عمره، رحل به والده من فاس إلى طنجة بغرض الإبحار إلى الشام، ولكن القدر أراد للمغرب الأقصى أن يبقى ذلك الطفل في بلده، ليكتب فيما بعد كتابًا ينصف المغاربة من المشارقة. ونشأ الطفل الفاسي سليل الأسرة العريقة في العلم في طنجة. وكتب كتابه الكبير النبوغ المغربي وهو في نحو الثلاثين من العمر. وعاش بعدها أكثر خمسين سنة، وكتب كثيرًا، وتقلب في مناصب الدولة، ولكن هذا الكتاب ظل الأثرَ الباقي لعبد الله كنون.

الكتاب يؤرخ للمغرب الأقصى سياسيًّا وأدبيًّا، وينقل مناظراتِ العلماء والأدباء ورسائلَهم ومقاماتِهم وأشعارَهم. قال العلَّامة شكيب أرسلان: «رأيت نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب كأني لم أكن أعلم عن المغرب قليلًا ولا كثيرًا». توفي عبد الله كنون في عام ١٩٨٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أهل الخَطّ

ابن مُقلة

نتحدث عن محمد بن علي ابن مقلة. كان وزيرًا للمقتدر والقاهر والراضي من خلفاء بني العباس. وكتب بخطه الجميل وثيقة هدنة بين المسلمين والروم، ففُتن الروم بحُسن خطه فعلَّقوا هذه الوثيقة في كنيسة قسطنطينية كما زعم الثعالبي. لم يبق لنا من خط ابن مقلةَ شيء، وبقيت الحكايات. قطع الخليفة الراضي يده اليمني وحبسه، وبعث إليه في حبسه طبيبًا يحبس الدم. قال للطبيب: «يدٌ خدمت الخلافة ثلاثَ دُفُعات، وكتبتُ بها القرآن دُفعتين، تُقطع كما تقطع أيدي اللصوص!» ومن سجنه كان يكتب إلى ولده الرسائل بيده اليسرى. وقيل قُطعت يده اليسرى أيضًا، فجاءه الطبيب وقال له: «ما بقي بعد هذا شيء، والآن ينبغي أن تتوقع الفرج». قال الخطاط ابن مقلةَ للطبيب: «لقد تشبثت المحنة بي تشبث حُمَّى الدِّقِّ بالأعضاء فلا تفارق صاحبها حتى تؤديَه إلى الموت». وتمثَّل ابن مقلة ببيت الخريمي:

إذا ما مات بعضُك فابكِ بعضًا

فبعضُ الشيءِ من بعضٍ قريبُ

ونُقل ابن مقلة إلى موضع آخر وقُطع لسانه، فمات. كلما علا المرء في خدمة السلطان زاد الخطر عليه.

كان مديرُ محطة إذاعة عملت بها يواجه مشكلات عديدة، فقد رفع بعض المستقيلين والـمُقالين دعاوى عليه في المحاكم. وكسب القضية تلو القضية. قيل له: «الآن بدأت الأمور تعتدل». قال: «بل كلما كان المنصب أعلى كان الخطر أشد. وبالفعل فقد تركته الإدارة العليا يخوض معاركه، وعندما راق الجو صرفوه من الخدمة».

الحافظ عثمان

هذا خطاط عثماني كتب خمسة وعشرين مصحفًا. اسمه الحافظ لأنه حفظ القرآن. وقد علَّم السلطان مصطفى الثاني وأحمدَ الثالث، ومات قبل ثلاثِمئة عام تزيد عشرين. ابتدع الحافظ عثمان بدعة جميلة. هي حلية السعادة الشريفة. وفيها أسطر بخطوط متنوعة، وفيها وصف لشخص النبي . وسنرى كل خطاط كبير بعد الحافظ عثمان يصنع حليةَ السعادة الشريفة على طريقته، ويحشُد فيها كلَّ فنه. نقرأ وصفه عليه السلام: «إذا مشى يتقلع كأنه يمشي في صبب -أي يقلع قدمًا ويضعها ولا يسحب قدميه على الأرض سحبًا، وهو يمشي مسرعًا كأنه في صبب أي على منحدر- وإذا التفت التفت معًا، بين

كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين ﷺ». كتبه الفقير عثمان بن علي المعروف بحافظ كلام لم يزلي، أي حافظُ كلام الذي لم يزل، أي الدائم؛ الله سبحانه.

حلية السعادة الشريفة التي نمَّقها الخطاط هاشم محمد البغدادي ضمَّت كل ما يخطر ببالك من أنواع الخطوط، وفيها سوى الثلث والنسخ والخطوط العربية المعروفة الحرف المسماري والعبري والهيروغليفي. هذه يرتدُّ عنها البصر وهو حسير. وسنذكر هاشمًا بعد قليل.

حامد الآمدي

ولد حامد الآمدي في تركيا عام ١٨٩١. وعندما كان يقترب من الأربعين ألغى أتاتورك الحرف العربي. ولكن حامدًا ظل يعمل خطاطًا بالعربية في دكانه الصغير في إستانبول أكثر من خمسين سنة، وكان يزوره كبار خطاطي العرب يأخذون منه الإجازات.

كان حامد قد تجاوز التسعين من العمر عندما رأى في منامه زميلًا له متوفَّى يكتب بخط الثلث بسرعة عجيبة. سأله حامد: «كيف تكتب هكذا؟» قال: «هكذا نصنع في الجنة». فقال حامد لتلاميذه عندما صحا من نومه: «إذا كان في الجنة قصبٌ وورق، فلا أبالي الموت». مات حامد الآمدي عام ١٩٨٢.

سيد إبراهيم

من أندر الأمور أن تجد خطاطًا شاعرًا، وكان سيد إبراهيم شاعرًا، قال في قصيدة:

الخَطُّ كنزُ فقيرِ

وزينةٌ للأميرِ

فكيف هان علينا

ولم يَفُزْ بخطيرِ

وكيف أصبحَ في مصــرَ

في المكانِ الأخيرِ

وقد كذَّب سيد إبراهيم بيتَه هذا بنفسِه؛ لأنه رفع بموهبته قدر الخط العربي في مصر، وكان أعظم خطاط في العالم العربي في زمنه. فلم يبق الخط في مصر في «المكان الأخير»، بل احتل مكانة مرموقة. وقد زار القاهرة أهم خطاط عراقي وهو هاشم محمد البغدادي، ونال إجازة من سيد إبراهيم. كلما

ذُكر سيد إبراهيم قال الخطاطون كلمة عن خطه لا يحيدون عنها وهي: الرشاقة.

عاش سيد إبراهيم طويلًا، وتبوأ المناصب، وكان صديقًا لكبار الأدباء. ورحل في السابعة والتسعين تاركًا عشرات التلاميذ. قال فيه فاروق شوشة الشاعر والإذاعي المصري: «عرفت شاعر الخط العربي وأميرَه سيد إبراهيم عندما كان يدرِّسنا فن الخط العربي في كلية دار العلوم في عام ١٩٥٢، ورأيت فيه عاشقًا كبيرًا للشعر ونماذجه وأمثلته، التي كان يكتبها لنا لكي نحاكيَها. كانت من عيون الشعر العربي، خاصة شعرَ أبي العلاء المعرِّي، وكان دائمًا شابَّ العقل والقلب».

محمد حسني البابا

عندما تخطَّى محمد حسني البابا السبعين من العمر نال الجنسية المصرية. ربما بسبب شهرة ابنتيه سعاد حسني ونجاة الصغيرة، وليس لأنه علَم كبير من أعلام الخط العربي. وخلَّف محمد حسني تسعة أبناء آخرين، بين صاحب عزف وتلحين ورسم وخط. وهو دمشقي حلَّ بمصر وهو في الثامنةَ عشرةَ من عمره. ولمع نجمه سريعًا. كان يكتب اللافتات والعناوين للمجلات والكتب، وكان سريعًا لكن العين الخبيرة تدرك أن له أناملَ من ذهب. كان الخط العربي يسري في عروقه. نتحدث عن عائلة فن. فـ «الممثلة» الشامية المشهورة التي كانت تحمل في كل أدوارها اسم «أم كامل» والتي تشبه (بالمناسبة) سعاد حسني ليست امرأة. إنها عمُّ سعاد حسني. هذا هو «أنور حسني البابا» أخو الخطَّاط الكبير.

كان محمد حسني البابا من أهم خطَّاطي العالم العربي في زمنه. كان سيد التراكيب، تجلس كل كلمة في لوحته في مكانها فتتحول اللوحة إلى صورة. ولم تكن لوحاته ذاتُ التراكيب العجيبة كثيرةً، فقد كان خطاطًا تجاريًّا، يهتم بمصنع الزنكوغراف الملحق بمشغله اهتمامَه بفنه، فهو رجل يُعيل أسرة كبيرة.

استطاع محمد حسني رغم همومه في البيت الكبير وفي مشغله أن يظل قامة سامقة في عالم الخط العربي في زمن عاش فيه عمالقة هذا الفن. توفي محمد حسني البابا عام ١٩٦٩ عن ثلاث وسبعين سنة.

هاشم محمد البغدادي

استطاع هاشم محمد البغدادي أن يرتفع بقامته في دنيا الخط العربي ليُشامِخ أساتذته. فمن بغداد قصد القاهرة ونال إجازة من سيد إبراهيم، صاحب الحرف الذي يرقص على القرطاس، ونال إجازة من محمد حسني، صاحب

التراكيب العجيبة ومهندس الحروف، وعاد إلى بغداد لكي يصبح كبيرَ الخطاطين. غير أنه لم يكتف بالإجازتين. ففي إستانبول خطاط انتهت إليه فنون الخط العربي التي بلغت المدى في العصر العثماني. فلا بد من إجازة من حامدَ الآمدي. وعاد هاشم بعد سنتين إلى إستانبول ونال إجازة ثانية من الآمدي. ونال مع الإجازة الخطية الثانية شهادة عزيزة، قال حامد: «إني لأخجل أن أقدم شهادة لمن لم يعد يحتاج إلى شهادة».

كانت ميزة هاشم الكبرى الإتقانُ ونصاعةُ الحرف وضبطُ المقاييس. وقد وضع كراسة خطية ظلت على مدى عقود طويلة وحتى اليوم أكثرَ الكراسات انتشارًا، وأبدعَها شمولًا وتنظيمًا. في كراسته قعَّد هاشم الخط العربي تقعيدًا، وأرسى موازينه، فكل حرف يقاس بالنقط من القلم نفسه. لكن، كيف يأخذ الحرف حقه بمقاييسه الدقيقة عندها يدخل في تراكيب معقدة؟ ههنا تكمن القدرة على تكييف الحرف وهندسة المساحة بحيث يحتفظ الحرف ببهائه دون إخلال بالمقاييس، وبحيث تتوزع الكلمات داخل اللوحة في انسجام.

تكون اللوحة على شكل بيضوي، وتلتزم الحروف به، ولكن كل حرف ينضبط بمقاييسه، وتصعد الألفات واللامات يمينًا، وتصعد أمثال لها يسارًا في تناظر، وفي الأسفل يوازن صحن العين صحنَ الخاء، ثم تنظر إلى اللوحة فلا تجد فيها فراغًا يفغر فاه. وتكون اللوحة على هيئة مستطيل، والتنسيق هو التنسيق. أو تدخل الكلمات في دائرة، والخطاط يزن كل عنصر فيها لتكون لوحة حقًّا لا مجرد كلمات مخطوطة.

كانت لهاشم محمد علاقة عائلية برئيس العراق عبد الكريم قاسم، وخرجت من سنِّ قلمه شهادات التكريم، والأوسمة الرئاسية، والكتابات على أوراق النقد. لكن الذي صنع لهاشم محمد مجده كان سنَّ قلمه لا العلاقات.

وشاء القدر أن يُتوفَّى هاشم قبل شيخه حامد الآمدي، فقال حامد: «وُلد الخط في العراق، وبها توفي». مشيرًا إلى أن أعظم الخطاطين القدامى: ابنَ مقلة وابنَ البواب وياقوتَ المستعصمي، كانوا في العراق.

المحامي المتقاعد

هذا كتاب يخففُ عن قارئه ما يشعر به من ضيق، ويُزيل ما بنفسه من غم. كتاب الفرج بعد الشدَّة. وقع المؤلف أبو عليِّ التنوخيُّ في محنة جعلته يقلِّب الكتبَ ويلتقط منها القصصَ التي تحكي خروج أصحابها من ضيق المحنة إلى سَعة الفرج. ومن هذه القصص صنع كتابه.

وقصة محقق الكتاب عبود الشالجي قصة رجل خرج من محنة التقاعد بعزيمة جديدة. فبعد ثلاثين سنةً قضاها في مهنة المحاماة رحلَ من بغدادَ إلى لبنان،

وأقام في بحمدون. وبدأ عبودُ الشالجي رحلةً دامت نحو خمسٍ وثلاثين سنةً مع التحقيق والتأليف.

ولتحقيق هذا الكتاب ذي الأجزاء الخمسة، إرتحل الشالجي إلى لندن ودبلن ودمشق والقاهرة والرباط. بعد الستين تمكَّن الشالجي من أن يُثبت لنفسه اسمًا كبيرًا في دنيا التحقيق والتأليف. وقد حقَّق للتنوخي أيضًا كتاب نشوار المحاضرة في ثمانية أجزاء، وألف كتابًا غريبًا اسمه موسوعة العذاب، والعذاب عند القدماء هو «التعذيب» عندنا. وجاء هذا الكتاب الفظيع في ستة أجزاء. فمن رغب في معرفة كيف تُدقُّ الأسافين في العيون، وكيف يُقرض لحم الرجل وهو حي بالمقاريض، وكيف يُدفن الناس أحياء فعليه بهذا الكتاب، وهو على النت.

عبد الرحمن بدوي

لكل أمة ثقافتُها وطريقتُها في النظر إلى العالم وما بعدَ العالم. لقد ترجمنا موسوعاتٍ فلسفيةً عديدةً إلى اللغة العربية، لعل أشهرَها موسوعةُ لالاند، ولكننا نريد أحدًا يَعرِفُنا ويَعرفُ ثقافتَنا كي يحدِّثَنا عن الفلسفة حديثًا من منظارنا. فكان عبد الرحمن بدوي.

بعد أن كتب أربعةً وثمانينَ كتابًا في الفلسفة، وضعَ عبد الرحمن بدوي الموسوعة الفلسفية فجمع فيها فلاسفةَ الشرق والغرب، قديمًا وحديثًا، ولخَّص المذاهب الفلسفية بقلم عربي، لقارئ عربي.

ولم ينسَ بدوي نفسَه، فالمادة التي تحمل اسمَه في الموسوعة أطولُ من مادة أفلاطون وكانط، وأقصرُ قليلًا من مادة أرسطو. وفي عُرفِ عبد الرحمن بدوي فإن أفلاطون وأرسطو وكانط هم أعظمُ فلاسفة التاريخ.

موسوعةُ الفلسفة جزآن كبيران، أُلحق بهما ثالث. وفيها ما جلَّ ودقَّ. نقرأ صفحاتٍ كثيرةً عن فكر أفلاطون، ثم نعثر بمعلومة طريفة: الفيلسوف اليوناني لُقِّبَ بأفلاطون لاتِّساع جبهته، فأما اسمُه فهو أريستوخليس.

ونقرأ عن أندريه لالاند في موسوعة بدوي فيمتدحه الكاتب كثيرًا ويقول: «كان لنا شرفُ التتلمذِ عليه، وندين له بفضلٍ عظيم في تكويننا الفلسفي».

موسوعة عبد الرحمن بدوي الفلسفية تقرِّب المفاهيم، وتبسُطُها دون أن تبسِّطها، وكتبها عبد الرحمن بدوي لنا.

عادل زُعَيتر

ولد عادل زُعَيتر في نابلس في أواخر العهد العثماني في عائلة علم وقضاء، وتعلَّم القانون في إستانبول، ثم في السوربون بباريس. وفتح مكتبًا للمحاماة في نابلس، ولكنه اشتغل أيضًا بتدريس القانون في مجلس الحقوق بالقدس. كان أحدَ محامِيين تتردد النوادرُ في نابلس عن مرافعاتِهما أمام القضاء. ولكنه كان يرفع للثقافة العربية صرحًا شامخًا في ليالِيه. كان يعكِف عُكوفَ راهبٍ متبتِّل على نقل أمهات الكتب الفرنسية إلى العربية. فإذا حلَّ الشتاء ولَّى وجهه شطر القاهرة كي يطبع ترجماته.

قيل له: «ألا تؤلف كتابًا؟» فقال: «عندما تصل الكتب التي أترجمها إلى طول قامتي سأؤلف». وكانت قامته مئةً وتسعة وستين سنتمترًا. وقد كادت مترجماتُه تصلُ إلى قمة رأسه، فقد ترجم سبعة وثلاثين كتابًا من الكتب الضخام، لكنه توفي عن إحدى وستين سنة فلم يسعفه العمرُ كي يؤلف.

كانت مترجماته من العيار الثقيل، فقد نقل اثني عشر كتابا لغوستاف لوبون، الذي يعَد مؤسسَ فرعٍ في علم النفس يتناول «نفسية الجماهير». وترجم له زعيتر كتابَه الأساس في هذا الموضوع بعنوان: روح الجماعات. ولعل أشهرَ كتب لوبون عند قرَّاء العربية حضارةُ العرب، وترجمه زعيتر.

وترجم عادل زعيتر لڤولتير ولجان جاك روسو كتبًا في التربية والفلسفة.

في ذلك الزمن -في النصف الأول من القرن العشرين- كانت هذه الكتب، التي أسَّست للفكر العالمي في القرن الثامنَ عشرَ والتاسعَ عشرَ غيرَ معروفة للقارئ العربي.

وقد أُعجب زعيتر بطريقة الكاتب السويسري الألماني إميل لودڤيغ في سرد التاريخ الأوروبي والشرقي فترجم له سبعةً من أهم كتبه منها كتبه عن كليوباترا وبسمارك ونابليون، وكتاب عن البحر المتوسط.

عندما كان عادل زعيتر يراجع تجارِب الطباعة لكتاب البحر المتوسط شبَّ حريق القاهرة المشهور في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٥٢. ومضى الرجل يصححُ تجارِب الطباعة، وطبعت دارُ المعارف الكتاب، وقبل أن تجلَّدَ ملازِمُه اكتشفَ المترجمُ بضعةَ أخطاء مطبعية، فأصر على أن يُرفق جدولًا بها في نهاية الكتاب، ورفض صاحبُ الدار الأمر. ولكن شيخ المترجمين أبى أن يَخرُج الكتاب إلا والجدولُ في ذيله.

انتقده المنتقدون على استعماله بعضَ الكلمات المهجورة، وكان من هؤلاء المنتقدين الأديبةُ «بنتُ الشاطئ». تروي قصتها مع عادل زعيتر: «دعاني إلى لقائِه في دار المعارف، فصمَّمت أن ألقاه بكلمة عمرَ بن الخطاب: «أصابت امرأة وأخطأ عمر». غير أني ما كِدتُ ألقاه حتى أخذني ما يشبه التهيُّبَ من

وقاره وجلال سَمتِه. وجلست أصغي إليه في خشوع، وانصرفتُ من حضرته وأنا أَعُدُّه أستاذًا لي، وصرت أقرأه قراءة التلميذة لا الناقدة. وإذا كان قد غفرَ لي زَلَّةَ قلمي، فما غفرتُها لنفسي قطُّ».

توفي عادل زعيتر عام ١٩٥٧، بعد إذ فتح لأبناء أمَّته نافذةً على الفكر العالمي، وقدَّمه بأسلوب متين وبترجمة دقيقة أصبحت معيارًا لكل ترجمة. لكنه كان كثيرًا ما يبعث الكلمات المتوفاة من مراقدها.

علي الطنطاوي

هذا الرجل مذيع، عرفه ميكروفونُ الإذاعة وعدسةُ الكاميرا على مدى ستين سنة. جعل الخلط بين العامية والفصحى فنًّا قائمًا برأسه. وتبحثُ في المضمون فإذا علي الطنطاوي يعالج كبريات مسائل الدين والمجتمع بأعذب أسلوب. لم يتخلص لسانه من لهجته الشامية الدمشقية أبدًا، ولكنه كان من كبار البلغاء.

وتقرأُه إذ يقدِّم نظرات عميقةً في النقد الأدبي، داخلًا في عقول الشعراء مستخرجًا معانيَهم فإذا علي الطنطاوي ناقدٌ أديب من الطراز الأول. يدعوك إلى التقوى، ولكنه لا يحملُ لك العصا. فإذا خلوتَ بأحد كتبِه الكثيرة ساعةً وجدتَه يحدثُك عن الموسيقى والغناء، ويقصُّ عليك ما جرى بينه وبين صديقِه قارئِ المقام العراقي محمد القبانجي.

هذا الرجل ارتفع بالدين عن الطائفية، ودعا إلى الدين بلسان الحب. يحبه عامة الناس، فأما المتمكنون في اللغة والثقافة فيُجلُّونه ويعرفون قدره.

وهو في العلم معمٌّ مخول، فأبوه مفتي دمشق، وخالُه محبُّ الدين الخطيب أحدُ رؤوس الدين والأدب في الشام وفي مصر على حدٍّ سواء. وُلد علي الطنطاوي في عام ألف وتسعمئة وتسعة في دمشق

وتعلم في مدارس ذلك الزمن، ولا سيما في «مكتب عنبر»، تلك الثانوية التي تخرَّج فيها نوابغُ الشام والأردنِّ وفلسطين في أواخر العهد العثماني وبدايات العهد الانتدابي. ودرس على الطنطاوي في مصر، واضطلع بالتدريس في بلاد الشام والعراق، وعرفه ميكروفون إذاعة الشرق الأدنى في يافا بفلسطين.

ثم عمل في القضاء ربعَ قرن. كلَّ هذا وهو يوالي عشراتِ المجلات بمقالاته وأبحاثه. كتب علي الطنطاوي كتابًا بعنوان: يا ابني، وكان كلما حملت زوجته يهيِّءُ اسمًا للولد المنتظر، فمرة هيثمُ ومرة عزام، وتأتي البنتُ بعد البنت، حتى اكتملن خمسًا، ولا ولد.

وكان لكل بنت من بناته شأنٌ في العلم والأدب، فملأن قلب أبيهن بما حقَّقن، وأسعد الأحفاد كهولته،وأسعد أبناؤهم شيخوخته.

لم يكن علي الطنطاوي بعيدًا عن السياسة، فقد قارع المحتل الفرنسي في سوريا، ألقى خطبةً في دير الزور وهو يعملُ بها معلمًا، وقال فيها: «لا تخافوا الفرنسيين فإن أفئدتَهم هواء وبطولَتَهم ادِّعاء، إن نارَهم لا تُحرق ورصاصَهم لا يقتل، ولو كان فيهم خير ما وطئت عاصمتَهم نِعالُ الألمان»، وكانت باريس سنتئذٍ قد سقطت في أيدي قوات هتلر. وفَقد وظيفته بسبب موقفه. وعرفته العراق ثم السعودية معلمًا. لكن علي الطنطاوي لم يكن فردًا عاديًّا، فقد كان في كل مجال نسيجَ وحدِه.

أقام بين مكة وجدة سنواتٍ كثيرةً وظل نشطًا معطاء حتى بلغ التسعين. وظل يملك روح النكتة. حدَّث أحد تلامذته قال: «عاونته في الاستواء على كرسيه المتحرك وقد شارف على التسعين، فقال لي: قدَّرني الله على أن أرد لك الجميل وأعاونَك عندما تبلغ التسعين».

في أُخرياته جاورَ على الطنطاوي في مكة، وفيها توفي ودُفن قبل انقضاء القرن العشرين بسنة.

كان لسانَ خير وتسامح، وقلمًا آسرًا، وشعلةَ علم وذكاء.

قاسم أمين

نتحدث عن رجل من التراكوة، بحسب التعبير المصري. أبوه تركي وأمه مصرية، وأبو زوجته تركي، وكان يصيِّف في تركيا في منزل حميِّه التركي. والذي كسبه لنا ولتراثنا اللغة العربية ومصر.

كانت ثلاثُ غرف من بيت قاسم أمين مخصصةً للكتب. ولكن، كان لزوجته زينب من وقته ساعتان كل يوم لا يخلط بهما شيئًا آخر. وكانت لهما ابنتان؛ سيدة وغولجان، أو جِلسن كما يكتبونها. كان ثريًّا، ورث عن أبيه. وكانت زوجته أثرى منه، ورثت عن أبيها. ذات مرة كشفت زوجته حساب أطيانها فوجدت عجزًا، فحَردت ثلاثة أيام في بيت صفية زغلول زوجة سعد. وتمَّ الصلح على أن ينفق قاسم أمين من ماله فقط.

قضية قاسم أمين الكبرى كانت المرأة. كتب في ذلك المقالات، وكتب كتابين: تحرير المرأة، والمرأة الجديدة. وهوجم كثيرًا. كان رئيس نيابة، وكان من كبار مثقفي عصره. قرأ نيتشه وداروين وماركس ولامارتين، وقرأ العروة الوثقى، فقد كان تَرجمانَ الإمام محمد عبده في باريس. عشق قاسم أمين فتاة فرنسية وظل يحمل صورتها في محفظته. مات والصورة في محفظته، وجدها من خَفُّوا إلى سريره بعد ميتته المفاجئة، وأخفوها عن زوجته. كانت

تلك الفتاة تمثل له المرأة المثقفة.. كانت أمنيتَه المستحيلة، فهو متزوج من سيدة ترعى بيتها ولكنها لا تشاركه الهمَّ العام.

دخلتُ عالم قاسم أمين من بوابة الشعر. وهذا دأبي. في كثير من أمري أنتبه إلى الضوء الساطع عندما أراه في الشعر. وانتباهي إلى قاسم أمين مثال على ذلك. رثاه حافظ إبراهيم:

لَهْفي عليكَ قَضيتَ مُرتَجِلًا

لم تَشْكُ، لم تَسْتَوْصِ، لم تَقُلِ

إنْ رَيْتَ رأيًا في الحِجابِ ولم

تُعْصَمْ، فتِلْكَ مراتبُ الرُّسُلِ

الحكمُ للأيامِ مَرجِعُهُ

فيما رأيتَ، فَنَمْ ولا تَسَلِ

فإذا أَصبْتَ فأنتَ خيرُ فَتىً

وَضَعَ الدواءَ مَواضِعَ العِلَلِ

أَو لا، فَحَسْبُكَ ما شَرُفْتَ به

وتركتَ في دنياك مِن عملِ

حافظ إبراهيم يرثي الرجل بحذر.. ليس متأكدًا إن كان قاسمٌ أصاب أم أخطأ. هذا نبهني إلى أن قاسم أمين اجترح كبيرًا من الأمر. ورثاه أحمد شوقي:

أوفى الرجالِ لعهدِه ولرأيِه

وأبرُّهُمْ بصديقِه والجارِ

وأشدُّهُمْ صبرًا لمعتَقَداتِه

وتَأَدُّبًا لمجادلٍ ومُمارِ

فهو يرثيه بأنه مؤدَّب ومستمسك بمعتقداته. لكن شوقي لا يقول أأصاب قاسم أمين أم أخطأ. من هنا أدركت أن قاسم أمين كان في دعوته جريئًا حقًّا، وأنه سبق عصره.

وبعد عشرين سنة من وفاته نظم شوقي قصيدة قُرئت في حفل نسائي تتصدَّره هدى شعراوي، وكانت دعوة قاسم أمين قد رسخت:

حريةٌ خُلِقَ الإنا

ثُ لها كما خُلِقَ الذُّكورُ

يا قاسِمُ! انظُرْ كيف سا

رَ الفكرُ وانتقلَ الشعورُ

جابتْ قضيتُك البلا

دَ كأنَّها مَثَلٌ يسيرُ

ما الناسُ إلَّا أَوَّلٌ

يمضي فيخْلُفُهُ الأَخيرُ

ما في كتابِكَ طَفْرَةٌ

تُنعَى عليكَ ولا غُرورُ

ووضعْتَهُ، وعلمتَ أنَّ

حِسابَ واضِعِه عسيرُ

لَكَ في مسائِلِه الكلا

مُ العَفُّ والجَدَلُ الوَقورُ

عَصْرُ العباقرة النجو

مِ بنورِه تمشي العَصورُ

قال قاسم أمين في تأبين الإمام محمد عبده: «بلغت فيه طيبة النفس إلى درجة غير محدودة، كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد، كان ملجأ للفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأي مصيبة. كان للإمام الكبير أعداءٌ كثيرون وهم جيش الجهل المركب».

فكأنه قد وصف نفسه وهو يصف أستاذه. قاسم أمين صاحب موقف، مات في التاسعة والأربعين من العمر. قال قاسم أمين:

• لو انتظر المصلحون دائمًا إرضاء الرأي العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء.

• من احتقار المرأة أن تُسجن في منزل ونفتخر بأنها لا تخرج من إلا محمولة إلى القبر.

• من احتقار المرأة أن يُعلن الرجال أن النساء لسن محلًّا للثقة والأمانة.

• ليس في الشريعة نصٌّ يوجب الحجاب، وإنما هي عادة أخذناها عن بعض الأمم.

• المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة.

• وضع الطلاق تحت سلطة القاضي أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج.

• كل عشق شريف.

• الاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق.

• إذا استشارك عدوك فقدِّم له النصيحة؛ لأنه بالاستشارة قد خرج من معاداتك إلى موالاتك.

• فعل الخير حسن، والأحسن منه سَتره.

• السعادة كرة نركلها بأقدامنا عندما نقترب منها، ونعدو وراءها عندما تبتعد عنا.

• لا تكمُل أخلاق المرء إلا إذا استوى عنده مدح الناس وذمُّهم إياه.

• في الأمَّة الضعيفة المستعبَدة حرف النفي «لا» قليل الاستعمال.

• الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرًا ولا تعلن عن نفسها.

جَوَاد علي

نتحدث عن كتاب كُتب مرتين رغم ضخامته. فقد صدر في ثمانية أجزاء عام ١٩٦٠، ثم صدر في عَشَرة أجزاءٍ بعد عَشَرة أعوام مكتوبًا كتابةً جديدة، ومع إضافة كلمة «المفصَّل» في العنوان، وهو المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

يشكو المؤلف في المقدمة من قصور الدول العربية في التنقيب عن الآثار، ومن ترك هذا الأمر للمستشرقين.

نشأ جَوَاد علي في بغداد، ودرس التاريخ في ألمانيا ونال الدكتوراة من جامعة هامبورغ. وعاد إلى العراق أستاذًا جامعيًّا. يبحث كتابُ عمره في أديان العرب قبل الإسلام وفي أصنامهم، ويبدِّدُ كثيرًا من الخرافات، ولكنه يلتزم جانبَ الحذر فلا يبدي رأيًا شخصيًّا. بل لقد نراه يعرضُ للخرافات المختلفة تاركًا للقارئ أن يرى التضارب فيما بينها، يفعلُ ذلك لأن بعض علماء الدين ربطوا أحداثًا تاريخية قديمة بالأنبياء، فجعلوا سيدنا إسماعيل يتكلم العربية كما

نعرفها اليوم، وجعل بعضهم لغةَ يعرُبَ أبي القحطانيين في اليمن عربية كعربية القرآن. يعرض جَوَاد علي الآراءَ والمعلومات المختلفة، ويستند إلى كل ما توفر من نقوش ونصوص. ولا يكاد يغيب عنه كتاب عربي أو أوروبي في موضوعه.

نقرأ له في الجزء التاسع أبحاثًا غنية عن الشعر والعَروض، والرواة والمعلَّقات تمتدُّ على طول الجزء لأكثرَ من تسعمئة صفحة. نجده يحفرُ عميقًا في نشأة علم العَروض مثلًا مبددًا أوهامًا ما زالت تعشِّش في الكتب الجامعية حتى اليوم. فالخليل بن أحمد لم يبتدع علم العَروض فجأة، ولم يكن ماشيًا في سوق النحَّاسين، ولا القصَّارين يسمعُ طَرقات أدواتهم فخطر بباله أن يضع نظامًا للشعر العربي. لا بل إن الجاهليين عرفوا الأوزان معرفةً معينة وميزوا بينها. والأدلةُ تأتي مدعِّمة كلَّ فرضية.

هذا كتاب تأسيسي، ولئن عرف مثقفو العرب عنوانَه خير المعرفة، فإنهم لم يأتوا -وقد مرَّت خمسون سنة- بأبحاثٍ أصيلة تصعَدُ على كتفيه.

توفي جَوَاد علي عام ١٩٨٧، عن ثمانين عامًا. وكان يقول في أُخريات سنيِّه: «ما زلنا نسمع الناس يقولون: قال المستشرقون، حتى أخذت أسمعهم يقولون: قال جَوَاد علي».

أحمد أمين

مفتاح شخصية أحمد أمين أنه كان قاضيًا. ولد في القاهرة بعد أن احتل الإنجليز مصر بأربع سنين. ودخل الأزهر، ثم قُبل في مدرسة القضاء الشرعي لتفوقه، وهناك درس ثم أصبح مدرسًا خمس عشرة سنة. وسرعان ما تطربش وغدا أفنديًّا.

وفي المجمل عمل قاضيًا أربع سنين. في عام ١٩٢٦ رشَّحه طه حسين لتدريس النقد الأدبي بالجامعة المصرية جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى).

كان في الأربعين، وكان طه حسين في السابعة والثلاثين. الأول رجل عربي لا يعرف سوى العربية وأزهري وقاض، والثاني رجل أزهري ويتقن الفرنسية ويحمل أفكارًا علمانية.

من خلفيته في القضاء استمد أحمد أمين روح البحث والتنقير، وعُرف عنه أنه كان لا يصدر أحكامه إلا بعد طول تثبُّت. وقد كتب في النقد الأدبي والاجتماعي، وأسَّس «لجنة التأليف والترجمة والنشر» قبل دخوله الجامعة بسنوات، وسيظل رئيسًا لهذه المؤسسة المهمة التي نشرت عشرات الكتب التراثية والمترجمة أربعين سنة حتى وفاته.

أصبح أستاذًا فعميدًا لكلية الأدب العربي خلفًا لطه حسين. وكان يرفض كل تدخل من جانب طه حسين في عمله. ورفض أيضًا تدخلَ وزير المعارف محمد حسين باشا هيكل، وبسبب هذا الرفض قدَّم استقالته بعد سنتين. وقال أحمد أمين كلمتَه المشهورة: «أنا أصغرُ من أستاذ وأكبرُ من عميد».

لم يكن سياسيًّا؛ ليس تعففًا، فهو رجل وطني وله في السياسة رأي، ولكن كما قال: «كنت أخاف السجن وأخاف العقوبة». وأما طه حسين فكان من الأحرار الدستوريين، الحزب الذي ينتمي إليه أيضًا محمد حسين باشا هيكل. يحدِّثنا أحمد أمين عن منصب العمادة في كتابه حياتي: «كان عليه يومًا أن يوقِّع على طلب صرف لشراء مِكنَسة. وعرف في قرارة نفسِه أمرًا عبر عنه بأبلغ عبارة، قال: «أريد أن أعمل لا أن أسيطر». ومضى يكتب كتبًا حفرت عميقًا في الأذهان. وأهمها سلسلته عن الثقافة الإسلامية: فجرُ الإسلام في عدة أجزاء، وتلاه ضحى الإسلام فـ ظُهر الإسلام، وبعد سنوات كتب يومَ الإسلام.

كانت لأحمد أمين قصة طريفة مع اللغة الإنجليزية، فقد أحسَّ بحاجة ماسَّة إليها، وقعد تلميذًا نجيبًا بين أيدي مدرِّسين ومدرِّسات وهو يقترب من الكهولة، وتعلم ما يمكِّنُه من أن يقرأ ويستقي من الثقافة الأجنبية. كان رجلَ عائلة وربى أولاده على العلم، ونبغ منهم حسين وجلال.

اتخذ أحمد أمين من مجلة الثقافة، التي أنشأها، منبرًا ليبث آراءه الاجتماعية، وجمع مقالاته في كتاب من عشرة أجزاء هو فيض الخاطر. لم يكن له الأسلوبُ المضمخ بأطياب الماضي الذي كان لطه حسين. كانت لغتُه أنيقة وسلسة، وفصيحة. ونرى أحد أصحاب الأساليب النارية يهاجم أحمد أمين بمقالات كثيرة، ذلك هو زكي مبارك الذي جعل شعار مقالاته: «جناية أحمد أمين على الأدب العربي». ونرى أحمد أمين يردُّ ردود قاضٍ محنك، ولا ينزلق إلى سفساف القول. عاش أحمد أمين في زمن ثقافي جدّ ٍنشط، وتوفي عام ١٩٥٤ تاركًا بصمته الفكرية والأدبية في زمن العقاد وطه حسين وزكي مبارك والرافعي ومحمود شاكر. كان مختلفًا.

جلال أمين

هذا رجل كتب سيرته الذاتية ثلاث مرات. لا بد أن حياته كانت ملأى بالأحداث والأفكار. كتب أول كتاب عن نفسه وعن العائلة التي تربى فيها. وهي ليست كأي عائلة، هي عائلةُ والدِه المفكر والأديب أحمد أمين.

سيقول جلال أمين لنا عن أبيه أشياءَ ما كان الأب ليحلم أنها ستخرج إلى العلن. أمُّ جلال أمين تشترط على أبيه أن يكتب لها نصف البيت، ثم تعود

وتشترط أن يكتب لها النصف الثاني، ثم لا تكتفي بهذا، بل تقول له بعد حين: «أنت تعيش في بيتي فعليك أن تدفع إيجارًا»، وأخذ أحمد أمين يدفع الإيجار الشهري. ومن جهة أخرى ينشر جلال أمين صفحاتٍ من يوميات كتبها والده ووجدها بعد وفاته في ركن قصي. كان أحمد أمين كثير الندم لأنه لم يتزوج امرأة أجملَ من التي تزوجها.

وينشر جلال أمين سيرة ذاتية أخرى، ليس تكملة للأولى، بل هو يقص قصة حياته من البداية أيضًا، لكن، منتقيًا أحداثًا مختلفة. يحدِّثنا عن الاكتئاب، وعن التخلص منه، ويتألم لموقف: كان يعود إلى البيت مساء فيجد والده الذي كُفَّ بصره أو كاد، ولزم البيت عليلًا، يجده جالسًا في الصالة. فيسأله أبوه عما جرى معه في يومه، يريد أن يأتنس بابنه في وحدته، فيقول الشاب كلمات قليلة ويمضي مسرعًا إلى غرفته، تاركًا والده في وحدته الموحشة.

يقول جلال أمين إن السيرة الذاتية لا تكون حقيقية إلا إذا كانت شائنة. وقد واصل الكشف في آخر سيرة ذاتية كتبها مكتوب على الجبين.

هو يفضح نفسه أكثرَ مما فضح والده، لكن.. تلك هي نظريته في السيرة الذاتية. وكان أخوه الذي يكبره، حسين أحمد أمين، قد كتب كتابًا لطيفًا عن أسرته بعنوان في بيت أحمد أمين. ولعل الأخ الأصغر أراد أن يضاهي أخاه فباح بأكثرَ مما باح.

تعلم جلال أمين حرفةَ الكتابة طفلًا، فكان أبوه ينشرُ له خواطره في مجلة الثقافة التي يحررها. ولكن التخصص الأكاديمي قطع هذه المسيرة قطعًا، فقد درس صاحبُنا القانون، ثم تخصص في الاقتصاد في إنجلترا فنال الدكتوراة، وعمل في حقل الاقتصاد في الخليج، وعاد إلى مصر أستاذًا للاقتصاد في الجامعة الأميركية بالقاهرة، حيث ظل يدرِّس حتى سنواته الأخيرة ولأكثرَ من ثلاثين عامًا. غير أنه أعاد اكتشاف قلمه. كتب مقالًا عن الحَراك الاجتماعي في المجتمع المصري، وأضاف إليه بضعَ مقالات ونشرها في كتاب صغير كان له صيت ذائع: ماذا حدث للمصريين؟ وفوجئ جلال أمين بردِّ الفعل الإيجابي، وأخذ يكتب. كتب عن الفن والأدب والسينما والاقتصاد. وقدَّم نظرة غاضبةً لما تعرض له العرب والمسلمون بعد هجمات الحادي عشرَ من سبتمبر/ أيلول، وهجا العولمة بكتاب. ولم يعجبه الانجرار نحو الفكر الغربي بداعي التنوير، هذا رغم أنه كان أستاذًا في الجامعة الأميركية.

كان يرى في الحضارة الإسلامية رافعةً نفسية مهمة للنهوض. أما آراؤه الاجتماعية فكانت تميل إلى الحياة المعاصرة، وهو بعدُ رجل متزوج من إنجليزية، ويحدثك عن شجرة عيد الميلاد التي ينصبها في بيته، ولا يأنف من مظاهر الحياة الغربية.

لم يكن جلال أمين يخجل من حياته، ولا من آرائه. كان معتزًّا بمصر وبالعروبة وبالإسلام، ولكن على طريقته. وعندما قامت ثورة الخامسِ والعشرينَ من يناير/ كانون الثاني قبل سبع سنوات من وفاته، كتب عنها وعن عصر مبارك.

وكانت لكتابته مصداقية خاصة لأنه كان مترفِّعًا عن تملُّق السُّلطة طوال عهد مبارك. توفي جلال أمين -الذي كتب سيرته الذاتية ثلاث مرات- عام ألفين وثمانيةَ عشر.

علي الوردي

ثمة خرافةٌ شائعة في أوساط أنصاف المثقفين تقول: «مصر تكتب، وبيروت تطبع، والعراق يقرأ». وبما أن علي الوردي عراقي صميم عاش ومات في العراق، فالعراق يكتب أيضًا. كان علي الوردي يكتب في الفكر والنقد الاجتماعي وفي التاريخ، ولا تتسلل إلى لغته كلمة ولا فكرة يصعب على الطالب في الثانوية أن يفهمها. كلما كان المرء عميقًا كان فكره سهلًا ولغته بسيطة.

ولد علي الوردي سنة ١٩١٣ في بغداد العثمانية وترك المدرسة بمجرد أن فكَّ الحرف، وعمل صبيًّا في دكان عطار، وعندما بلغ الثامنةَ عشرة كان الحكم في العراق ملكيًّا، وكانت المدارسُ أفضلَ حالًا وقد تعرَّبت، فعاد إلى الصف السادس الابتدائي شابًّا يافعًا. درس في الفترة المسائية، وتفوق. والمسيرة الأكاديمية بعد ذلك سريعة. درس في الجامعة الأميركية في بيروت مبعوثًا لتفوقه، ثم إلى تكساس بالولايات المتحدة ليعود إلى بغداد عام ١٩٥٠ بشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع.

ما أكثر حَمَلة الدكتوراه! ولكن هناك علي الوردي واحدٌ. كان ذا فكر مستقل. كان الفكر الماركسي ذا سطوة في الدوائر الثقافية والأكاديمية تبعًا لاشتداد الحركة الشيوعية في العراق، ولكن علي الوردي لم يصبح ماركسيًّا، وجاء الفكر القومي بعد سنوات مع حزب البعث، ولم يصبح علي الوردي قوميًّا، ولا كان مفكرًا إسلاميًّا، ولا كان أي شيء سوى مفكر حر.

لم يخض معاركَ أدبيةً على الطريقة المعهودة في زمنه، وعندما تصدى له مهدي المخزومي النحويُّ العراقي نازله بمقالات فكرية عميقة ضمَّنها كتابه أسطورةَ الأدب الرفيع.

يقول علي الوردي إن أدبنا يصبح فضيحة لو تُرجم إلى لغة أخرى، فهو قعقعة ألفاظ قد تعجبنا نحن، فأما ما فيه من أفكار فسطحي.

وسلق على الوردي السُّلطات بلسان حادٍّ في أكثرَ من كتاب ولا سيما كتابَه المشهور وعَّاظ السلاطين.

ولئلّا يكون في اسم هذا الكتاب لبسٌ فإن الوردي لم يقصد الوعَّاظ القدماء الذين كان الواحد منهم يدخل على السلطان فيعظُه بكلمات قاسية ويخرجُ دون أن يقبل الأعطية، بل يقصد نمطًا آخر. نقرأ وصفَه لواعظ السلطان: «يهتف الواعظ بالناس قائلًا: إنكم أذنبتم بحقِّ الله فحُقَّ عليكم البلاء، والواعظ بذلك يرفع مسؤولية الظلم الاجتماعي عن عاتق الظالمين، فيضعها على عاتق المظلومين». وفي وعَّاظ السلاطين وصفٌ للمجتمع الأعرج، يقول الوردي: «إن وجود الغنى الفاحش بجانب الفقر المدقع في مجتمع واحد يؤدي إلى الانفجار عاجلًا أو آجلًا، ومهما طُليَ هذا التفاوت في الثروة بطلاء من الدين أو الخلق أو الشرف، فإنه مكشوف في أعين الناس تتقزز منه النفوس».

ولا يسوِّق علي الوردي أفكاره على الفقراء الأميين، فهو ليس صاحبَ دعوة ولا هو عضوٌ في حزب، وهو يقول إن الفقير الجائع لا يكاد يرى الحقيقة إلا على شكل رغيف. بل هو يسعى لِبثِّ فكره في أوساط المتعلمين، نصح أصحاب الحل والعقد في البلاد قائلًا: «الحكومة التي لا تدرِّب رعاياها على اتِّباع طريق الثورة السلمية الهادئة سوف تجابَه بثورة عنيفة في يوم من الأيام».

لا غرابة في أن قلةً من الأفراد شيَّعوا علي الوردي إلى مثواهُ الأخير عام خمسة وتسعين، وشيعوه وهم يجازفون بسلامتهم الشخصية. فهذا الرجل عاش حياته ينصحُ السلطة ويعارضُها بقوة الفكر وحده.

كأنما كان علي الوردي يكتب للأجيال اللاحقة. كلَّما مرت السنوات ازداد تعلق الشباب بأفكاره وتكاثرت طَبَعات كتبه.

عبد الرحمن بن خَلدون

رمَّمت تونُس لعبد الرحمن بن خَلدون بيتًا، ونصبت له تمثالًا، حتى يكون تونُسيًّا. وهو تونُسي المولد، واستقى علمَه في تونس. وهو أيضًا يمانيٌّ حضرمي الأصول، ونصفُ العرب ينتسبون إلى اليمن. ولكنه نال شهرةً في العالم كله، ووصفه كثيرون في الشرق والغرب بأنه مؤسسُ علم الاجتماع. مضت على وفاته أكثرُ من ستِّمئة سنة وما زالت نظَراتُه في المجتمع والحضارة موضعَ نقاش.

لقد تغيرت الدنيا، وجاءت التكنولوجيا لتهزَّ بعضَ مسلمات ابن خَلدون. نقرأُ له فصلًا عنوانه «في أن الأمم الوحشية أقدرُ على التغلُّب، ممَّن سواها»، وفيه يقول إنَّ البدوَ الذين يعانون شظف العيش يغلبون الأمم المتمدنة. ويسوق

الحججَ من عالم الإنس، ومن عالم الحيوان أيضًا. غير أننا نشهدُ اليوم كيف أن التكنولوجيا والعلمَ الحديث جعلا أممَ التمدن هي الغالبة.

الكتاب الذي يضمُّ فكرَ ابن خَلدونَ الاجتماعي والسياسي هو المقدِّمة. هي مقدِّمةٌ ضخمة تقع في مئات الصفَحات. وهي حقًّا مقدمة لكتاب أكبرَ منها. فقد كتب ابن خلدون كتابًا في التاريخ وضع له اسمًا عجيبًا. ثم جعل له مقدمة. وكاد الناس يُهملون الكتاب لفَرط تعلقهم بمقدمته، فطبعوها وحدَها. غير أن الكتاب بقيَ على الزمن، وطُبع مرارًا، وأما اسمُه العجيب فهو كتاب العِبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

يصف ابن خَلدون العرب عمومًا، والبدوَ خصوصًا، بأنهم معادون للعمران، ومخربون للحضارات. وهو إنما اجترأ على ذلك لأنه عربي حضرمي، وقد فصَّل نسبه في كتابه الذي كتبه عن سيرته.

أسرتُه أندلسية فرَّت من الأندلس بعد سقوط إشبيلية بيد الإسبان. وفي تونس كان مولدُ عبد الرحمن بن خَلدون.

عمل ابن خلدون في السياسة والقضاء، وكان فقيهًا. وكان سياسيًّا محنكًا، وكان صريحًا عندما كتب سيرته، فوصف قلة وفائه للسلاطين الذين أنعموا عليه، كان رجل دسائس، وسُجن سنتين يستحقهما بجدارة. على أن ابن خلدون طاف بالبلاد، وعرف البشر على حقيقتهم. وتقوم شهرته على مقدمته، فهي تؤسِّس لعلم التاريخ وعلم الاجتماع. أعجبني جدًّا كتاب علي عبد الواحد وافي عن ابن خلدون. كتاب يشفي الغليل، ويقارع طه حسين بالكلمة الأكاديمية المؤدبة.

قال عبد الرحمن بن خَلدون:

• الناس في السكينة سواء، فإن جاءت المحن تباينوا.

• ظلم الأفراد بعضهم بعضًا يمكن ردُّه بالشرع؛ أما ظلم السلطان فهو أشمل، وغير مقدور على ردِّه، وهو المؤذن بالخراب.

• من قرأ القليل في الفلسفة اتجه في أغلب الأحوال إلى الإلحاد، ومن قرأ الكثير منها اتجه إلى الإيمان.

• شعور الإنسان بجهله ضرب من ضروب المعرفة.

• فاز المتملقون.

• إذا أردت أن تعرف الإنسان فانظر إلى من يصاحب؛ فالطباع يَسرق بعضها من بعض، ونحن نأخذ من طباع بعضنا بعضًا دون أن نشعر.

• قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير.

• الظلم مؤذن بخراب العمران.

• قمة الأدب أن تصغي بأدب إلى شخص يحدثك في أمر أنت تعرفه جيدًا وهو يجهله.

• الشعوب المقهورة تسوء أخلاقها.

• التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكنه في باطنه نظر وتحقيق.

• اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب.

• المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في سائر أحواله؛ لأنَّ الهزيمة توحي إليه بأنَّ مشابهة الغالب قوَّة يدفع بها مهانة الضعف الذي جنى عليه تلك الهزيمة.

• العصبية نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا.

• اتباع التقاليد لا يعني أن الأموات أحياء، بل أن الأحياء أموات.

• الاستبداد يقلب موازين الأخلاق، فيجعل من الفضائل رذائل، ومن الرذائل فضائل.

• العدل إذا دام عمَّر، والظلم إذا دام دمَّر.

• للبقاع تأثير على الطباع، فكلما كانت البقعة من الأرض نديَّة مزهرة أثَّرت على طبع ساكنيها بالرقَّة.

• اللغة أحد وجهي الفكر، فإذا لم تكن لنا لغة تامة صحيحة، فليس يكون لنا فكر تام صحيح.

وقال ابن خَلدون: «الدنيا مطية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول».

عام في ذاكرتي

عامُ ١٨٨٩ له في ذاكرتي مكان مميز. فقد اعتنيت بالتاريخ، وعرفت أن الثورة الفرنسية احتفلت بعيد ميلادها المئة في هذا العام، كان احتفالًا مشهودًا أقامت فرنسا له برجًا. ففي هذا العام ولد برج إيفل، ومعه ولد هتلر، ورأى هتلر برج إيفل وتصور عنده بعدما احتل باريس. وقبل أن يطرد الحلفاء جنوده من باريس أمر هتلر بنسف برج إيفل، لكن الجنرال الألماني ديتريش فون كولتيتس فضَّل أن يستسلم للحلفاء، وبقي البرج.

واعتنيت بأدبنا العربي فعرفت أن عباس العقاد ولد في هذا العام، ١٨٨٩، ولم ير العقاد برج إيفل، صاحبنا كان ذا ثقافة سكسونية، غير أنه لم يسافر إلى إنجلترا التي كتب عن أدبائها بضع مئات من الصفحات. سافر إلى فلسطين وألقى أحاديثَ من إذاعة القدس، وسافر إلى السودان فِرارًا من وجه الفيلد مارشال إرڤين رومل الألماني، الذي كان يدق باب مصر لولا أن هُزم في العلمين. وسافر العقاد إلى الحجاز. ورآهم لا يستعملون مكبِّرات الصوت في الحرم المكي. وسأل فقال له مسؤول التشريفات: «هذه بدعة»، وكان يرتدي نظَّارة. فقال العقاد: «النظَّارة التي ترتديها توضح الصورة، وهي ليست بدعة، فوضحوا لنا الصوت بالمكبِّرات».

وفي هذا العام ولد طه حسين، وكان مربوطًا إلى فرنسا بمطَّاطة، لا يكاد الصيف يحل حتى يرتحلَ إليها مع زوجته سوزان. وأما أنه رأى برج إيفل فهذا كان يستلزم نظارة أقوى من نظارة صاحب العقاد الحجازي. قد أنصفه نزار قباني عندما قال: «ارمِ نظَّارتيك ما أنت أعمى». وبين العقاد ذي الثقافة السكسونية وطه حسين ذي الثقافة اللَّاتينية قامت معركة أدبية لطيفة. وكانا كلاهما من أعمدة الأدب العربي.

وفي هذا العام ولد إيليا أبو ماضي، ولم يكن صاحب لغات، ملأت العربية عليه حياته، وتزوج امرأة عربية رغم أنه قضى عمره في أميركا. واكتفى من الإنجليزية بأن سمى أولاده الثلاثة أسماءً إنجليزية: ريتشارد وإدوارد وروبرت.

وفي هذا العام ولد ميخائيل نعيمة في لبنان. هذا قبل أن يحاولوا فرنَسَة لبنان، على أن أهلَه أرسلوه إلى المدرسة الروسية في الناصرة بفلسطين، ثم ذهب إلى روسيا فعرف الروسية وكتب فيها شعرًا. ومنها إلى أميركا فعرف الإنجليزية وكتب بها كتابَه مرداد. كان صاحب لغات، وكانت عربيتُه تسيل رقة وفصاحة.

وفي هذا العام ولد تشارلي تشابلن في أحضان البؤس وتعلم في مدرسة المشردين في لندن، وجعلته عبقريته رمزًا للسينما: صامتةً وناطقة. كان يكتب السيناريو ويؤلف الموسيقى ويخرج أفلامه بنفسه، وبالطبع يمثِّل فيها. وتصدى للفاشية، وهجا الرأسمالية الجامحة ضاحكًا ثم جادًّا، لم يرض لنفسه أن يكون المهرج فقط. فحققت معه المباحث الفدرالية في أميركا التي لم تمنحه أبدًا الجنسية، فهجرها ليموت في سويسرا.

وفي هذا العام ولد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة بالجزائر. قال له شيخه: «ادرس العلم للعلم، لا للوظيفة». وقال له: «لا تعمل مع الفرنسيين». فلم يتفرنس بن باديس، بل توجه إلى جامع الزيتونة بتونس فتلقى عن مشايخه، وخاصة الطاهر بن عاشور، ثم طوَّف في البلاد حتى وصل إلى

الحجاز، وعزم على البقاء في المدينة المنورة، لكن شيخه هناك قال له: «بلدك يتفرنس فاذهب إليه،» وذهب، فكان لعبد الحميد بن باديس من الأثر في الجزائر ما لم يكن ليكون لو أنه بقي في المدينة المنورة.

الطواويس

في الستينات اجتمع ثلة من أهم أدباء ومفكري مصرَ في بيتِ طه حسين. جمعتهم المذيعة المتألقة ليلى رستم: يوسف السباعي، عبد الرحمن بدوي، نجيب محفوظ، أنيس منصور، محمود أمين العالم. كانوا عشَرة.

بعث إليَّ صديقي جورج كدر برابط اللقاء، فقلت له: «شاهدته مرتين؛ مرة على التلفزيون في إحدى الإعادات، ومرة على النت». وعلّق صاحبي: «ألا تراه جالسًا بينهم كالطاووس؟»

أقول: أولًا أساء طه حسين إلى ضيوفه، عندما بدأ اللقاء بلوم المذيعة لأن العدد المتفق عليه كان أقل ممن حضروا فعلًا، وثانيًا دار اللقاء كلُّه على عموميات، وافتقد إلى الحرارة، وكان مملًّا. العلة في الطاووس لكنها أيضًا في ضيوفه الذين راحوا يسألون بتهيب شديد، وبتعظيم مبالغ فيه للرجل.

سأنقلك نقلة مفاجئة إلى جان بول سارتر: عندما رفض جان بول سارتر جائزة نوبل قال للمذيع إنه يرفض التنويهات الرسمية، ولا يريد أن يتحول إلى مؤسسة.

موقف طه حسين الطاووسي لا يختلف كثيرًا عن موقف سارتر، رغم البون الظاهري. طه حسين يحتمي من المتطفلين على وقته داخل قوقعة من تبجيل الذات يحيط بها نفسه. وسارتر يحمي نفسه من التحول إلى مؤسسة، يريد أن يظل فردًا.

هذا لم يمنع سارتر من أن يتبنى فرانز فانون ويكتبَ له مقدمةً طويلة لكتابه معذبو الأرض. وهذا لم يمنع طه حسين من أن يكتب عن الفقراء كتابًا ممتعًا، واسمه يتفق من اسم كتاب فانون، اسمه المعذبون في الأرض.

سألتُ مرة الموسيقار مرسيل خليفة عن صديقه الشاعر محمود درويش: «لم هذا التعالي؟» قال مرسيل: «بل هو خجول، وغيرُ متكبر، بالتعالي يجعل بينه وبين الناس ستارًا، كي يحافظ على قوقعته الضرورية للإلهام الشعري».

يسألني الناس عن المشاهير الذين عرفتهم في زمني. وأخيِّبُ أملهم في الجواب لأنني لم أعرف من المشاهير معرفة شخصية إلا قليلين. ويسألونني عن المذيعين المشهورين. وهؤلاء عرفتهم. وبما أنني تحولت من الراديو إلى التلفزيون في آخر العمر فقد صرت خبيرًا بنفسية المذيع.

رأيت نفسية مذيع التلفزيون عن قرب أول مرة في مبنى تلفزيون البي بي سي الضخم في وايت سيتي بلندن. كنت أحضر دورة تدريبية في عام أربعة وتسعين تمهيدًا لفتح محطة تلفزية عربية من البي بي سي. رأيت المذيعَ قاعدًا في الاستديو كالطاووس، وحوله عشراتُ المحررين والمصورين والفنيين، بعضُهم في الاستديو وبعضهم في غرفة المتابعة. كلهم في خدمة هذا الشخص الذي هو وجه المحطة. هو وحدَه من سيدخُلُ ملايينَ البيوت. هو وحدَه من يمثلُ المحطة، ومن يمثلُ الرأي العام. قلت في نفسي: لا جرم، سيُحسُّ هذا المخلوق بنشوة العظمة.

وعندما أقعدني الزمنُ في شيخوختي في استديو تلفزي رأيتُ مهندسَ الصوت يمسِكُني من أُذني كما يمسكني الحلاق ليزودني بسماعة، وبالطبع لهم حيلة في إخفائها فلا تراها الكاميرا، وسمعت في هذه السماعة صرَخاتِ المخرجِ وهو يأمُرني بأن أخلعَ الساعة حتى لا ترتطم بالمنضدة، وبألا أتحرك كثيرًا وبأن أنظر في هذا الاتجاه ثم في ذاك. صبرت على هذه السماعة في الأذن اثنتين وخمسين حلقة. ثم بعد ذلك خلعتها في ثلاث وثمانين حلقة أتممت بها مسيرة برنامجي سيداتي سادتي، واكتمل على مئة وخمس وثلاثين حلقة، استقلت خلالها ثلاث مرات، رُفضت اثنتان وأصررت على الثالثة.

بنجامين فرانكلين

ساكَنتُ رجلًا أميركيًّا في زمني، واتفق أن اشتريت من متجر كتبٍ مستعملة كتابًا من نوع الأومنيبوس، وهذا الضرب من الكتب يحتوي على تشكيلة من مؤلفات كاتب معين. كتابي كان يضم فصولًا لبنجامين فرانكلين.

بنجامين فرانكلين من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة. كان طابعًا للكتب ومؤلفًا وعالمًا، وكان مخترعًا. ما كانت ناطحاتُ السحاب لتكون لولا مانعةُ الصواعق التي اخترعها بنجامين فرانكلين. وإن كنت جلست في معهدك أو مدرستك إلى كرسي التصقت به منضدته، فهو من بنات أفكار بنجامين فرانكلين.

أقول: رحت إلى البيت ومعي كتابي المستعمل، وتصفحته فعثرت على عبارات جميلة. ناديت زميلي الأميركي وقلت له اسمع! وأخذت أردد عليه بعض العبارات. وفاجأني. ما كنت أقرأ الكلمة أو الكلمتين من العبارة إلا أتمها، وما زال هذا دأبه ودأبي، حتى وجدتني أقول له: «أنت تحفظ كلَّ كتب الرجل؟» قال لي: «كل أميركي يعرف هذه العبارات أو معظمَها».

أصبحت أقوال بنجامين فرانكلين -الذي مات قبل مئتين وثلاثين سنة- أمثالًا وحكمًا في أميركا. وبعض كتبه، مثل: ريتشارد الفقير، ومذكراتي تشبه عندهم

«كتاب المحفوظات». لقد تحيَّرت وأنا أختار لكم بعض أقوال بنجامين فرانكلين:

• أخبرني وسأنسى، علِّمني وسأتذكر، وشغِّلني فسأتعلَّم.

• الضيف كالسمكة تفوح رائحته بعد ثلاثة أيام.

• بعضهم يموتون في سن الخامسة والعشرين، ويُدفنون في الخامسة والسبعين.

• إن لم نتعلق جميعًا: أحدَنا بالآخر، سنُعلَّقُ فرادى.

وكان فرانكلين يحارب ضد الإنجليز في حرب الاستقلال الأميركية.

• إن كنت تحب الحياة فلا تهدر الوقت. الوقت هو الخيوط التي يصنع منها نسيج الحياة.

• البارع في اختلاق الأعذار لا يكون بارعًا في أي شيء آخر.

• عندما تنتهي من التغير.. تنتهي.

• أنصاف الحقائق هي غالبًا أكاذيب كبرى.

• الذي يقع في حب ذاته لن يجد منافسًا.

• إذا كان الشغف حصانَك، فلتكن الحكمة مقودك.

• الخبث سلاح الحمقى.

• لا تخلط بين كثرة الحركة وبين الفعل.

• فاتورة الحرب تأتي لاحقًا.

• من معجزات الله سبحانه: محامٍ صادق.

• فلَّاح بين محاميَّين؛ سمكة بين قطَّتين.

• الغضب له دائمًا سبب، ونادرًا ما يكون سببًا مقنعًا.

• عين المسؤول تفعل أكثر من يديه.

• الإعجاب وليد الجهل.

• الذي يظن أن المال يصنع له كل شيء، يصنع كل شيء من أجل المال.

• أسوأ عجلة في العربة تصدر أعلى ضجيج.. كذا الناس.

• الذي صنع معك معروفًا قد يصنعه مجددًا، والذي صنعت معه معروفًا.. في الغالب لن يردَّه.

• الرجل العظيم فاضل بالضرورة.

• القوانين اللينة لا تُطاع، والقاسية لا تُطبَّق.

• إن عرفت كيف تنفق أقل مما تكسب فقد عثرت على الحل السحري.

• فكِّر فيها: هل خدعك أحد قطُّ، بأكثر مما خدعت نفسك؟

• متى سيقتنع البشر بتسوية خلافاتهم بالتحكيم؟

• نسمِّيهم متوحشين فقط لأن عاداتهم تختلف عن عاداتنا.

وقال بنجامين فرانكلين: «عندما يموت الزوج فآخر عضو فيه يسكن قلبه، والزوجة لسانها».

رينوار

أوغست رينوار من أقطاب الاتجاه الانطباعي في الرسم. ولد في عام ١٨٤١، لأبوين متوسطَي الحال.

لوحةُ حلبة الرقص لرينوار خير مثال على المدرسة الانطباعية، الخطوط قليلة، الأشكال يذوب بعضها في بعض. كانت هذه اللوحة صدمة جميلة للمجتمع الفني في باريس. حجمها كبير فالعرض يقارب المترين، وهي مكتظة بالأشخاص اكتظاظ الحياة بهم. والمساء تُبدد ظلمتَه مصابيحُ كانت جديدة آنذاك في أواخر القرن التاسع عشر. هناك أنس وبهجة واسترخاء. ظل رينوار يغشى هذا المكان ثلاثة أشهر ويراقب، ويصنع الرسوم الأولية بالقلم. وبعد ذلك ملأ اللوحة بوجوه ناس يعرفهم، بعضهم من زملائه الفنانين.

كان رينوار يرسم مع صديقه مونييه، ويتسابقان في نسف التحديد عن الشخوص ليكون اللون هو ما ينقل الانطباع ويصور الضوء.

الاتجاه التعبيري ثورة على الرسم الدقيق الشبيه بالصور الفوتوغرافية. والسبب في نشوء هذا الاتجاه واضح: لقد تم اختراع الكاميرا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، فلم يعد للرسام قدرة على منافستها. حسنًا، فليرسم إحساسه، ليرسم المنظر كما شعر به. فهذا شيء لا تُحسنه الكاميرا. فماذا عن الوجوه؟ أحيانًا يرسمها رينوار بوضوح لا بأس به حتى ليُمكنك أن تميز الأشخاص. بعد انطلاق الطريقة الانطباعية ورسوخها كان رينوار يحنُّ إلى المدرسة القديمة، خصوصًا بعد زيارة له إلى إيطاليا، رأى فيها لوحاتِ الكلاسيكيين الكبار.

في لوحة الشماسي -وهي من أحب اللوحات إلى نفسي- ثمة شيءٌ غريب: نصف اللوحة انطباعي ونصفها تتميز فيه الملامح بخطوط واضحة. وحديثًا أظهر التصوير بالأشعة لِلَّوحة أن نصفها كان انطباعيًّا ولكن رينوار طمسه وأعاد رسمه.

بدأ رينوار عاملًا في مصنع سيراميك يلوِّن الأكواب والمزهريات، وتعب حتى وصل إلى عرض لوحاته في معارضَ محترمة. وفي حياته حقق شهوته بأن تعرض لوحاتُه في اللوفر الذي كثيرًا ما ارتاده ليتعلم من لوحات كبار الرسامين.

في آخر سنيه أقعدته الرَّثيَة أي الروماتيزم. وأخذ يرسم بريشة مربوطة إلى يده. ثم عجز عن ذلك فأخذ يصف للنحَّاتين أمورًا يصنعون منها التماثيل. مات أوغست رينوار قبل أن يصل إلى الثمانين بقليل، وخلَّف أبناء وأحفادًا عملوا في الفن. رسم رينوار أكثرَ من أربعة آلاف لوحة.

بيتهوڤن

في مدينة صغيرة بألمانيا ولد بيتهوڤن. قُدِّر لهذه المدينة أن تصبح مشهورة مدةَ أربعينَ سنة، إنها بون عاصمة ألمانيا الغربية قبل الوَحدة. رغم أنها تقع على جانبي نهر الراين ظلت بون مدينة مملة، وخصوصا عندما أصبحت عاصمة، فقد ارتفعت فيها المباني الجديدة لتستولي على بون القديمة. وتظل فضيلة بون الكبيرة أنها البلدةُ التي وُلد فيها بيتهوڤن وعاش حتى الثانية والعشرين من عُمره.

في زمن بيتهوڤن كانت ألمانيا عبارةً عن دويلات لا يجمعها سوى اللغة الألمانية، وكانت النمسا إلى الجنوب إمبراطورية، وتتحدث بالألمانية. واجتذب بريق ڤيينا عاصمة الإمبراطورية الشابَّ لودڤيغ فان بيتهوڤن فانحدر إليها. وتعلم قليلًا على يد الموسيقار هايدن. ولكنه سَرعانَ ما بدأ ثورته التي نقلت الموسيقى الكلاسيكية من حال إلى حال. قبل بيتهوڤن كانت الموسيقى الكلاسيكية تخاطب الآذان بمنطق واضح وتراكيبَ رصينة. وجاء بيتهوڤن فملأها بالمشاعر الجياشة. ولقي في ڤيينا تقديرًا عاليًا. عندما كان يقيم في قصر أحد الأمراء، قال الأمير لخادمه: «إذا قرعت لك الجرس، وقرعه بيتهوڤن في الوقت نفسه، فاذهب إلى بيتهوڤن أولًا». وبدأ الصمم يزحف إلى بيتهوڤن، كان ثائرًا على الدنيا والناسِ قبل الصمم، وازداد غضبًا بعد أن اكتمل صممُه. كان لديه بوق يضع طرفه في أذنه ليسمع كلام جلسائه. ولم يعد هذا كافيًا فاتخذ دفاتر يكتب له فيها جلساؤه ما يريدون. وبقيت بعض هذه الدفاتر، فهي سجل لما حدَّثه به الناس، فأما ما قاله هو فليس مسجلًا، كان يقوله نطقًا بالطبع.

مات بيتهوڤن عن سبع وخمسين سنة، وقيل إن جنازته خرج فيها خمسون ألفًا. هذا مدى تقدير ڤيينا للفن قبل نحو قرنين من الزمان.

بيل برايسون

نتحدث عن كاتب أعلنها صريحة في أواخر السنة الأولى لكورونا: «ألقيتُ القلم وتقاعدت. لا أريد اكتشاف شيء جديد، أريد أن أستمتع بوقتي».

بيل برايسون بلغ الآن السبعين. وكتب واحدًا وعشرين كتابًا. هو رجل أميركي عاش معظم عمره في إنجلترا، وتزوج وأنجب والتوى لسانه بلكنة بريطانية. أنا أصف أسلوب برايسون بجملة: ليس عنده سطر يخلو من بريق. قرأت كل كتبه. ومنها ما لا يستهويني موضوعه، لكن هو الأسلوب الأخاذ.

قال بيل برايسون:

• نسينا كم كان العالم مظلمًا قبل الكهرباء. تخيلوا أن مئة شمعة كانت ضرورية لتعادل لمبة في السقف.

• الاختراع المعجزة بالنسبة إليَّ اللابتوب.

• أذا أردتَ أن تصنع فرقًا في الحياة ركز طاقاتك في بؤرة.

• هناك ثلاثة مستحيلات: أن تغلب شركةَ الاتصالات، وأن تجعل الجرسون يراك، وأن تعود من جديد إلى وطن فارقته.

• الناس يبنون الحضارات، ونحن في أميركا نبني المولات.

• لستَ بحاجة إلى شهادة في العلوم لتفهم العلم، فكِّر!

• في العالم ثلاثُمئة مليون يتحدثون الإنجليزية، البقية يحاولون.

• السر الوحيد في الكتابة الناجحة أن يكون هناك من يستعد لدفع المال مقابل ما تكتب.

• أنا خيبةُ أمل لمن يجالسونني، يظنون أنني ذلك الشخص الذي يتجلى في كتبي. أنا شخص آخر.

• لستُ قاصًّا بالفطرة، ضع أمامي اللابتوب وسأقص، فإن وقفت أمام جمهور ارتبكت وتلعثمت.

• ثلاثة وتسعون بالمئة مما نأكل يأتي من ثلاث عشرة نبتة، وفي العالم ثلاثون ألف نبات صالحٍ للأكل.

• أأنا الوحيد الذي يستغرب من أن أمَّة اخترعت الورق والبارود، وكان لها تاريخ عريق، لم تخترع أداة لالتقاط الطعام أحسنَ من عودين؟

تشارلي تشابلن

أن تكون يساريًّا، أو أن تحوم حولَك شبهة بأنك يساري في أميركا الخمسينات مشكلة كبيرة. كانت أميركا مرعوبةً من انتشار الشيوعية في العالم.

لم يكن تشارلي تشابلن الكوميدي الأميركي يساريًّا، ولا شيوعيًّا. كان إنساني النزعة. نقول أميركي لأنه صنع مجده السينمائي في أميركا، لكنه بريطاني المولد، ولم يحمل الجنسية الأميركية طَوال حياته التي امتدت ثمانية وثمانين عامًا.

تشارلي تشابلن أكبر من أدولف هتلر بأربعة أيام فقط. وله الشاربُ نفسه. وعندما كان الرجلان في الحادية والخمسين من العمر، كان هتلر يغزو أوروبا ويرتكب الفظائع، وكان تشابلن أشهر ممثل في العالم. وقرر تشابلن أن يسخر من لِدَّته.

في فيلم الدكتاتور الأكبر حطَّم تشابلن قواعد فن السينما عندما ألقى في ختام الفيلم خطبة مدتها خمسُ دقائق. بدأ تشابلن حياته الفنية مع مولد الفلم الصامت، وعاش حتى رأى الفلم الملون. وتوفي عام سبعة وسبعين. قال تشارلي تشابلن:

• ما دمت تصر على النظر إلى الأسفل فلن ترى قوس قزح.

• أحب المشي في المطر حتى لا يرى الناس أنني أبكي.

• شخصية المرء الحقيقة تظهر وهو سكران.

• ما أكثر ما نفكر، وما أقل ما نشعر.

• عندما تبتسم سترى أن الحياة تستحق أن تعاش.

• لا تمنح جسدك العاري إلا لمن وقع في حب روحك العارية.

• ليكن ألمي سببًا في إضحاك الآخرين، ولكنني لن أضحك على ألم الآخرين.

• تحتاج إلى السلطة كي تؤذي، وإلا فكل شيء يمكن أن تفعله بالحب.

• ما أنا إلا مهرج، وهذا كاف لكي أكون أعلى قدرًا من أي سياسي.

• ما أجمل الحياة لو تركك الناس وشأنك.

• الحياة مسرحية، لكن بلا بروفات، فغنِّ وابك وارقص واضحك قبل أن يسدل الستار، بلا تصفيق.

• لو نظرت إلى تضخم الأنا عند الناس فسوف تعتقد أن كل شخص ملك مخلوع.

• اليأس مخدر يفضي بك إلى اللَّامبالاة.

• المرآة أخلصُ أصدقائي؛ لأنها تبكي عندما أبكي.

• لا صبر لي على فن يحتاج إلى شرح.

• اهتمَّ بضميرك أكثر من سُمعتك. ضميرك هو أنت، وسُمعتك هي ما يظن الناس أنه أنت، هذه مشكلتهم.

• إما أن نواجه عجزنا بإزاء قوى الطبيعة بالضحك، وإما أن نُجن.

• كلنا هواة، نحن لا نعيش بما يكفي لنصبح محترفين.

• عدوِّي الوحيد هو الزمن.

وقال تشارلي تشابلن: «كل ما أعرفه من السياسة أنني أومن بالحرية».

جيريمي باكسمان

جيريمي باكسمان أوقح مذيع مرَّ عليَّ في حياتي. كنت أراه في برنامج نيوز نايت الذي قدمه على مدى ربع قرن. مرَّ عليه كل سياسي من رئيس الوزراء فنازلًا. سأل وزيرٌ بريطاني زميله يومًا: «هل سبق أن تَبَكْسَمْت؟» (هاف يو بين باكسماند)، يعني: هل مررت بمحنة باكسمان؟ اشتقوا لتلك المحنة فعلًا من اسم الرجل. ولست من أشد المعجبين بباكسمان، على أنني رأيته في مبنى التلفزيون في وايت سيتي بلندن (وكنت هناك في شأن عارض)، رأيته واقفًا يشاهد التقارير مع مُنتِجه، ويسمع ملاحظات المنتج مطأطئ الرأس، كان الوقت عصرًا، وبرنامجه في الحادية عشرة ليلًا. عرفت أن الرجل يحضر برنامجه تحضيرًا ذريعًا.

وترك العمل في ذلك البرنامج مع حلول الشيخوخة. لكنه ارتضى بكل سرور أن يقدم برنامج سباق الجامعات على التلفزيون المحلِّي للبي بي سي. وأقول مستطردًا يعجبني المذيع الذي لا يَعدُّ نفسه فوق المهنة. لا أحب المذيع الذي يقابل كبار الشخصيات فيعتقد أنه صار منهم.

تلقيت درسًا مهمًّا عندما عملت في البي بي سي وكنت في أواسط الثلاثين من العمر. زميلي المصري قال لي: «أنا أقدم أي مادة يُطلب إلي تقديمها،

مهمتي أن أحسن الإلقاء، مهمتي أن أصنع من الفسيخ شربات». وزميلي الفلسطيني قال لي: «أنا أقرأ نشرة الأخبار بكل وقار، وبعد النشرة أقدم أغنية، لا مشكلة، مهنتي مذيع». وستظل النكتة المحببة لأبناء جيلي في تلك الإذاعة ما قاله أفتيم قريطم أحد المخضرمين. بعد أن قدَّم أفتيم نشرة الأخبار، رأى أمامه على الجدول أغنية لفريد الأطرش، فقال في تقديمها: «ما قالَ لي وقلتُ له، يا عواذل فلفلوا». قالها بالفصحى ومع التشكيل التام. وبعد خمس وخمسين سنة مع البي بي سي نشر أفتيم كتابًا عن العمَّة بي بي سي كما أسماها.

الأديب يعيش طويلًا بعد مماته، والمذيع يموت فور غيابه عن الشاشة.

جان بول سارتر

ننشد شعرًا لشاعر اليمن البردوني لأنه ذكَّرنا بقولٍ لسارتر، وسارتر هو موضوعنا. قال شاعر اليمن عبد الله البردُّوني:

البردُ أبردُ ما يكونْ

والليلُ أَسْهَدُ ما يَكونْ

وكأنَّ كلَّ دقيقة،

تبدو ملايـيـنَ الــقرونْ

وكأنَّ فوقَ مناكِبِ اللَّحَظاتِ،

جدرانَ السجونْ

وهناكَ ترتجفُ الكُوى

وهنا يجولُ المخبرونْ

والليلُ يَبتدِعُ التَّهاويلَ

الـــغــريـبـاتِ الـــفــنـونْ

فتخافُ جدرانُ المدينة

أن يُفيقَ الميِّتونْ

الصوتُ يحترفُ الخيانةَ

والسكوتُ كَمَنْ يخونْ

حتى الجذورُ مُدانَةٌ

بذنوبِ إِنجابِ الغصونْ

والليلُ مُسْتَلْقٍ كمَاخُورٍ

يُنَقِّرُ عن زَبونْ

من أيِّ نبعٍ أنتَ؟

من ياءٍ، ومن ميمٍ، ونونْ

الأرضُ نفسُ الأرضِ

لكنَّ الجحيمَ الآخرونْ

وعبارة «الجحيم الآخرون» اقتباس لطيف وافق القافية. هي من أقوال جان بول سارتر.

في الستينات من القرن الماضي كان سارتر أشهر فيلسوف في الدنيا. اقتات على كتبه المثقفون العرب. كانت كتبه تترجم إلى العربية أولًا بأول. هذا مع أنه كان يعبر عن مجتمع بعيد عنا وعن همومنا كل البعد. كان وجوديًّا، وكان طول حياته مترددًا بين الوجود والعدم. والوجود والعدم اسم كتابه الضخم الذي ترجمه عبد الرحمن بدوي.

تحدى سارتر مع صديقة عمره الكاتبة سيمون دي بوڤوار المجتمع، والساسة. وكان لهما أثر كبير في فرنسا وأوروبا عمومًا. أما عندنا فكانت لهما الشهرةُ عند المثقفين دون الأثر.

على أن أثر سيمون دي بوڤوار كان حاضرًا عندنا في كتابها عن المرأة الذي طبع عندنا مرارًا باسم الجنس الآخر: الوقائع والأساطير.

إذا عُدَّ فلاسفة القرن العشرين فلا شك في أن سارتر سيكون في العشَرة الأوائل. وكان إلى ذلك أديبًا غزيرًا، كتب الروايات والقصص القصيرة والمسرحيات. وأثار حوله الزوابع بمواقفه السياسية المناهضة للاستعمار، والمعارضة للحكومة داخل فرنسا. قال جان بول سارتر:

- بيدك أن تعطيَ الحياة معنى.
- محكوم على الإنسان أن يكون حرًّا؛ لأنه مسؤول عن كل ما يعمل.
- خير لك أن تموت على قدميك، من أن تعيش على ركبتيك.
- الحب يقتضي أن تملك الطاقة والسخاء والعمى.
- الساعة الثالثة عصرًا إما متأخرة وإما مبكرة لأي عمل تريد أن تعمله.

- الأغنياء يشنون الحرب، والفقراء يموتون.
- ربما يكون هناك زمن أجمل، لكن هذا هو زمننا.
- عرفنا كل شيء، باستثناء كيف نعيش.
- كل ما عرفته عن حياتي تعلَّمته من الكتب.
- الكلمات مسدسات محشوة.
- في الحب، واحد زائد واحد يساوي واحدًا.
- أحسست برغبة في الانتحار وما ثَناني أنني كنت على يقين من أن أحدًا لن يهمه موتي.
- إنهم يكذبون عليك، وأسوأ من ذلك أنهم لا يرونك جديرًا بالصدق.
- ديني الكتاب، ومعبدي المكتبة.
- لا أطيق فكرة أن هناك من يتوقع مني شيئًا. هذا يجعلني تواقًا إلى صنع العكس.
- كل كلمة لها أثر. وكل صمت كذلك.
- المرء إما أن يموت قبل أوانه، وإما بعد أوانه، ومع ذلك فيا للعجب، في لحظة الموت تكتمل حياته.
- عندما تفقد وهم الخلود ستفقد الحياة معناها.
- أصبحت أدرك أن جُلَّ مشكلاتنا نابعة من إخفاقنا في استعمال لغة بسيطة لا لبس فيها.
- حُكمك على الأشياء هو حكم عليك.
- عندما تسمع عن تفاصيل الانتصار تجده شبيهًا بالهزيمة.
- المشكلة في كرة القدم وجود فريق خصم.
- موتي هو استمرار حياتي، لكن بدوني.
- العدم كابوس الوجود.
- المرء لا يؤذي نفسه مباشرة، بل من خلال ما يصنعه للآخرين.
- لماذا لنا أجساد! هذا يدعو للاشمئزاز.
- لن يعكر التفكير في الموت حياتي. أتقبله بسكينة، فهو يعيد تعريف الحياة.

• كل منا يخفي في أعماقه سوداوية مخجلة تنتظر الموت بهدوء.

• عندما تكون وحدك فأنت مع صديق سوء.

وقال جان بول سارتر: «أكره الضحايا الذين يحترمون جلَّاديهم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضحايا الشارع

هؤلاء مشاهيرُ في الغرب قُتلوا في حوادثِ سَير. لا يجمع بينهم إلا هذا.

ألبير كامو

الأديب الفرنسي لم تصدِمه سيارة، بل كان يركب مع ناشره فاصطدمت السيارة بشجرة، فمات لساعته. الناشر مات بعد أيام. وأما زوجة الناشر وابنتُه، وكانتا في السيارة، فلم تصابا بأذى. وزوجة كامو وولده وابنتُه نجوا جميعًا، فقد عادوا إلى باريس بالقطار قبل الحادث بيومين.

ألكسندر دوبتشيك

رئيس تشيكوسلوفاكيا في زمن الحكم الشيوعي حاول التباعد عن موسكو، فأرسلوا الدبابات لقمع ربيع براغ. وعزلوه، وعينوه موظفًا في إدارة الغابات. ولما سقط الاتحاد السوڤييتي لقي دوبتشيك التكريم. بعدها بسنتين لقي حتفه في حادث سيارة.

غريس كيلي

نجمة هوليوود التي هجرت السينما لتصبح أميرة موناكو بزواجها من أمير موناكو. كانت تقود سيارتها وبجانبها ابنتُها، فأصيبت بسكتة ففقدت السيطرة، ولم تفلح ابنتُها المراهقة في توجيه السيارة على المنحدر. نُقلت غريس كيلي إلى المستشفى بإصابة بالغة. ودخلت في غيبوبة تامة، وأذِنَ زوجها الأمير رينيه بنزع الأجهزة الطبية رأفة بها فتوفيت فورًا. ولم يتزوج بعدها، ودُفن بجانبها بعد ثلاث وعشرين سنة. ابنتها ستيفاني أصيبت إصابة بالغة ونجت، وأصبحت مغنية وعارضةَ أزياء، وما تزال بيننا، وأخوها الشقيق هو ألبرت الثاني أميرُ موناكو الحالي.

ماريون لامبرت

بارونة زوجةُ بارون، اشتهرت بمجموعتها النادرة للصور الفوتوغرافية، وباعتها بنحو عشَرة ملايين دولار. لم تكن بحاجة إلى المال فزوجُها ملياردير وصاحبُ مصارف، لكنها حاولت تزيين مصرِفِ العائلة (بنك بروكسل لامبرت) الكائن في جنيڤ بصور من مجموعتها فوجد مدير البنك الصور صادمة، فباعتها. قتلت البارونة لامبرت قرب محطة شارع بوند بلندن. دهسها باص الخط رقم ٧٣. وكان عمرها ٧٣ سنة. لعلها أول بارونة يدهسها باص.

لورنس العرب: صحب توماس إدوارد لورنس العرب في ثورتهم على العثمانيين في أواخر الحرب العالمية الأولى خدمة لبلده بريطانيا. وبعد أن انتهى دورُه عاد إلى بريطانيا وكتب أعمدةَ الحكمة السبعة. تدهور بدرَّاجته النارية، وتوفي بعد ستة أيام. أحد الأطباء الذين أشرفوا عليه قبل الوفاة أجرى دراسات على حوادث الدراجات وكان من نتائج هذه الدراسة فرضُ ارتداء الخوذة.

البارون تيلور

عضو مجلس اللوردات البريطاني، كان رجل أعمال، ولتضارب المصالح جُمِّدت عضويته في المجلس. سابقةٌ لم تحدث منذ أربعة قرون. في إحدى السنين طالب بما يعادل سبعينَ ألفَ دولار نفقةً لأنه في تلك السنة حضر خمسَ عشرةَ جلسةً لمجلس اللوردات، فكسَر بجشعه هذا رقمًا قياسيًّا آخر. في السابعة والثمانين من عمره امتطى كرسيه الكهربائي وتوجه إلى المجلس، وبقرب مبنى البرلمان دهسه سائق شاحنة فقتله. أقر السائق بأنه كان متهورًا فحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ.

زولوتاريف

عالم الرياضيات الروسي إيغور إيڤانوڤيتش زولوتاريف قتل قبل اختراع السيارة. كان متوجها إلى بيته الريفي عندما صدمه قطار عند المحطة.

مارغريت ميتشيل

هذه الروائية الأميركية معروفة عالميًّا بروايتها ذهب مع الريح. كانت تعبر الشارع بصحبة زوجها فدهسها سائق سكران، ونجا زوجها. يبدو أنها كانت من أولئك النسوة اللائي يسبق أزواجهن. كنا ننتقد الرجل الذي يسبق زوجته ويتركها تسير خلفه. لكن من النساء من يفعلن ذلك. البشر ثلاثة أنواع: نوع يريدك أن تتبعه، ونوع يحب أن يكون تابعًا، وهؤلاء جميعًا مستريحون. ونوع ثالث يصر على التكافؤ، وهؤلاء هم المتعَبون في الحياة.

ديوجين

هذه قصة فيلسوف لم يكتب شيئًا، هو يوناني، ونبدأ القصة من تركيا. نرى في مدينة سينوب التركية على البحر الأسود تمثالًا لبرميل يقف فوقه رجل يحمل مصباحًا. في سينوب ولد ديوجين. وأسَره القراصنة وحملوه إلى كورينث بجنوب اليونان وباعوه.

عاش حياته فقيرًا يتسول. وكان ينام في برميل في السوق. فها قد عرفنا قصة البرميل الذي في التمثال.

عاش ديوجين طويلًا، وكان يمشي في الطرقات صباحًا وبيده مصباح، يقولون له: «ولم المصباح؟» فيقول: «أبحث عن إنسان صادق». كان ربما حضر دروس أفلاطون، وكان لا يبالي أن يأكل في أثناء الدرس، وكان يقاطع الفيلسوف الكبير. ديوجين لا يؤمن بالمثاليات، ويرى أن البشر مجبولون على الخُبث.

قيل إن الإسكندر الأكبر زاره في كورينث، وقال له: «ما تطلب؟» فقال: «تنحَّ قليلًا فقد حجبت عني ضوء الشمس». وزعموا أن الإسكندر قال بعدئذ: «لو لم أكن الإسكندر لودِدت أن أكون ديوجين».

وِل ديورانت

قصة الحضارة كتاب يقع في أربعين جزءًا في الطبعة العربية. بدأ الأميركي وِل ديورانت بكتابته عام ١٩٣٥، وأتمَّه بعد أربعين عامًا. كتب نصفَ المجلداتِ وحده، ثم شاركته زوجته آرييل في النصف الباقي.

أراد ديورانت أن يكتبَ التاريخ الثقافيَّ والحضاري للعالم. فجاء كتابُه مليئًا بآلاف النوادر والحكايات عن أهل العلم والفن والأدب والدين. وكان المؤلفُ وزوجتُه يسافران أشهُرًا في كل سنة، فلا يكتبان عن حضارة إلا بعد أن يعيشا المكان.

صدر الكتابُ منجَّمًا في الإنجليزية، وكانت أجزاؤُه تترجَمُ إلى العربيَّة أولًا بأول، ويجد المرء فيه وصفًا للحضارة السومرية والفِرعونية ولحضارة الهند واليونان وأوروبا وصولًا إلى عصر نابليون. وقد وصف وِل ديورانت الحضارةَ الإسلامية في نحو أربعمئة صفحة، وهذا يعطيك فكرة عن سَعة وشمول كتاب قصة الحضارة.

يلمَسُ القارئُ بسهولة أن هذا الكتاب، رغم ضخامته، قد كتب بحب. ولعل مبعثَ هذا أن الزوجين عاشا قصة حب دامت ستين سنة.

عندما دخل وِل ديورانت المستشفى وهو في السادسة والتسعين امتنعت زوجتُه عن الطعام، وماتت. وكتمت ابنتُهما الوحيدةُ الخبرَ عن أبيها، ولكنه عرف الخبر من صحيفة المساء. ومات بعد زوجته بأسبوعين.

قصة الحضارة هو قصةٌ بالفعل. أسلوبُه أسلوب القصة، هذا سبب شهرته، وسبب جودته.

المشنوقة

لكل جيل راقصاته. أنا لست من جيل فيفي عبده ولا دينا. أنا من جيل نجوى فؤاد. على أنني لا أتذوق الرقص الشرقي، ولا الغربي، ولا الباليه ولا الصالصا. ولا الرقص التعبيري.

يقولون إن أعظم راقصة غربية تعبيرية هي الأميركية إيزادورا دَنكان (١٨٧٧ - ١٩٢٧). وميتتها أشهر منها. ماتت ميتة غريبة. افتح غوغل واكتب إيزادورا دنكان، وستجد كل المواقع تذكر لك كيف ماتت قبل أن تقول أي شيء آخر.

جعلت إيزادورا دنكان من الرقص فلسفة، وتعقبت نقوش اليونانيين وارتدت أرديتهم، قيل عنها إنها أم الرقص الحديث. فتحت مدارس للرقص التعبيري في أوروبا الغربية وفي روسيا السوڤييتية، كانت إيزادورا دنكان يسارية. هجرت الباليه لأنه رقص غير طبيعي، وأرادت لجسمها أن يعبر عن روحها. لكنها رقصت في أشهر مسرح للباليه في الدنيا وهو البولشوي في موسكو، رقصت مع مئة من تلميذاتها على أنغام النشيد الأممي للحركة الشيوعية العالمية. وحضر الحفل ڤلاديمير إيليتش لينين زعيم روسيا الشيوعية.

ذات مرة كانت تريد أن تركب الباخرة الفاخرة لوزيتانيا، ولكن وضعها المالي جعلها تختار سفينة أخرى. وأُغرقت لوزيتانيا بطوربيد ألماني عام ١٩١٥ ونجت إيزادورا. وقبل سنوات كان أبوها وزوجته الثالثة وابنه قد غرقوا جميعًا في باخرة. لا شك أن إيزادورا شكرت الرب أن لم تكن معهم، فلم تمت تلك الميتة الفظيعة، غرقًا.

في سنواتها الأخيرة كانت غارقة في الديون. رأتها زيلدا فيتزجيرالد، الروائية الأميركية الاشتراكية، جالسة إلى منضدة مقهى باريسي على الرصيف وعيناها غائمتان وهي سكرى، وتراقب الناس الذين عرفوها ووقفوا يؤدون التحية. كل ما فعلته الروائية الاشتراكية زيلدا أنها سرقت الـمِملحة من منضدة الراقصة المشهورة.

وفي نيس بجنوب فرنسا، في عام ١٩٢٧، كانت إيزادورا دنكان تترجل من سيارة، فعلِق وشاحها بباب السيارة عندما أغلقته، ومضى السائق بسيارته غير منتبه، فماتت شنقًا. كانت في الخمسين من العمر. لقد حركت جسمها طول عمرها في كل اتجاه، وعجزت -عندما وقع المقدَّر- عن أن تحركه خارج الأنشوطة.

غبرييل شانيل ولغز الرقم خمسة

توفيت غابرييل شانيل، المعروفة بكوكو شانيل، قبل خمسين سنة. وشهرتها كمصممة أزياء أنها بتصاميمها حررت المرأة من الملابس التقليدية التي تضغط جسمها. عندما اختارت مجلة تايم الأميركية أكثر الأشخاص تأثيرًا في القرن العشرين كان بينهم كوكو شانيل.

عندما احتل الألمان فرنسا في الحرب العالمية الثانية كانت كوكو شانيل من المتعاملين مع المحتل. وقد كلفت بإيصال رسالة سلام من الألمان إلى رئيس وزراء بريطانيا تشرتشل.

وانتهت الحرب بهزيمة الألمان وحقَّق الفرنسيون معها بعد التحرير، ولكن التحقيق أُغلق بلا تهمة، بتدخل من تشرتشل. ثم بعد موتها بسنوات أُفرج عن وثائقَ أدانتها. المشهور عن هذه السيدة الفرنسية اليوم العطرُ الذي يحمل اسمها.

(شانيل رقم خمسة)، ليس (خمسة) فقط بل (رقم خمسة). ليس أنيقًا أن يكون في اسم أي عطر كلمة رقم، فكأن الاسم بند من البنود. فما السبب؟ كوكو شانيل كانت مجنونة بالرقم خمسة منذ طفولتها، كان يمثل لها الكمال والاكتمال.

أرادت مصممة الأزياء المشهورة أن يكون في الدنيا عطر يحمل اسمها. عرض عليها الكيميائي الروسي الذي أشرف على تركيب العطر عشَرة نماذج مرقَّمة لتختار منها. لم تُتعب السيدة كوكو خياشيمها، اختارت رقم خمسة فورًا. نزل هذا العطر إلى السوق في عام ١٩٢١.

أقوال مأثورة

هل الأقوال المأثورة لطلبة المدارس فقط؟

لا، أبدًا، إطلاقًا.

بل هي تلخص مواقف في العيش تلخيصًا عبقريًّا في بعض الأحيان. إنها مقالات صغيرة، طريفة أو مضحكة أو مبكية.

خذ هذا القول المأثور: «النمَّام يُخرج منك الكلام بالمناقير»، وفكر فيما يجري معك في حياتك. فعلًا النمَّام يتلَطَّف بك، ويسايرك، ويمُصُّ لسانك كما يقولون، وبعد ذلك يتاجر بك إمَّا كي يتسلَّى، وإمَّا كي يشمت. ولكن المجالس لا تحلو بغير قدر من الزَّهزَهة. النميمة ريحان المجلس. تقول كلامًا وتسمع كلامًا. فإن بالغت في الحذر لفَظَك المجلس، وإن بالغت في الإفصاح أتاك الصداع بعد انفضاضه.

كان جورج برنارد شو من كبار النمَّامين. كان يحضر لقاءات «الجمعية الفابية». وهذه لقاءات اجتماعية يعقدونها في منزل ريفي ويقضون أيامًا. وبعد انتهاء اللقاء يكتشف كل من تحدث إلى هذا المسرحي العجوز أن أسراره صارت معلومات عامة. كان يصنع ذلك ببراءة وباحتراف أيضًا. كان يتاجر بأسرار الناس للتسلية.

المشكلة في الفضفضة التي تتم في مجلس عامر أنك لا تستطيع التنصل مما قلت، فالشهود كثر. وقد قلت يومًا عن شخص إنه ثقيل بغيض، قلتها في مجلس منذ بضع سنين. وما زلت حتى اليوم أتحسَّب أن يصله كلامي. ما زلت أعيش تحت سيف ديموقليس. يحسُن بي من الآن فصاعدًا أن ألتزم بعض الحذر. فإذا أردتُ أن أغتاب شخصًا فلأصنع ذلك بأناقة: لأقل مثلًا إنه شخص يعرف للقرش قيمته، لكنه دائمًا يبادر إلى دفع الحساب عن رفاقه في كل مطعم. بالطبع سيضحك الحاضرون؛ لأنهم يعرفون أنني أقصد العكس. فإن بلغته استغابتي فلي مخرج واضح.

فمتى نكفُّ عن الغيبة؟ هذا يكون عندما نموت ونذهب إلى الجنة. وحتى في الجنة فقد وصف لنا المعرِّي كيف يغتاب الناس بعضهم بعضًا. أحدهم قال في مجلس بالجنة أخفضوا صوتكم لا يسمع بهذا الكلام رب العزة. ثم سرعان ما استغفر واستدرك قائلًا: «إن الله سميع عليم لا تخفى عليه خافية».

في الأقوال المأثورة ما يُنسب إلى أكثرَ من قائل. هو ذا قول مأثور: «من اشترى ما لا يحتاج إليه، باع ما يحتاج إليه» ورأيته منسوبًا إلى الإمام علي، وإلى فيلسوف يوناني، وإلى بنجامين فرانكلين الأميركي.

وقد مرت بي أقوال مأثورة كثيرة لم أفلح في وضعها في باب بعينه من هذا الكتاب، فقلت أجعلها في ذيله. وبعض فضيلة هذا الفصل أنني نقلت لك فيه عشرات الأقوال إلى العربية بلغة اجتهدت أن أتأنق فيها، هذا بجانب الأقوال التي قالها العرب.

- إذا أفنيت عمرك في الجمع، فمتى تأكل؟
- سل العلماء عما جهلت، ولا تسألهم اختبارًا.
- اهرب من الفتيا هروبك من الأسد، لا تجعل رقبتك للناس جسرًا.
- سلِمت من الأسد، فلا تطمع في صيده.
- مَن ودَّك لأمر ملَّك عند انقضائه.
- اختر من كل شيء جديده، ومن الأصدقاء أقدَمَهم.
- أحيوا المعروف بإماتته، فإن الـمِنَّة تهدم الصنيعة.
- أهون التجارة الشراء، وأشدها البيع.
- ما حيلتك في جيران السوء؟ أكرم أبناءهم تدفع عنك شرور الآباء.
- الذباب يتتبع مواضع الجروح فيلوثها، وكذا الأشرار يتتبعون المعايب فيذكرونها ويدفنون المحاسن.
- من تتبَّع خفِيَّات العيوب، حُرم مودَّات القلوب.
- كتب أرسطوطاليس إلى الإسكندر: «إن الرعية إذا قدرت أن تقول، قدرت أن تفعل، فاجتهد أن تمنعها من أن تقول، تسلم مما قد تفعله».
- المستبد يجتهد في أن يمنع الناس من أي انتقاد لحكمه، ويحرص على أن يكال له المدح، والعادل يمنع الناس من ذمه بأن يتفقد عيوبه بالإصلاح قبل أن ينتبه الناس إليها.
- شتم رجل حكيمًا فكفَّ عنه، فقيل له في ذلك، فقال: «لا أدخل حربًا الغالب فيها أخسر من المغلوب».
- قال أبقراط: «الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع».
- العالم يعرف الجاهل؛ لأن العالم كان جاهلًا من قبل، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالمًا قط.
- حلمك عمن هم دونك ساتر عنك الذل لمن هم فوقك.

• قيل لصوفي فقير وقد هَرِم: «كيف حالك؟» قال: «أموت قليلًا قليلًا على مهل». قيل له: «فإن مت فمن يدفنُك؟» قال: «من تؤذيه جيفتي».

• العاقل لا يشير على المعجب برأيه.

• ليس لماء الوجه ثمن.

• أيسر شيء الدخول في عداوة، وأصعب شيء الخروج منها.

• من رفعك فوق قدرك فاحذر منه.

• لا تصدق الحلَّاف.

• من أفسد بين اثنين فعلى أيديهما هلاكُه إذا اصطلحا.

• ويل لمن وقع بين عز النفس وذل الحاجة.

• التاريخ ليس سوى سجلٍ بجرائم وحماقات ونحوس الإنسان. إدوارد غيبون

• الجيش يزحف على بطنه. نابليون بونابرت.

• التاريخ يُعيد نفسه: مرة كتراجيديا، ومرة كمهزلة. كارل ماركس في الثامن عشر من بروميير لويس بونابرت

• من لا يتذكر الماضي قَدَرُه أن يكرره. جورج سنتيانا الفيلسوف الأميركي

هذا الرجل كان إذا أراد التنزه قطع صفحات من الكتاب الذي يقرؤه وأخذها معه. وأتذكر له قولًا عن بيتهوفن، قال: «إنما خلق الله العالم ليولد بيتهوفن وليكتب السيمفونية التاسعة».

• لا أستطيع أن أعلِّم أحدًا، أستطيع فقط أن أجعله يفكر. سقراط

ولسقراط قصة مع امرأتين، الأولى أمه فيناريتي وكانت تعمل قابلة، أي داية. وشبَّه نفسه بها، فهو لا يصنع للناس عقولًا بل يستخرج منهم الفكر بأسئلته. والثانية امرأته الصخَّابة زانتيبي وقد خرجت عليه يومًا بملابسها اللامعة وهو يجلس إلى تلاميذه، فقال: «قد أبرَقت»، وأخذت تصرخ به، فقال: «قد أرعَدت»، وسكبت فوق رأسه دلو ماء، فقال: «الآن أمطَرت».

• العزلة جيدة، ولكنني بحاجة إلى شخص أخبرُه أنها جيدة. بلزاك

• الرجل الذي لا حياة داخليةً له، عبدٌ لبيئته.

• لن يجعلك أحد تشعر بالدونية إلا بموافقتك. إليانور روزفلت، زوجة رئيس الولايات المتحدة فرانكلين روزفلت

- لئن رأيتُ أبعدَ مما رأى غيري، فلأنني وقفت على أكتاف العمالقة. إسحق نيوتن، ما أجمل هذا التواضع! وبالمناسبة كان نيوتن من أشد الناس غرورًا.
- الأناقة جمال لا يذوي. أودري هيبورن
- إذا سُئل الشريف تواضع، وإذا سئل الوضيع تكبر.
- أروع هندسة أن تبني جسرًا من الأمل على نهر من اليأس.
- أصدقُ الصِّدق الأمانة، وأكذب الكَذِب الخيانة.
- الابتسامة كلمة طيبة ضاعت حروفها.
- الاهتمام المفاجئ في طَيِّه طلب.
- الإهمال بعد الاهتمام.. قتل نفس بريئة
- التواضعُ مجد.
- أوفى الأوفياء من يفي للأموات.
- الإيمان يصنع الشجاعة.
- البِشر عنوان الكرم.
- التواضع من مصائد الشرف.
- الخَيبة تهتك الهَيبة.
- السعيد من وُعظ بغيره، والشقي من وُعظ بنفسه.
- السيد من إذا أقبل هابوه، وإذا أدبر عابوه.
- الكامل من عُدَّت هفواتُه.
- الكريم يرعى المعرفة مثلما يرعى القرابة
- إن امرءًا ليس بينه وبين آدمَ حيٌّ لَمُعرِقٌ في الموت.
- سيِّدي هو من وقف بجانبي وضرباتُ الدهر تنهال على رأسي.
- صنفان إذا صلحا صلح كل الناس: الفقهاء والأمراء.
- ضِيق الصدر من ضَعَة القَدر.
- عادات السادات سادات العادات.

• عيادَةُ الثقلاء أشدَّ على العليل من علّته، يجيئون في غير وقت ويطيلون الجلوس.

• في المعاريض مندوحة عن الكذب.

• قال معاوية: «كل الناس أقدِرُ على أن أُرضيَهم إلَّا حاسدَ نعمة، فإنه لا يُرضيه إلا زوالُها».

• لا تغترَّ بحدَّة بصرك في الظلمة الراكدة.

• لا تكن ممن يلعن إبليس في العلن، ويطيعه في السر.

• لسانك ثعبان في فمك، فاحذره.

• ما أنصفك من كلَّفك إجلالَه، ومنعك مالَه.

• مسكينٌ ابن آدم؛ تؤذيه البقَّة، وتقتله الشَّرقَة.

• من أسرع للناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون.

• من أصلح فاسده أرغم حاسده.

• من أطاع غضبه أضاع أدبه.

• الشريفُ الشريف.. لا يتباهى بشيء.

• الشيخوخة شكوى وأعذار، والشباب عزم وأمل. وكم شابٍّ حدث السن لكنه شيخ في شكواه ومعاذيره.

• العاقل من يغلق فمه قبل أن يغلقَ الناس آذانهم.

• المتواضع الحق هو الذي يمتلك الكثير ليتواضع به.

• إن غاب الاهتمام، وجب الرحيل.

• بيت الأنانية لا يسع غير صاحبه.

• قال الإمام الغزالي: «من لم يعرف أحوال زمانه فهو جاهل».

• بين الظلم الظاهر والعدل الخفي خيط رفيع لا يراه إلا أهلُ القلوب.

• تاج الملِك لا يقي رأسَه الصداع.

• علامَ الخوف؟ والشمس لا تغيب عنك إلَّا لتعود إليك.

• ليست الأنانية أن تعيش كما تريد، بل أن تريدَ من الآخرين أن يعيشوا كما تريد.

- ما من أحد يصغُر عن أن يَنقُد، وما من أحد يكبُر عن أن يُنقَد.
- نصحوا قتيبةَ بن مسلم برجل يقود الجند في حملة، فقال: «ذاك متكبِّر، والمتكبِّر لا يستشير، وهو يتكبَّر على عدوِّه، ومن تكبَّر على عدوِّه احتقر العدو وقلَّ منه احتراسُه، وما رأيت محاربًا تكبَّر على عدوه إلا كان مخذولًا مهزومًا».
- من سعادة جدك وقوفك عند حدك.
- من عرف كيف يسأل عرف كيف يتعلم.
- من كان عبدَ الحق فهو حر.
- نعم المحدِّث الدفتر.
- هَرِمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية. أحمد الحفناوي التونسي.
- من لم يتَّضع عند نفسه، لم يرتفع عند غيره.
- قد يكون آخرُ مفتاح في السلسلة هو الذي سيفتح الباب.. لا تيأس.
- ابتسامتك لأخيك درهم نحاس، ودمعتك على مصابه دينار ذهب.
- أحلى من الثبات على الرأي الرجوع إلى الحق إن سطع.
- إذا نسي العالِم كلمة «لا أدري» بدت مقاتله.
- المحسن مُعان، والمسيء مُهان.
- عاشر بمعروف من لا بد لك من معاشرته، حتى يجعل الله لك منه مخرجًا.
- في مالِكَ شركاءُ ثلاثة أولهم أنت، وثانيهمُ القدر يأخذ من مالك عند الخسارة، وثالثُهم الوارث، وهو قاعد لك على الطريق ينتظر متى تضع خدَّك ليأخذَ مالك. فلا تكن أعجزَ الثلاثة.
- قال أبو عبيدة: «القرآنُ على عشَرة أحرف: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وعظةٌ، وأمثال، وبشير، ونذير، وأخبارُ الأولين، وأخبار الآخِرين».
- قال بعض السلف: «العلوم أربعةٌ: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان».
- قيل لمعاوية: «أأنت أمكرُ أم زياد؟»، فقال: «إن زيادًا لا يدع الأمر يتفرق عليه، وإنه ليتفرق عليَّ فأجمعه».
- قيل لمعاوية: «ما بلغ من عقلك؟»، فقال: «لم أثق بأحد».
- كل مخلوق يجري إلى ما لا يدري.

• للحاسد حزنان: حزن لما نزل به من شر، وحزن لما نزل بغيره من خير.

• مَن آثَرَ عاجل الخسيس، فقد ضيَّع آجِلَ النفيس.

• مَن بلغ أقصى أملِه فليتوقع دُنُوَّ أجلِه.

• من جَسَرَ أيسَر، ومن هاب خاب.

• نظر معاويةُ إلى يزيدَ يضرب غلامًا له، فقال: «لا تفسد أدبَك بتأديبك لغلامك».

• اجعل سرك إلى واحد، ومشورتَك إلى ألف.

• أقلِل طعامَك، تحمد منامَك.

• التفكُّر في الخير يدعو إلى فعله، والتفكُّر في الشر يدعو إلى تركه.

• لم تكتمل الفُتوَّة إلا لرسول الله ﷺ، فكلنا يقول في يوم القيامة: «نفسي نفسي»، والرسول يقول: «أمَّتى أمَّتي».

• الفُتوَّة الصفحُ عن عثرات الإخوان.

• الفُتوَّة ألا ترى لنفسك فضلًا على غيرك.

• قال النصرأباذيُّ: «سمَّى القرآنُ أصحاب الكهف فتيةً لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة».

• الشريفُ لا يسترِق النظر.

• الفُتوَّة أن يكون العبد ساعيًا في أمر غيره.

• الفُتوَّة كفُّ الأذى وبذل الندى.

• الفُتوَّة ألَّا تهرب إذا أقبل السائل الفقير.

• الفُتوَّة إظهار النعمة وإخفاء المحنة.

• الفُتوَّة ألا تربح على صديقك.

• الفِراسة من مقامات الإيمان.

• لا يُعرف ثلاثة إلا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والأخ عند الحاجة.

• أهم شيء في الحياة صديقٌ يمكنك الاتصالُ به في الرابعة فجرًا.

• كم من ديك صدَّق أن الشمسَ تشرق بصياحه.

• السعادةُ أن تجدَ شخصًا يشبهُ روحَك.

• وطن بلا حرية ينهزمُ بغير حرب.

• الطيور تأكل النمل، فإن ماتت أكلَها النمل.

• كثرة المعلومات لا تصنع معرفة إلا إذا رافقتها الحكمة.

• كثير الأعذار كاذب، وقليلها فاشل.

• لم ينجح قطُّ من لم يؤمن بنفسه.

• المديرُ الناجح من كان رئيسُ مجلس الإدارة عمَّه.

• النجاحُ في الزواج لا يتطلبُ أن تختار الشريكَ المناسب، بل أن تكون أنت مناسبًا.

• ما أكثرَ الكتب، وما أقصر العمر!

• بيت بلا كتب جسم بلا روح.

• إن أردت معرفةَ حقيقة الرجل فانظر كيف يعامل من يعملون تحت يده.

• الصادق ليس عليه أن يتذكر التفاصيل.

• قد ينسى الناس كل ما قلت، وكل ما فعلت، ولكنهم لن ينسوا الانطباع عنك.

• اغفر لأعدائك، فهذا يغيظُهم.

• «كن نفسَك» عبارة جميلة وأجمل منها «كن حُلُمك».

• أن يكرهَك الناس لحقيقتك خير من أن يحبوك للسبب الخطأ.

• أن تكون سخيفًا أفضلُ من أن تكون مملًّا.

• إذا وجدت نفسك مع الأغلبية فقف وفكر، لعل الأغلبية على خطأ.

• الإنسان الذي لا يقرأ لا يتميز عمن لا يحسنُ القراءة.

• الخيال أهم من المعرفة، الخيال معرفةُ ما سيأتي.

• أحِبَّ الجميع، وثق بالقليل، ولا تسئ إلى أحد.

• إذا أحبَّك أحد بشغف منحك القوة، وإذا أحببتَ بقوة ملكت الشجاعة.

• إذا شغلت نفسك بالحكم على الناس لم تجد وقتًا لتحبَّهم.

- الحب أن تكون سعادةُ من تحب سعادتَك أنت.
- الصدق المطلق مستحيل، حتى من الأطفال، المجانين فقط يحسنونه.
- الحياة كركوب الدراجة، للحفاظ على توازنك يجب أن تبقى متحركًا.
- إذا استمتعت بتضييع الوقت فهو ليس وقتًا ضائعًا.
- إنك لتبحث بلا جدوى عن كتاب رائع ولا تجده، هيا اكتبه بنفسك.
- ما الكتابة؟ هي أن تجلس إلى منضدتك وتنزف.
- كلهم يعرفون كتاب البيان والتبيين، ولم يقرأه أحد.
- العارف يقرأ الكتب والتافه يعرف عناوينها.
- خيال المرأة سريع، يقفز من الإعجاب إلى الحب، ثم إلى الزواج في لحظة.
- الكذبة تلف الكرة الأرضية، بينما الحقيقة ما زالت تربط حذاءها.
- لا تعلِّم الحمقى، سيزدادون حمقًا مع المعرفة.
- الذكريات تُدفئ قلبك، وتمزقه أيضًا.
- حب فاشل خير من لا حب.
- يوم بلا ضِحكة يوم ضائع.
- الذي لا يتأثر لمآسي الناس فقير في الروح، أو سياسي.
- ما أجمل أن يكون لك صديق تستطيع أن ترفع الكلفةَ معه.
- لا بد للمُصلح الذي يشكِّك في صحة نظام قديم من أن يأتيَ للناس بنظام أصح منه.
- إذا تكاتف السيف والقلم على أمر فلا بد من أن يتم.
- العبقرية هي اجتماع النقائض في شخصية واحدة.
- سوء الحظ مجرد عقدة نفسية.
- سرعة التصديق وسرعة الإنكار كلاهما يدلان على سذاجة.
- الإنسان مجبول على أن ينسى مساوئه ويتذكرَ محاسنه مع بعض المبالغة.
- الرجال يموتون ولكن مبادئهم لا تموت.
- الشكُّ لا يكاد يبدأ في ناحية حتى يعم جميع النواحي.

• التفكير والقلق صنوان لا يفترقان.

• العدل الاجتماعي لا يتمُّ إلا إذا كان إزاء الحاكم محكومٌ واعٍ يردعه ويهدده بالعزل.

• الناس يحبون الحق بأقوالهم ويكرهونه بأعمالهم.

• كل شيء يحمل نقيضه في صميم تكوينه، ينمو ونقيضُه ينمو معه.

• كلما كان الإنسان أكثر اجتماعيةً، كان أقل عمقًا وأكثر ابتذالًا.

• تكون الفكرة رائعة وجميلة فقط إن كانت عملية أيضًا.

• لا نتذكر الماضي لجماله، لكن لبشاعة حاضرنا.

• الشخصية الناجحة هي التي تتخيل النجاح الذي تريده.

• لا تُضع وقتك في الشرح: فالناس تصغي إلى ما تريد سماعَه فقط.

• لو خيَّروا العرب بين دولتين علمانية ودينية لصوَّتوا للدولة الدينية وذهبوا للعيش في الدولة العلمانية.

• أمة تأخذ دينها من مفسِّري الأحلام هي قطعًا أمة نائمة.

• السياسيون لا يبالون أن يقتلوا الأنبياء إذا وجدوهم يقفون عقبة في طريقهم إلى الكراسي.

• العرب يدرسون التاريخ حتى يثبتوا أن فلانًا أشجعُ من فلان وفلانًا أفضلُ من فلان.

• الإنسان يطلب العدل حين يكونُ محرومًا منه فإذا حصل عليه، بخِل به على غيره.

• العقل البشري قادرٌ على أن يختلقَ الحُجج لتبرير أي عمل يقوم به.

• ما أصعب أن تحبس قصة حلوة ولا تخبرَ بها أحدًا.

• كل شيء يمكنك أن تتخيله شيء حقيقي.

• نحن لا نرى الأشياء على حقيقتها، بل على حقيقتنا.

• كثيرًا ما يكون السؤال أصعب من الجواب.

• ليس المهم أن تجد نفسك، المهم أن توجِدَها.

• المنطق سيأخذك من الألف إلى الياء، والخيال سينقلك إلى ما بعد الأبجدية.

• الحب كالريح لا تراه، ولكنك تحسه.

• كلما أُغلق بابٌ للسعادة فتح باب، والمشكلة أننا نطيل التحديق في الباب المغلق.

• الفرقُ بين العبقرية والغباء أن العبقرية لها حدود.

• قال الإمام الشافعي: «لا يحيط باللغة إلا نبي».

• الذكريات تدفئ قلبك، وتمزقه أيضًا.

• حب فاشل خير من لا حب.

• العبقرية هي اجتماع النقائض في شخصية واحدة.

• قال لقمان الحكيم: «ثلاثة لا يُعرفون إلا في ثلاثة مواطن: الشجاع عند الحرب، والحليم عند الغضب، وصديقُك عند حاجتك إليه».

• ثلاثة ليس لك فيهن حيلة: فقر يخالطه كسل، وعداوة يداخلها حسد، ومرض يمازجه هرم.

• الرجال ثلاثة: رجل كالغذاء لا يُستغنى عنه، ورجل كالدواء قد يحتاج إليه، ورجل كالداء والعياذ بالله منه.

• من عادى مَن دونه ذهبت هيبته، ومن عادى من فوقه غُلب، ومن عادى مثيله ندم.

• ما رأيت ظالمًا أشبهَ بمظلوم من الحاسد.

• قال بزرجمهر: «من أعيب عيوب الدنيا أنها لا تعطي أحدًا ما يستحقه، إما أن تزيدَه وإما أن تُنقِصه».

• ليكن استحياؤك من نفسك أكثرَ من استحيائك من غيرك.

• من عمل في السر عملًا يستحي منه في العلانية فهو لا يحترم نفسه.

• التواضع من مصايد الشرف.

• قال بعضهم: «ذهبت لذَّات الدنيا ولم يبق إلا حكُّ الجرب والوقيعةُ في الثقلاء.

• الأخ الصالح خير لك من نفسك؛ لأن النفس أمارة بالسوء، والأخ الصالح لا يأمر إلا بالخير.

• قال رجل لفيلسوف: «فلان يعيبك بكذا وكذا. فقال الفيلسوف: فمن حسناته أنه استحِى أن يواجهَني بما واجهتني أنت به».

- قال أرسطو: «العاقل يوافق العاقل. وأما الجاهل فلا يوافق العاقل ولا الجاهل، كما أن الخط المستقيم ينطبق على الخط المستقيم، وأما الخط المعوج فلا ينطبق على المستقيم.. ولا على المعوج».
- من التوفيق التأني عند الحَيرة.
- احفظ حقَّ من أكرمك وليس له حاجةٌ عندك.
- لا تفتح بابًا يُعييك سدُّه، ولا تُرسل سهمًا يُعجزك ردُّه.
- لا تشرب السم اتكالًا على الترياق.
- من تصدر قبل أوانه، فقد تصدى لهوانه.
- سُئل بعض البلغاء: «ما أحسنُ الكلام؟ فقال: الذي يسرع لفظه إلى أذنك كما يسرع معناه إلى قلبك».
- قال لقمان لابنه: «يا بني اجعل خطاياك بين عينيك: عُدَّها في كل يوم ولا تنسها، وأما حسناتك فانسها، فإنه أحصاها من لا ينساها».
- لا تصحب من هو أغنى منك، فإنك إن ساويته في الإنفاق أضرَّ بك، وإن زاد عليك استذلَّك.
- قيل لبعض الحكماء: «ما شيء لا يجوز أن يقال وإن كان حقًّا؟» فقال: «أن يذكر المرء محاسنه».
- من أشرف فِعال الكرام غفلتُهم عما يعلمون.
- موائد الملوك للشرف لا للعلف.
- لا تطلب من الكريم يسيرًا، فتكونَ عنده حقيرًا.
- مودةُ يوم صلة، ومودة شهر قرابة، ومودة سنة رحِم، من قطعها قطعه الله.
- الكامل من عُدَّت هفواته.
- من كان في كل سلوكه مثاليًّا، لا يقول كلمة نابية ولا يفعل فعلًا شائنًا، ويحب جميع الناس، ولم يسجل عليه أحد غلطة، كان في الغالب ثقيل الدم.
- المرض حبس البدن، والهم حبس الروح.
- أقرب رأييك إلى الصواب أبعدُهما عن هواك.
- سرورك عورة من عوراتك، فلا تبذله إلا لمأمون عليه.
- من أذل فَلسه، أعز نفسه.

• من سلك الجادة أمن العِثار.

• من كان عبدًا للحق كان حرًا.

• لا يقوم عز الغضب بذل الاعتذار.

• صيانة العلم تكون بمنحه لم يطلبه.

• لو صُور الصدق لكان أسدًا، ولو صور الكذب لكان ثعلبًا.

• لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف.

• من عاب نفسه فقد زكاها.

• من بلغ غاية ما يحب، فليتوقع غايةَ ما يكره.

• أسرع الناس إلى الفتنة أقلُّهم حياء من الفِرار.

• الحر عبد إذا طمع، والعبد حر إذا قنع.

• ابتلاؤك بمجنون كامل خير من ابتلائك بنصف مجنون.

• قد تكسد اليواقيت، في بعض المواقيت.

• لا تبع هيبة السكوت برخيص الكلام.

• شر العلماء من لازم الملوك، وخير الملوك من لازم العلماء.

• إذا رأيت العالم يلازم السلطان فاعلم أنه لص، وسيقال إنه يرد المظالم، ويسعى في مصالح الناس.. لا تصدق.

• إذا حدثت القوم فلا تُقبل على واحد من جلسائك دون الآخرين، واجعل لكل واحد نصيبًا.

• لا يتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا في البلاد، وإذا خاضوا سيلًا، وإذا واجهوا خيلًا.

• كن على حذر من الكريم إذا أهنته، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن العاقل إذا أحرجته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الفاجر إذا عاشرته.

• قال الشافعي: «ما رفعتُ أحدًا قطُّ فوق قدره إلَّا غضَّ مني بمقدار ما رفعت منه».

• قال بعض أجدادنا: «لمَّا عمَّت البلوى بهذه القهوة المسمَّاة البُن، وكثر اتخاذها في البيوت صارت قانونًا لكل أحد، واتخذها الغني والفقير، والجليل والحقير».

• إياك وفضول الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بَطَن، ويحرك من عدوك ما سكن.

• كل امرئ يُعرف بقوله، ويوصف بفعله، فقل سديدًا وافعل حميدًا.

• إذا صنعت المعروف فاستره، وإذا نالك معروف فانشره.

• من جاد بماله جلَّ، ومن جاد بعرضه ذلَّ.

• جود الرجل يحببه إلى أصدقائه، وبخله يبغضه إلى أولاده.

• إذا سكتَّ عن جاهل فقد أوسعتَه جوابًا.

• لا تشكُ ضعفك إلى عدوك فإنك تُشمته بك، وتُطمعه فيك.

• إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل.

• المزاح يورث الضغائن.

• ليس لمعجب بنفسه رأي، ولا لمتكبر صديق.

• اجلس حيث يؤخذ بيدك وتُبَر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر.

• سلطان غشوم خير من فتنة تدوم.

• غشُّ القلوب يظهر في فلَتاتِ اللسان وصفَحات الوجوه.

• من اعتمد على نسبه فقد عقَّ آباءه.

• الصدق عز. والتعفف عز.

• قال بزرجمهر الوزير الفارسي: «عاديت الأعداء فلم أجد عدوًّا أعدى لي من نفسي، وعالجت الشجعان والسباع فلم يغلبني إلا الصاحبُ السوء، وأكلت أطايب الطعام فلم أجد ألذَّ من العافية، وشربت المُرَّ فما وجدت أمرَّ من الفقر، وسُررت بالقرب من الملوك فلم أر أحسن من الخلاص منهم».

• قال بزرجمهر: «أعلم الناس بالدنيا أقلُّهم منها تعجبًا».

• العزلة بغير عَين العلم زلَّة، والعزلة بغير زاي الزهد علَّة.

• رأى أحدهم بهلولًا عند المقابر فقال له: «ما تصنع ههنا؟» قال: «أجالس قومًا لا يغدِرونني، وإن غفلت عن الآخرة ذكَّروني، وإن تركتهم لم يغتابوني».

• زار عالم زاهدًا ونقل إليه كلامًا عن صديق يذمه، فقال له الزاهد: «قد أبطأت في الزيارة، وجئتني بثلاث جنايات: بغضت إليَّ أخي، وشغلت قلبي الفارغ، ووضعت نفسك موضع التهمة».

• قال بعض الفقهاء: «خوفي من النساء أشدُّ من خوفي من وسوسة الشيطان». قيل له: «فكيف ذلك؟» قال: «قال تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء، ٧٦]، وقال جلَّ جلاله: ﴿إن كيدكن عظيم﴾ [يوسف، ٢٨]».

• العلم عزيزُ الجانب لا يعطيِك بعضَه أو تعطيَه كلَّك.

• قال الشَّعبي: «العلم ثلاثة أشبار، فمن نال شبرًا شمخ بأنفه وملأه الغرور. ومن نال الشبر الثاني تواضعَ وعلِم أنه لم يحصِّل إلا القليل. فأما الشبر الثالث فهيهات! لا ينالُه أحد أبدًا».

• إذا التمست الحكمة فعليك بأخلاق الأطفال فإنهم لا يهتمون بالرزق وتحصيله، وإن مرضوا تألموا ولم يشكوا، وإن تخاصموا لم يتحاقدوا وسَرعان ما يسعون إلى الصلح، ويُخوَّفون بأدنى شيء فيخافون، وتَدمَع أعينهم بسرعة.

• لا تزوِّج ابنتَك إلا من ذي خُلق: فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها.

• حفظ الأسرار يدل على جواهر الرجال، ولا خير في إناء لا يحفظ ما بداخله.

• أجهل الناس من كان للإخوان مذِلًّا، وعلى السلطان مُدِلًا. (والإدلال هو أن يتدلَّل المرء ويكثرَ من الطلب)

• يرحلُ ابن آدمَ كل يوم إلى الآخرة مرحلة.

• إذا بقيَ ما قاتك، فلا تأسَ على ما فاتك.

• اشتغِل عن لذَّاتك بعمارة ذاتك.

• ستة لا تخطئهم الكآبة: حديثُ عهدٍ بغنىً، وغنيٌّ يخاف على ماله من التلف، وحسود، وحقود، وطالب مرتبة فوق قدره، وجليسُ أهل الأدب وليس منهم.

مما نُسب إلى الإمام علي

• أعلم الناس بالله سبحانه أكثرهم له مسألة.

• آفة العمل ترك الإخلاص فيه.

• أفضل الأمانة الوفاء بالعهد.

• إذا رأيت من غيرك خلقًا ذميمًا فتجنَّب من نفسك أمثاله.

• إذا لم تكن عالمًا فكن مُستمعًا واعيًا.

• العقل أن تقول ما تعرف، وأن تعمل بما تقول.

• العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

- اللّئيم إذا قدَرَ أفحش، وإذا وعد أخلف.
- المحسن حيٌّ وإن نُقِل إلى منازل الأموات.
- إنَّ الحازم من لا يغترُّ بالخدع.
- إن الله تعالى يُدخل بحسن النِّية وصالح السَّريرة من يشاء من عباده الجنَّة.
- إنما الدنيا شَرَك وقع فيه من لا يعرفه.
- إنما اللَّبيب من استلَّ الأحقاد من الصدور.
- إيَّاك ومصادقةَ الأحمق فإنَّه يريد أن ينفعك فيضرَّك.
- بالإحسان تملك القلوب، وبالسَّخاء تستر العيوب.
- بالطاعة يكون الفوز، وبالمعصية يكون الشَّقاء.
- بالعافية تحصل لذَّة الحياة.
- بكثرة التَّواضع يُستدل على تكامل الشّرف، وبكثرة التكبُّر يكون التَّلف.
- ثلاث يوجبن المحبَّة: الدِّين، والتَّواضع، والسَّخاء.
- خذ الحكمة أنَّى كانت، فإنَّ الحكمة ضالَّة كلِّ مؤمن.
- ذهاب النَّظر خير من النَّظر إلى ما يُوجب الفتنة.
- رأس الجهل مُعاداة النّاس.
- رحم الله امرَءًا أحيا حقًّا وأمات باطلًا وأدحض الجور وأقام العدل.
- رضيَ بالذُّل من كشف ضُرَّه لغيره.
- سوء الجوار والإساءة إلى الأبرار من أعظم اللُّؤم.
- صبرك على الـمُصيبة يُخفِّف الرَّزية ويُجزل المثوبة.
- صحبة الأخيار تُكسب الخير، كالرَّيح إذا مرت بالطِّيب حملت طيبًا.
- أفضل الجود إيصال الحقوق إلى أهلها.
- أفضل النَّاس أنفعهم للنّاس.
- أكرم الشِّيم إكرام الـمُصاحب وإسعاف الطَّالب.
- أكرم ضيفك وإن كان حقيرًا، وقُم من مجلسك لأبيك ومُعلِّمك وإن كنت أميرًا.

- الإيمان معرفة بالقلب، وإقرارٌ باللَسان، وعمل بالأركان.
- الجاهل ميِّت بين الأحياء.
- الدُّنيا سجن المؤمن، والموت تحفته، والجنَّة مأواه.
- احذر اللَّئيم إذا أكرمته، والرَّذل إذا قدّمته، والسَّفيه إذا رفعته.
- أحسن الكلام ما لا تمُجُّه الآذان ولا يُتعب الأفهام.
- إذا أحبَّ الله عبدًا ألهمه حسن العبادة.
- إذا رأيتَ مظلومًا فأعِنهُ على الظَّالم.
- أشبه النَّاس بأنبياء الله أقولهم للحقِّ وأصبرهم على العمل.
- طالب الآخرة يدرك أمله، ويأتيه من الدُّنيا ما قُدِّر له.
- ظلم الضَّعيف أفحش الظُّلم.
- عليك بالعدل في الصَّديق والعدو، والقصد في الفقر والغِنى.
- عند تعاقُب الشَّدائد تظهر فضائل الإنسان.
- فَقد البصر أهون من فَقد البصيرة.
- كلُّ شيء فيه حيلة إلَّا القضاء.
- لا يكون الصَّديق صديقًا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته وغيبته ووفاته.
- لن يحصل الأجر حتى تتجرَّع الصَّبر.
- مطرُ التَّحاسُد ينبت التَّفاسُد.
- من أفضل المعروف إغاثة الملهوف.
- من وَقَّرَ عالِمًا فقد وَقَّرَ ربَّه.
- يُنبئ عن عقل كل امرئٍ لسانه، ويدلُّ على فضله بيانه.

مسرد الشخصيات

إبراهيم، سيِّد (١٨٩٧-١٩٩٤)

الأبشيهي، شهاب الدين (٧٩٠-٨٥٢هـ)

ابن الزبير، عبد الله (١-٧٣هـ)

ابن النفيس، أبو الحسن علي (٦٠٧-٦٨٧هـ)

ابن مقلة، أبو علي محمد (٢٧٢-٣٢٨هـ)

ابن منظور، محمد (٦٣٠-٧١١هـ)

أبو ماضي، إيليا (١٨٨٩-١٩٥٧)

الإدريسي، محمد (٤٩٣-٥٥٩هـ)

إدوارد الثامن (١٨٩٤-١٩٧٢)

إدوارد السابع (١٨٤١-١٩١٠)

أزيموف، إسحق (١٩٢٠-١٩٩٢)

الإسكندر الأكبر (٣٥٦ ق م-٣٢٣ ق م)

إسماعيل، المصارع يوسف (١٨٥٧-١٨٩٨)

الأصفهاني، أبو الفرج (٢٨٤-٣٥٦هـ)

الأفغاني، سعيد (١٩٠٩-١٩٩٧)

إليزابيث الثانية، الملكة (١٩٢٦-٢٠٢٢)

الآمدي، حامد (١٨٩١-١٩٨٢)

أمين، أحمد (١٨٨٦-١٩٥٤)

أمين، جلال (١٩٣٥-٢٠١٨)

أمين، قاسم (١٨٦٣-١٩٠٨)

أورويل، جورج (١٩٠٣-١٩٥٠)

باديس، عبد الحميد بن (١٨٨٩-١٩٤٠)

باسكال، بليز (١٦٢٣-١٦٦٢)

باكسمان، جيريمي (١٩٥٠-)

بدوي، عبد الرحمن (١٩١٧-٢٠٠٢)

براهه، تايكو (١٥٤٦-١٦٠١)

برايسون، بيل (١٩٥١-)

البردوني، عبد الله (١٩٢٩-١٩٩٩)

بطرس الأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥)

البغدادي، هاشم محمد (١٩١٤-١٩٧٣)

البكر، أحمد حسن (١٩١٤-١٩٨٢)

بكلاند، وليم (١٧٨٤-١٨٥٦)

بورقيبة، الحبيب (١٩٠٣-٢٠٠٠)

بويل، روبرت (١٦٢٧-١٦٩١)

بيتهوڤن، لودڤيغ فان (١٧٧٠-١٨٢٧)

بَيْدَبا (نحو ٢٠٠ ق م)

بيرم التونسي (١٨٩٣-١٩٦١)

بيريلمان، ياكوڤ (١٨٨٢-١٩٤٢)

بيسيمر، هنري (١٨١٣-١٨٩٨)

بيكون، فرانسيس (١٥٦١-١٦٢٦)

ترمب، دونالد (١٩٤٦-)

تسلا، نقولا (١٨٥٦-١٩٤٣)

تشابلن، تشارلي (١٨٨٩-١٩٧٧)

تشارلز الأول (١٦٠٠-١٦٤٩)

تشرتشل، ونستون (١٨٧٣-١٩٦٥)

تشمبرلين، نيڤيل (١٨٦٩-١٩٤٠)

التَلِّيسي، خليفة محمد (١٩٣٠-٢٠١٠)

تماري، سليم (١٩٤٥-)

التنوخي، أبو علي (٣٢٧-٣٨٤هـ)

توتو، ديزموند (١٩٣١-٢٠٢١)

التوحيدي، أبو حيان (٣١٠-٤١٤هـ)

تيلر، البارون (١٩٢٩-٢٠١٦)

تيمور، أحمد (١٨٧١-١٩٣٠)

ثاتشر، مارغريت (١٩٢٥-٢٠١٣)

ثورو، هنري (١٨١٧-١٨٦٢)

الجاحظ، عمرو بن بحر (١٥٩-٢٥٥هـ)

جبران، جبران خليل (١٨٨٣-١٩٣١)

الجزائري، الأمير عبد القادر (١٨٠٧-١٨٨٣)

جفرسون، توماس (١٧٤٣-١٨٢٦)

الجلاء، أحمد بن يحيى (ت ٣٠٦ هـ)

الجميِّل، أمين (١٩٤٢-)

الجميِّل، بشير (١٩٤٧-١٩٨٢)

جورج الخامس (١٨٦٥-١٩٣٦)

جورج السادس (١٨٩٥-١٩٥٢)

جورج، لويد (١٨٦٣-١٩٤٥)

جونسون، ليندون (١٩٠٨-١٩٧٣)

الثقفي، الحجَّاج بن يوسف (٤٠-٩٥هـ)

حسني، محمد (١٨٩٤-١٩٦٩)

حسين، الملك (١٩٣٥-١٩٩٩)

حسين، صدام (١٩٣٧-٢٠٠٦)

حسين، طه (١٨٨٩-١٩٧٣)

حلو، شارل (١٩١٣-٢٠٠١)

حنبل، أحمد بن (١٦٤-٢٤١هـ)

شيشرون (١٠٦ ق م-٤٣ ق م)
صَرُّوف، يعقوب (١٨٥٢-١٩٢٧)
الطبري، محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠هـ)
الطنطاوي، علي (١٩٠٩-١٩٩٩)
طوقان، إبراهيم (١٩٠٥-١٩٤١)
طوقان، فدوى (١٩١٧-٢٠٠٣)
الطيب، عبد الله (١٩٢١-٢٠٠٣)
الطيب، غريزيلدا وليم (١٩٢٥-٢٠٢٢)
عارف، عبد الرحمن (١٩١٦-٢٠٠٧)
عارف، عبد السلام (١٩٢١-١٩٦٦)
عاكف، أحمد زكي (١٨٩٤-١٩٧٥)
عباس، عبد الله بن (٣-٦٨هـ)
عبد الحميد، السلطان (١٨٤٢-١٩١٩)
عبد الرحمن الداخل (١١٣- ١٧٢هـ)
عبد الله بن علي عم المنصور (١٠٢-١٤٧هـ)
عبد المجيد الثاني، الخليفة (١٨٦٨-١٩٤٤)
عبد الملك بن مروان، الخليفة (٢٦-٨٦هـ)
عبد الناصر، جمال (١٩١٨-١٩٧٠)
عبده، محمد (١٨٤٩-١٩٠٥)
عبيد، عمرو بن (٧٩-١٤٣هـ)
عثمان، الحافظ (١٦٤٢-١٦٩٩)
عَدوان، ممدوح (١٩٤١-٢٠٠٤)
عرفات، ياسر (١٩٢٩-٢٠٠٤)
عفَّت، عماد (١٩٥٩-٢٠١١)
العقاد، عباس محمود (١٨٨٩-١٩٦٤)

علي بن أبي طالب (٢٣ ق هـ-٤٠ هـ)
علي، جَوَاد (١٩٠٧-١٩٨٧)
عمر بن الخطاب (٤٠ ق هـ-٢٣ هـ)
عمر بن عبد العزيز (٦١-١٠١ هـ)
عمر، أحمد مختار (١٩٣٣-٢٠٠٣)
عون، ميشال (١٩٣٣-)
غازي بن فيصل (١٩١٢-١٩٣٩)
غاليلي، غاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢)
غاندي، المهاتما (١٨٦٩-١٩٤٨)
غراتسياني، رودولفو (١٨٨٢-١٩٥٥)
الغفاري، أبو ذر (ت ٣١ هـ)
غوتنبرغ، يوهانس (١٤٠٠- ١٤٦٨)
غوتِه، يوهان ڤولفغانغ (١٧٤٩-١٨٣٢)
غورو، هنري (١٨٦٧-١٩٤٦)
فاضل، عبد الحق (١٩١١-١٩٩٢)
فاطمة الزهراء بنت الرسول □ (١٨ ق هـ-١١ هـ)
فاطمة بنت عبد الملك (ت ١٠٥ ه)
فانون، فرانز (١٩٢٥-١٩٦١)
فرانكلين، بنجامين (١٧٠٦-١٧٩٠)
فرنجية، سليمان (١٩١٠-١٩٩٢)
فَرُّوخ، عمر (١٩٠٦-١٩٨٧)
فريحة، أنيس (١٩٠٣-١٩٩٣)
فلمنغ، ألكسندر (١٨٨١-١٩٥٥)
فيصل الاول، الملك (١٨٨٣-١٩٣٣)
فيصل الثاني بن غازي (١٩٣٥-١٩٥٨)

مور، توماس (١٤٧٨-١٥٣٥)

موري، جيمس (١٨٣٧-١٩١٥)

موليير، جون بابتيست (١٦٢٢-١٦٧٣)

موم، سومرست (١٨٧٤-١٩٦٥)

ميتشيل، مارغريت (١٩٠٠-١٩٤٩)

ميركل، أنغيلا (١٩٥٤-)

المَيمَني الراجكوتي، عبد العزيز (١٨٨٨-١٩٧٨)

النجفي أحمد الصافي (١٨٩٧-١٩٧٧)

نجم، أحمد فؤاد (١٩٢٩-٢٠١٣)

النخشبي، أبو تراب (ت ٢٤٥ هـ)

نعيمة، ميخائيل (١٨٨٩-١٩٨٨)

نيرون (٣٧ م-٦٨ م)

نيوتن، إسحق (١٦٤٢-١٧٢٧)

هارڤي، وليم (١٥٧٨-١٦٥٧)

هارون، عبد السلام (١٩٠٩ -١٩٨٨)

هازلت، وليم (١٧٧٨-١٨٣٠)

هاللي، إدموند (١٦٥٦-١٧٤٢)

هتلر، أدولف (١٨٨٩-١٩٤٥)

الهراوي، إلياس (١٩٢٦-٢٠٠٦)

هنري الثامن (١٤٩١-١٥٤٧)

هوبز، توماس (١٥٨٨-١٦٧٩)

هيث، إدوارد (١٩١٦-٢٠٠٥)

الهيثم، الحسن بن (٣٥٤-٤٣٠هـ)

هيكل، محمد حسنين (١٩٢٣-٢٠١٦)

هيكل، محمد حسين (١٨٨٨-١٩٥٦)

واكسمان، سلمان (١٨٨٨-١٩٧٣)

وايزمن، حاييم (١٨٧٤-١٩٥٢)

وايلد، أوسكار (١٨٥٤-١٩٠٠)

وحيد الدين، السلطان (١٨٦١-١٩٢٦)

الوردي، علي (١٩١٣-١٩٩٥)

ولينغتون، دوق (١٧٦٩-١٨٥٢)

يوسف النبي (ت ١٤٤٥ ق م ؟)

يوليوس قيصر (١٠٠ ق م-٤٤ ق م)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس..

Notes

[←1]

(1) نحرر هذا الكتاب في أواخر هذه السنة ولبنان قد أصبح بلدًا فقيرًا ودولة فاشلة.

[←2]

(2) نحرر هذا الكتاب في أواخر ٢٠٢٢، ولا نتنبَّأ بشيء.

[←3]

(3) نحن لا نكتب تاريخًا هنا! فقد نأتي بقصة مختلقة كي نصور الشخصية كما انطبعت في أذهان الناس.

[4→]

(4) وأنا أدقق هذا الكتاب للمرة الثانية، والأخيرة بإذن الله، في هذا اليوم ٣٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٢٢، اليوم الذي أُعلن فيه عن احتجاب إذاعة لندن بعد ٨٤ سنة من البث.

[5←]

(5) فعلت ذلك أنا نفسي قبل ٤٧ سنة، وظل الطلبة يفعلونه حتى يوم الناس هذا، وأكتب في خريف ٢٠٢٢.